جان بول سارتر

الجدار

ترجمة

هاشم الحسيني





منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

الجدار

جان بول سارتر



الجدار

ترجمة

هاشم الحسيني

١٩٦٣

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت



الی اولغا کوزاکیفتش

تعريف

عوّدنا سارتر في ابحاثه ورواياته ومسرحياته وصف الحالات النفسية في أوج توترها . لذا نراه يخلق « مواقف » الاحراج والقلق ليعبّر بها عن العواطف الحادّة التي تعصف بذات الانسان . فهو كما سمّاه أندريه موروا « خبير المشاعر الانسانية الصاخبة ».

و« الجدار » عنوان كتابنا هذا يتضمن خمس أقصوصات ، أولاها الجدار ، وهي قصة ثلاثة اشخاص ينتظرون ساعة إعدامهم رمياً بالرصاص صبيحة الغد ، يحلل فيها سارتر مشاعر كل منهم ، ومظاهر تلك المشاعر كما تتمثل في أنواع سلوكهم .

غير أن المواقف المتشابهة التي يعيشها أبطال القصة في مجابهتهم خطر الموت ، لا يعني أن كلاً منهم قد فقد ذاتيته . فاذا ما كانوا جميعاً حيال خطر واحد يحيط بهم ، فان لكل منهم « موقفه » الخاص ، يواجهه من زاوية بيئته وثقافته ونوعية تفكيره ، فضلاً عن عمره ومدى تجاربه .

ولا شك أن موضوع الجدار ، يحتاج لمقدرة فنية في التحليل الدقيق

والوصف الحي . فهو يبرز ذلك الجوّ الرهيب الذي يعيشه الانسان في أقصى ساعات الحرج .

وتعدُّ قصة « الجدار » من أرقى الاعمال الفنية التي تمثل التفكير السارتري، فهي تظهر مدى العمق الذي بلغه الكاتب الفرنسي في سبره أعماق المشاعر الانسانية .

المترجم

دفعونا الى داخل قاعة كبيرة بيضاء ، فتراقصت عيناي لأن النور كان يؤذيها . رأيت ، من ثم ، طاولة وراءها أربعة أشخاص من المدنيين ، كانوا يتصفحون الأوراق . وحشدوا السجناء الاخر في القعر وكان علينا أن نعبر الحجرة حتى آخرها لنلتحق بهم . كنت أعرف العديدين منهم. أما الآخرون فغرباء . والاثنان اللذان يواجهانني كانا أشقري اللون على جمجمتين مستديرتين . إنهما يتشابهان : فهما فرنسيان على ما اتصور . كان أصغرهما ينهض سرواله طيلة الوقت . كما كان عصبي المزاج .

استمر هذا الحال ثلاث ساعات ؛ كنت مخبولاً وكان رأسي فارغاً لكن الغرفة مدفأة وكنت أجد هذا شيقاً :منذ ثمان وأربعين ساعة لا زلنا نرتجف. كان الحراس يقتادون السجناء الواحد تلو الآخر أمام الطاولة . وعندها يسألهم الأشخاص الأربعة عن اسمهم ومهنتهم . ولم يذهبوا أكثر من ذلك معظم الوقت — أو انهم كانوا يطرحون سؤالاً من هنا وهناك : « هل اشتركت في تدمير الذخيرة ؟» أو بالأحرى « أين كنت صبيحة يوم ٩ وما كنت تفعله ؟ »لم يكونوا ليصغوا للأجوبة أو أن ذلك لم يبد عليهم على الأقل: كانوا يسكتون برهة ويتطلعون أمامهم ثم يأخذون بالكتابة . سألوا توم إذا كان قد خدم حقاً في الفرقة الدولية : لم يكن توم ليستطيع قول العكس بسبب الأوراق التي وجدت في سترته . ولم يسألوا جوان شيئاً ، فبعد أن ذكر اسمه ، استمروا بالكتابة طويلاً .

قال جوان : « إن أخي جوزي هو الفوضوي . وانتم تعرفون جيداً

انه ليس هنا . أنا لا انتمي لأي حزب ، ولم اعمل بالسياسة أبداً ».

لم يجيبوا . فأضاف جوان :

« أنا لم أعمل شيئاً . لا أريد أن ادفع الثمن عن الآخرين » .

كانت شفتاه ترتجفان . أسكته أحد الحراس واقتاده . وجاء دوري .

ـ اسمك بابلو إيباتا ؟

فقلت : نعم .

نظر الشخص الى أوراقه وقال لي :

ـ أين رامون غري ؟

ـ لا أعرف .

ـ خبأته في بيتك من يوم ١٦ الى ١٩ .

ـ ..

اخرجني الحراس . في الممر كان توم وجوان ينتظران

ـ ـاس . بدأنا بالمسير . سأل توم أحد الحارسين :

ـ وبعده ؟

فقال الحارس : ماذا ؟

ـ هذا استجواب أم حكم ؟

فقال الحارس :

ـ كان الحكم .

ـ حسناً ، ما سيفعلون بنا ؟

أجاب الحارس بجفاف :

ـ ستبلغون الحكم في زنزاناتكم .

وفي الواقع ، أن ما كان بمثابة زنزانة لنا هي أقبية المستشفى . كان فيها

البرد شديداً بسبب مجاري الهواء . ظللنا نرتجف طيلة الليل ولم تتحسن الحال طيلة النهار . الأيام الخمسة الماضية أمضيتها في سجن الابرشية المظلم ، وهو نوع من زنزانات العصر الوسيط ؛ وبما ان السجناء كثيرون والمكان ضيق ، فقد رصفوهم اينما كان . لم أكن آسف على سجني المظلم : لم أعان فيه من البرد غير اني كنت وحيداً فيه ؛ وهذا مزعج اذا استمر . وفي القبو كانت لي صحبة . جوان لم يكن ليتكلم أبداً : كان خائفاً ثم انه كان أصغر من أن يتكلم . لكن توم كان محدثاً لبقاً يتقن الاسبانية تمام الاتقان .

في القبو كان هناك مقعد وأربعة فرش محشوة بالقش . وعندما عادوا بنا ، جلسنا ننتظر بصمت وقال توم بعد برهة :

— انتهى أمرنا .

فقلت : اعتقد ذلك أيضاً ، لكني اظن أنهم لن يفعلوا شيئاً بالنسبة للصغير .

فقال توم : لا يستطيعون اتهامه بشيء ، انه شقيق لثائر ، هذا كل شيء .

نظرت الى جوان : لم يكن يبدو عليه أنه يتنبه .

وتابع توم :

— هل تدري ما يفعلونه في سراغوسه ؟ يطرحون الاشخاص على الطريق ويمرّون فوقهم بالشاحنات . اخبرنا بذلك أحد المغاربة الفارين . يقولون إن ذلك لتوفير الذخيرة . فقلت :

ـ هذا لا يوفر المحروقات .

كنت غاضباً من توم : ما كان عليه أن يقول ذلك . وأضاف : هناك ضباط يتنقلون على الطريق ، يشرفون على العملية ، أيديهم في جيوبهم والسيكار

في فمهم . أتظن أنهم يجهزون على الاشخاص ؟ يدعونهم يتصايحون عدّة مرّات في الساعة . كان المغربي يقول انه لم يصرخ في المرة الأولى . فقلت :

ـ لا أظن انهم سيفعلون هذا هنا . إلا إذا كان ثمة نقص في الذخيرة .

كان النهار يدخل من خلال الفجوات الأربع والثغرة المستديرة التي أحدثت في السقف ، الى جهة اليسار ، وكانت مشرفة على السماء . فمن خلال هذا الثقب المستدير المسدود عادة بحاجز صغير ، كانوا يرمون بالفحم الى القبو . تحت الثقب تماماً كانت توجد كومة كبيرة من الفحم المسحوق . وكان مخصصاً لتدفئة المستشفى ، ولكن منذ بداية الحرب تم إجلاء المرضى وظل الفحم هناك بغير استعمال . وكان المطر يتساقط بالمناسبة ، إذا اغفلوا إغلاق الحاجز الصغير .

بدأ توم يرتجف وقال :

« يا اسم الله المقدس ، اني ارتجف ، ها أن كل شيء يعاودني » .

ونهض وبدأ يقوم ببعض الحركات الرياضية . وفي كل حركة كان قميصه ينفتح على صدره الأبيض المكسو بالشعر . تمدد على ظهره ورفع رجليه في الهواء على شكل مقصّ : كنت أرى مؤخرته السمينة ترتجف . كان توم قوي البنية لكنه كان كثير الشحم . كنت أفكر بأن رصاصات البندقية أو رؤوس الحراب لا بدّ وأن تدخل في تلك الكتلة من اللحم الطريء كما تدخل في قطعة من الزبدة . لم يكن يحدث لي نفس الاثر لو كان ضعيفاً .

لم أكن اشعر بالبرد تماماً ، بل كنت لا أحس كتفيّ ولا ذراعيّ . كان يتهيأ لي من وقت لآخر أن شيئاً ما ينقصني فأبحث عن سترتي حولي ، ثم أتذكر بغتة انهم لم يعطوني السترة . كان الأمر عسيراً . أخذوا ثيابنا ليعطوها جنودهم ولم يتركوا لنا سوى قمصاننا ، وتلك السراويل التي

يرتديها مرضى المستشفيـــات في الصيف . بعد برهة نهض توم وجلس قربي وهو ينفخ .

ـ هل تدفأت ؟

ـ يا اسم الله المقدس ، لا . ولكني على آخر نفس .

نحو الساعة الثامنة دخل أحد القواد مع اثنين من الكتائب . كانت بيده ورقة . فسأل الحارس :

ـ ما اسم هؤلاء الثلاثة ؟ فقال الحارس :

ـ ستينبوك ، إيباتا وميربال .

ووضع القائد نظارته القديمة ونظر الى اللائحة :

ـ ستينبوك ... ستينبوك ... انظر . انت محكوم بالإعدام . ستعـــدم رمياً بالرصاص صباح غد » .

وتطلع أيضاً ثم قال :

ـ والآخران أيضاً ، فقال جوان :

ـ غير معقول . ليس أنا. فنظر اليه القائد بدهشة :

ـ ما اسمك ؟ فقال : جوان مربال .

فقال القائد :

ـ اسمك هنا ، انت محكوم .

فقال جوان : لم أفعل شيئاً .

فهز القائد كتفيه واتجه نحو توم ونحوي .

ـ انتما من الباسك ؟

ـ لا أحد من الباسك .

بدا أنه منزعج .

ـ قيل لي ان هناك ثلاثةمن الباسك . ولن أضيع الوقت بالركضوراءهم ـ اذاً بالطبع لا تريدون كهنة !

فلم نكلف نفسنا الإجابة . فقال :

ـ سيأتي طبيب بلجيكي في الحال . سمح له بقضاء الليلة معكم .

وقدم التحية العسكرية وأنصرف .

فقال توم : أما كنت أقول لك . نحن بأحسن حال .

فقلت : نعم ، لكنه عمل وحشي بالنسبة للصغير .

ن أحب الصغير . كان وجهه
جميع ملامحه . قبل ثلاثة أيام كان
يروق للعين ؛ ولكن له الآن هيئة خشبة مسطحة ،
لن يعود الى شبابه أبداً ، حتى ولو اطلق سراحه .
لم يكن أمر الشفقة عليه شيئاً ، ولكن الشفقة تثير اشمئزازي ، اذ انه كان يخيفني .

لم يضف شيئاً بعد ذلك لكنه أصبح داكن اللون :كما أصبح وجهه ويداه داكنة ايضاً . عاد الى الجلوس ونظر الى الأرض بعينين مستديرتين . كان توم طيب النفس ، فأراد أن يمسك بيده ، لكن الصغير تخلص منه بعنف مبدياً امتعاضه . فقلت بصوت منخفض : « دعه ، فأنت ترى أنه سيبدأ بالمواء » .

ورضخ توم مكتئباً ، إذ كان يؤثر تعزية الصغير ، فهذا كان يشغله عن التفكير بنفسه مرّة أخرى . لكن هذا يزعجني : لم أكن قط قد فكرت بالموت لأن فرصة الموت لم تسنح ، ولكن الفرصة موجودة الآن ولم يعد من شيء آخر يجدر أن نفكر به .

بدأ توم بالكلام وسألني :

« هل قتلت أشخاصاً ، انت ؟ » لم أجب . فأخذ يشرح لي كيف انه قتل ستة أشخاص منذ بداية شهر آب ، لم يكن يعي الموقف ، ورأيت أنه لم يرغب بأن يشعر بذلك. أما أنا فلم أكن أفقه شيئاً كما يجب ،كنت اتساءل إذا كانوا يتألمون كثيراً ، وأفكر بالرصاصات ، وأتصور أجسامها المحرقة عبر جسدي . كل هذا كان على هامش القضية الحقيقية، لكنني حافظت على هدوئي :فلدينا الليل كله لنفهم.وبعد لحظة امسك توم عن الحديث فنظرت إليه بطرف عيني . رأيت أنه بات داكن اللون ، هو أيضاً ، وأن ملامحه تدل على البؤس ، وقلت في نفسي : « ها هي البوادر » كان الوقت ليلاً الى حدّ ما ، والضوء الباهت يدخل من خلال الثغرات وكومة الفحم ، محدثاً لطخة كبيرة تحت السماء . من ثقب السقف بتّ أرى إحدى النجوم: سيكون الليل صافياً بارداً .

وفتح الباب ليدخل حارسان . كان يتبعها رجل أشقر يرتدي بزة رسمية بلجيكية . حيّانا ثم قال : « أنا طبيب . ولدي الأذن بمؤازرتكم في هذه الظروف العصيبة ».

كان صوته مميزاً يروق للسامع . وقلت له : « ما جئت تفعله هنا ؟ »

– أضع نفسي تحت تصرفكم . سأبذل قصارى جهدي حتى لا تكون هذه الساعات القليلة شديدة الثقل .

– لماذا أتيت إلينا ؟ فهناك أشخاص آخرون ، يضيق بهم المستشفى .
فأجاب بهيئة مبهمة :

– لقد أرسلوني الى هنا . وأضاف : « آه ! كان بودكم أن تدخنوا أليس كذلك .لديّ سجائر وسيكار أيضاً ».

قدم لنا سجائر انكليزية لكننا رفضنا . نظرت في عينيه فبدا منزعجاً .

وقلت له :

« انت لا تأتي الى هنا للمسايرة . فأنا أعرفك . لقد شاهدتك مع الفاشيين في باحة الثكنة ، في اليوم الذي أوقفت فيه ».

كنت أهم بالمتابعة ، ولكن شيئاً ما أتاني فجأة فباغتني : إن وجود هذا الطبيب لم يعد يهمني . عادة ، عندما أكون تجاه رجل لا أتركه ابداً . ومع ذلك فإن الرغبة في الكلام ذهبت مني . فهززت كتفي وحوّلت عيني .بعد ذلك بقليل ، نهضت رأسي : كان يراقبني مراقبة الفضولي . كان الحراس قد جلسوا فوق أحد فرش القش . بادرو الطويل الناحل كان يدير ابهاميه ، والآخر يهز رأسه من وقت لآخر حتى لا ينام .

قال بادرو فجأة للطبيب : « هل تريد ضوءاً » . فأومأ الآخر برأسه أن « نعم » : أظن انه لم يكن أذكى من قطعة الحطب ، لكنه لم يكن خبيثاً بلا ريب . والناظر إلى عينيه الزرقاوين الباردتين يرى أنه كان يخطىء لضعف خياله . وخرج بادرو وعاد حاملاً سراجاً على النفط وضعه على طرف المقعد . كان السراج لا يضيء كثيراً ، ولكنه أفضل من لا شيء : فقد تركونا البارحة في الظلام . نظرت لبرهة غير قصيرة الى دائرة النور التي رسمها السراج في السقف . كنت مشدوهاً . ومن ثم ، استيقظت بغتة ، فامحت دائرة النور وأحسست بأني منسحق تحت عبء ثقيل . لم تكن تلك فكرة الموت أو الخوف : بل كان ذلك مبهماً . كان خدّاي يحرقانني كما كنت أشعر بألم في جمجمتي .

نبهت نفسي وتطلعت الى صاحبيّ . كان توم قد أغرق رأسه بين يديه ، فلم أكن أرى سوى رقبته السمينة البيضاء . والصغير جوان كان أكثرنا بعداً عن طوره ، كان فمه مفتوحاً ومنخراه يرتجفان . اقترب الطبيب منه ووضع يده فوق كتفه وكأنه يريد أن يواسيه .لكن عينيه ظلتا مثلجتين . ثم شاهدت يد البلجيكي تنزل على طول ذراع جوان حتى القبضة . وجوان يسمح له

بذلك غير آبه . وأخذ البلجيكي يده بين أصابعه الثلاث ، بأسارير منبسطة ، وفي نفس الوقت تراجع قليلاً الى الوراء لكي يدير لي ظهره . غير اني انحنيت نحو الوراء فشاهدته يخرج ساعته وينظر إليها لحظة بدون أن يترك يد الصغير . وما هي إلا هنيهة حتى ترك اليد الجامدة وذهب الى الجدار يستند إليه ، ثم أخذ دفتراً صغيراً من جيبه ، وكأنه تذكر فجأة بأن عليه أن يراقب ، وكتب عليه عدة اسطر . وقلت في نفسي : « لن يأتي هذا القذر ليجس نبضي ، فسأضربه بقبضة يدي على أم وجهه ».

ولم يأت ، ولكني كنت أحسّ بأنه ينظر إليّ . فرفعت رأسي ونظرت اليه بالمقابل . فقال لي بصوت كأنه ليس صادراً عنه : « ألا تجد أننا نرتجف هنا ؟ »

كان يبدو عليه أنه بارد الجسم ، فقد كان بنفسجي اللون . فأجبته :

« أنا لا أشعر بالبرد »

ولم ينفك عن النظر الي ، بعين قاسية . فجأة فهمت ورفعت يدي الى وجهي : كنت مبتلاً بالعرق . في ذلك القبو ، وفي خضم الشتاء ، وفي مجاري الهواء ، كان العرق يتصبب مني . ومررت بأصابعي على شعري الذي يبس من العرق . ورأيت في نفس الوقت أن قميصي مبللة لاصقة بجسدي : كان العرق يتصبب مني منذ ساعة على الأقل ولم أحس بشيء . ولكن هذا البلجيكي لم يتغافل عن هذا : فقد رأى القطرات تتدحرج على خدي وفكر : انها عوارض شبه مرضية للخوف . كان يحسّ أنه طبيعي وبكل فخر لأنه كان يشعر بالبرد. أردت أن أقوم بحركة بسيطة حتى امّحى خجلي وغضبي . وسقطت على المقعد غير آبه .

اكتفيت بفرك عنقي بمنديلي ، لاني الآن بت أشعر بالعرق المتصبب من

شعري على رقبتي وكان كريهاً وفجأة عدلت عن فرك رقبتي ، كان ذلك بغير جدوى : وكان منديلي قد أصبح برسم التمزيق ، والعرق لا يزال يتصبب . كنت أعرق في مؤخرتي أيضاً كما كان سروالي المبلل لاصقاً بالمقعد .

وتكلم جوان الصغير فجأة :

– هل انت طبيب ؟ فقال البلجيكي : نعم .
– هل نتألم ... لوقت طويل ؟

فقال البلجيكي بصوت أبوي :
– أوه ! متى ...؟ كلا بل إن الأمر ينتهي بسرعة .

كان يبدو عليه أنه يشدد من عزيمة مريض يدفع الثمن .

– ولكن أنا ... قيل لي ... أنهم يعمدون في أكثر الاحيان الى رشقتين .

فقال البلجيكي وهو يحرك رأسه : في بعض الأحيان قد لا تصيب الرشقة الاولى أياً من الاعضاء الحيوية .

– عندها من الواجب إعادة تعبئة البنادق والتصويب من جديد !

– هذا يستمر وقتاً طويلاً !

كان يخاف أن يتألم خوفاً هائلاً ، ولم يكن يفكر إلا بهذا : وهذا بنسبة عمره على كل حال . أما أنا فلم أعد أفكر بذلك كثيراً ولم يكن الخوف من العذاب ما كان يجعل العرق يتصبب مني .

نهضت ومشيت الى كومة الفحم المسحوق . فارتجف توم ورماني بنظرة بغيضة : كنت أزعجه لأن حذائي يقرقع . وتساءلت في نفسي إذا كان وجهي مخيفاً قدر وجهه : رأيت أن العرق يتصبب منه هو الآخر . كانت

السماء رائعة ، لم يكن أي ضوء يتسرب الى هـذه الزاوية المعتمة ، وليس عليّ إلا أن أرفع رأسي حتى أشاهد الدب الاكبر. ولكنه ليس كما في السابق: ليلة أول أمس ، في سجن الأبرشية ، كان بإمكاني أن أشاهد قطعة من السماء كبيرة ، وكل ساعة من النهـــار كانت تبعث في نفسي ذكرى مختلفة . وفي الصباح حين كانت السماء زرقاء حـــادة وخفيفة ، كنت أفكر بالمسابح على ضفاف الاطلسي . في الظهر أرى الشمس وأتذكر ذلك البار في سفيل، حيث كنت أشرب النبيذ الاسباني وانا آكل السمك والزيتون . وبعد الظهر أصبح في الظل، أفكر بذلك الظل العميق الذي يمتد على نصف مساحة الحلبات بينما كان نصفها الثاني يسطع تحت الشمس : كان عسيراً حقاً أن نبصر الارض هكذا تنعكس في السماء . لكنه أصبح بإمكاني الآن أن اتطلع في الهواء ما شئت ، فلم تعد السماء توحي لي بشيء. كنت أفضل هذا . وعدت لأجلس بجوار توم . ومرّت فترة طويلة .

بدأ توم حديثه بصوت خافت . كان عليه دائماً أن يتكلم ، فبدون هذا لم يكن يستطيـع أن يعرف نفسه من خلال أفـكاره . أظن انه كان يوجه كلامه الي ولكنه لم يكن يتطلع نحوي . فقد كان يخشى بلا ريب أن يراني كما كنت ، داكن اللون يتصبب مني العرق : كنا أشبه بالمرايا أو أسوأ ، بالنسبة لبعضنا البعض . كان يتطلع الى البلجيكي ، الحي . وكان يقول له :

« هل تفهم ، انت ؟ أنا لا أفهم ».

بدأت أنا ايضاً بالحديث بصوت خافت . كنت أتطلـع الى البلجيكي.

« ماذا ، ما هنالك ؟

— سيحصل لنا شيء لا أستطيـع أن أفهمه » .

كانت هناك رائحة غريبة حول توم . فقد بدا لي اني أكثر احساساً للرائحة من ذي قبل .

وهمهمت متضاحكاً :

« ستفهم في الحال . فقال بوجه عنيد : ليس الأمر واضحاً . أودّ أن تكون لي الشجاعة ، ولكن علي أن أفهم على الاقل ... إصغ ، سيقتادوننا الى الباحة . وسيصطف الأشخاص بمواجهتنا . كم سيكون عددهم ؟

— لا أعرف . خمسة أو ثمانية . ليس أكثر .

— حسناً . سيكونون ثمانية . سنصيح فيهم : « صوبوا على الهدف » . وسأرى البنادق الثماني مصوبة الي . أفكر بأني سأدخل في الجدار ، سأدفع الجدار بكل قواي ، والجدار يقاوم ، كما هي الحال في الكابوس . كل هذا بامكاني أن أتصوره . آه ! لو تدري كم بامكاني أن أتصوره . فقلت له :

— حسناً ! فأنا اتصوره أيضاً . فأضاف بخبث :

— سيؤدي الى عذاب الكلاب هل تدري انهم يصوبون على العينين والفم لكي يشوهوا الصورة . اني اشعر بالجراح منذ الآن ؛ فمنذ ساعة بدأت أشعر بآلام في الرأس والعنق . ليست آلاماً حقيقية ؛ بل أسوأ هي الآلام التي سأحسها غداً صباحاً . ولكن ماذا بعدها ؟ »

كنت افهم تماماً ما يعنيه ، ولكني لم أرغب في أن افصح عن ذلك . أما الآلام ، فأنا ايضاً كنت احملها في جسدي ، كمجموعة من ندوب الجراح . لم أشأ أن انثني فكنت مثله ، لا اعير ذلك أهمية . وقلت بقساوة . «بعدها» ستأ كل السلطة » . بدأ يتحدث الى نفسه : بدون أن يترك البلجيكي بعينيه .

ولم يبد على هذا الأخير أنه كان يصغي . كنت أعرف السبب الذي جاء من أجله . وما كنا نفكر به لم يكن يهمه . لقد أتى ليشاهد أجسامنا ، تلك الأجسام التي تنازع وهي حية . قال توم . كما لو في الكابوس نود أن نفكر بشيء ، فنعتقد طيلة الوقت أننا فيه ، وبأننا سنفهمه ومن ثم نراه ينزلق ، ويفرّ ويسقط من جديد . قلت في نفسي : وبعدئذ، لا يبقى شيء . ولكنني

لا أفهم ما يعني ذلك . هناك فترات أتوصل فيها لذلك تقريباً ... ثم يسقط من جديد ، وأعود لأفكر بالآلام والرصاص والمفرقعات . أنا مادي ، أقسم لك بذلك . فلن أصبح مجنوناً . لكن أمراً ما ليس على ما يرام . اني أرى جثتي: ليس هذا شاقاً ولكني أنا الذي أراها ، بأمّ عيني . عليّ أن اتوصل لأفكر.. لأفكر بأني لن أرى شيئاً ، ولن اسمع شيئاً وان العالم سيستمر بالنسبة للآخرين . نحن لم توجد لنفكر هكذا يا بابلو . بامكانك ان تصدقني : فقد حصل لي أن سهرت الليل بطوله وأنا انتظر شيئاً . ولكن هذا الشيء ، ليس شبيهاً لذاك : إنه يباغتنا ، يا بابلو ، ولن نكون قد أتممنا الاستعداد لمواجهته . وقلت له : هل تريد أن أستدعي لك معرّفاً ؟ ،

لم يجب بشيء . كنت قد لاحظت انه كان يتوق الى النبوّة وان يناديني بابلو متكلماً بصوت نقي . لم أكن أحب هذا كثيراً . ولكن يبدو ان جميع الارلنديين على هذه الحال . كان يتهيأ لي أن رائحة البول تتصاعد منه . في الواقع لم أكن أحب توم كثيراً ولم أكن أدري لماذا . وبحجة أننا سنموت معاً كان عليّ أن أزيد تلك المحبة . هناك أشخاص تختلف معهم الحال . مع رامون غري مثلاً . ولكنني كنت أجد نفسي وحيداً بين توم وجوان . غير اني كنت افضل ذلك : لعلني كنت ازداد عاطفة لو كان الأمر مع رامون .

لكنني كنت قاسياً بصورة رهيبة في تلك الفترة ، كما كنت أرغب بالبقاء كذلك .

وتابع مضغ كلماته ، بنوع من الارتياح . أكيد انه كان يتحدث ليمنع نفسه عن التفكير . كانت رائحة البول تفوح منه بشدة كالعجزة المرضى بالبروستات . وكنت من رأيه بالطبع ، فكل ما قاله كان بامكاني ان أقوله : فليس طبيعياً ان يموت الانسان . ومذ بدأت استعد للموت ، لم يعد أي شيء يبدو لي طبيعياً ، لا هذه الكومة من الفحم المسحوق ، ولا المقعد ، ولا فم بادرو القذر . غير انه لم يكن يعجبني ان أفكر بما يفكر به توم . وكنت

أعلم حق العلم اننا ، طيلة الليل وبفارق دقائق خمس فقط ، كنـــا نتابـع التفكير بالأشياء ذاتها ، وفي نفس الوقت أيضاً كان العرق يتصبب منـا معاً أو أننا نرتجف معاً . نظرت اليه جانبياً ولأول مرة بدا لي غريباً : كان يحمل موته في وجهه . لقد طعنت بكبريائي : أربع وعشرون ساعة عشتها بجوار توم ، كنت أصغي اليه ، احدثه ، وأعرف أن ما من شيء مشترك فيما بيننا . أما الآن فنتشابه كالأخوين التوأمين ، لمجرد أننا سنلاقي حتفنا معاً . أمسكني توم بيدي دون أن ينظر الي :

« بابلو ، اني اتساءل ... أتساءل اذا كنا ننعدم حقاً » .

أفلت يدي وقلت له :

« انظر بين رجليك أيها القذر » .

كانت تحت رجليه بركة ، ونقاط تتساقط من سرواله . فقال مرتاعـاً : « ما هذا» ? فقلت له :

— انت تبول في سروالك . فقال غاضباً :

— ليس هذا صحيحاً ، أنا لا أبول ولا أشم شيئاً

كان البلجيكي قد اقترب . وسأل برجاء مصطنع :

« هل تشعر بالألم ?»

لم يجبه توم . ونظر البلجيكي الى البركة بدون أن يقول شيئاً . وقال توم بلهجة جسورة : « لا أعرف ما هذا ، لكني لست خائفاً . أقسم لك بأني لست خائفاً ».

لم يقل البلجيكي شيئاً . فنهض توم وذهب ليبول في الزاوية . وعاد وهو يزرر فتحة سرواله ، وجلس بدون أن ينبس بكلمة . كان البلجيكي يسجـل ملاحظاتـه .

كنا ننظر اليه نحن الثلاثة لأنه حيّ . كانت له حركات كحركات الحيّ ، وهموم الحيّ. كان يرتجف في ذلك القبو، كما يرتجف الحيّ. كان جسمه طيّعاً حسن التغذية . أما نحن فلم نعد نحس أجسامنا – وليس كما يحس هو على كل حـال. كنت أرغب في أن أتحسس سروالي بين فخذي ، ولكني لم أتجرأ . فانظر الى البلجيكي الواقف على رجليه بشكل قوس ، وهو يسيطر على عضلاته – كما ان بامكانه التفكير بغده . كنا هناك ، ثلاثة ظلال بغير دم ، ننظر اليه فنمتص حياته كالأفاعي .

وأخيراً اقترب من جوان الصغير . هل أراد أن يتحسس رقبته لسبب يتعلق بمهنته أو أن ذلك كان بدافع الاحسان ؟ فاذا فعل هذا بدافع الاحسان فقد كانت المرة الوحيدة التي قدم فيهـا إحساناً طيلة تلك الليلة . لقد دغدغ جمجمة جوان الصغير وعنقه . وتركه الصغير يفعل ذلـك ، بدون ان يتركه بناظريه ، وفجأة أمسكه بيده ونظر اليه بوجه مضحك . كان يأخذ يد البلجيكي بكلتا يديـــه ، ولم يكن في ذينك الملقطين الداكني اللون أي شيء طريف وهما يمسكان تلك اليد السمينة الموردة ، كنت اشك كثيراً بما سيحصل وكذلك كان توم : لكن البلجيكي لم يكن يرى سوى النـــار ، وكان يبتسم ابتسامة أبوية . ومـــا هي الا لحظة حتى رفع الصغير تلك الراحة الضخمة الحمراء الى فمه وأراد ان يعضهـــا . فأفلت البلجيكي يده وتراجع حتى الجدار وهو يهتز يمنة ويسرة . ونظر الينا للحظة بهلع شديد ، كان عليه ان يفهم فجأة بأننا لسنا رجالاً مثله . أخذت بالضحك ، وارتعد أحـد الحراس . والآخر الذي نام بدا جاحظ العينين لا يظهر منهما سوى البياض .

كنت أحسني منهكا ومتوتر الأعصاب معاً . لم أكن أود ان افكر بمـا سيحصل عند الفجر، أي بالموت . إذ لم أفقه شيئاً من ذلك ، ولم أكن اصادف سوى كلمات أو فراغ . ولكن ما ان أحاول التفكير بشيء آخر حتى كنت أرى فوهـــات البنادق مصوبة اليّ . لقد عشت لحظة إعدامي نحو عشرين مرة

متتالية : اضطررت أن أنام دقيقة . كانوا يجرونني نحو الحائط ، فأتخبط . واطلب اليهم المغفرة . واستيقظت مذعوراً ونظرت الى البلجيكي : خشيت ان أكون قد صرخت في نومي . لكنه كان يمسح شاربيه ؛ فلم يلاحظ شيئاً . لو شئت ، أظن انه كان بامكاني أن انام برهة : كنت مستيقظاً منذ ثمان وأربعين ساعة ، وقد تملكني الاعياء . لكنه لم يكن بودي ان افقد ساعتين من ساعات الحياة : سيأتون لايقاظي عند الفجر ، وسأتبعهم مخبولاً من النعاس فأموت بدون ان أطلق زفرة ؛ لم اكن أرغب في ذلك ، لا أريد ان أموت كحيوان ، أريد ان افهم .

ثم اني كنت أخشى أن أرى الكوابيس . نهضت ، وتمشيت طولاً وعرضاً وحتى أبدل افكاري بدأت افكر بحياتي السابقة . وعاودتني زحمة من الذكريات ، من هنا وهناك ، منها الجميلة ومنها الرديئة – أو انني كنت اسميها هكذا على الأقل . كانت هناك وجوه وقصص . رأيت وجه مصارع صغير قتل على قرني الثور في فالنسيا إبان المهرجان ، وكذلك وجه أحد أعمامي ، ووجه رامون غري . وتذكرت قصصاً عديدة : كيف أني بقيت عاطلاً عن العمل ثلاثة اشهر سنة ١٩٢٦ ،وكيف كدت أن أموت من الجوع . وتذكرت ليلة أمضيتها فوق مقعد في غرناطة : ولم أكن قد تناولت الطعام منذ ثلاثة أيام ، كنت مسعوراً ، ولم أرغب في الموت . أضحكني ذلك . فبأية همة كنت أركض وراء السعادة ، وراء النساء، وراء الحرية . ولماذا؟ أردت أن احرر اسبانيا ، كنت معجباً بـ بي مارغال ، فالتحقت بالحركة الفوضوية ، وتكلمت في الاجتماعات العامة : كنت آخذ كل شيء على محمل الجد ، وكأنني كنت خالداً .

في تلك اللحظة خلت أن مجمل حياتي أمام عيني وفكرت :

« إنها كذبة مقدسة » . ولم تكن بذات قيمة لأنها انتهت . تساءلت كيف كنت استطيع أن اتنزه وأن أهذر مع النساء : لو كنت أعلم اني

سأموت هكذا لما حركت اصغر اصابعي اطلاقاً . كانت حياتي أمامي ، مغلقة ، مطبقة ، كالحقيبة ، ومع ذلك فان كل ما في داخلها لم يكن منتهياً . وحاولت ، للحظة ، أن أعطي فيها حكماً . وددت أن أقول لنفسي : انها حياة جميلة . ولكنه ليس بالامكان اعطاء حكم عليها ، فقد كانت رسماً . كما امضيت وقتي باستخلاص المراحل في سبيل الأبدية ، ولم أفهم شيئاً . ولم أكن آسف على شيء : كانت هناك عدة أشياء يمكن أن آسف عليها ، كطعم النبيذ الاسباني او الحمامات التي كنت اخذها في الصيف على خليج صغير قرب قادس . ولكن الموت أفسد كل شيء . وفجأة ، اتت البلجيكي فكرة رائعة فقال لنا :

« أيها الأصدقاء ، بامكاني أن اتكلف — إذا وافقت الادارة العسكرية — بأن احمل منكم كلمة ، أو ذكرى الى من يحبونكم ... »

فهمهم توم :

« ليس لدي اي انسان ».

ولم اجب بشيء . وانتظر توم لحظة ، ثم تطلع الي بفضول : ألن توصي شيئاً لكونشا ؟

— كلا .

كنت أمقت هذه اللباقة الرقيقة ؛ لكنها غلطتي ، فقد تحدثت عن كونشا في الليلة السابقة ، وكان عليّ ان اضبط نفسي . كنت معها منذ سنة . وفي العشية ايضاً ، وددت قطع ذراعي بالفأس حتى أراها خمس دقائق . لهذا تكلمت عنها ، كان ذلك رغماً عني . واليوم لم أعد أرغب برؤيتها ثانية ، وليس عندي شيء أقوله لها . لم اكن أود حتى ان اضمها الى صدري ؛ كنت أمقت جسدي الذي اصبح داكن اللون يتصبب منه العرق — ولم اكن متأكداً إذا كنت امقت جسمها ايضاً . ستبكي كونشا عندما تعلم بخبر موتي ، ستظل

شهوراً ، غير راغبة بالحياة . ولكن ، مع ذلك ، فأنا الذي اموت . فكرت بعينيها الجميلتين العذبتين . عندما كانت تنظر الي ، ينتقل شيء منهـا اليّ . ولكني فكرت ان الأمر قد انتهى ؛ فاذا تطلعت اليّ في الوقت الحاضر سيظل نظرها في عينيها ولن يصل إليّ . كنت وحيداً .

وتوم كذلك كان وحيداً ، ولكن ليس بنفس الطريقة . اذ جلس منفرج الرجلين واخذ ينظر الى المقعد بنوع من الابتسام ، كانت تبدو عليه الدهشة . وقرب يده ولامس الخشب بحذر ، وكأنه يخشى ان يكسر شيئـــاً ما ، ثم سحب يده بحدة وارتجف . ما تسليت بالمقعد لو كنت انا توم . كان ذلـــك نوعاً من التمثيليات الارلندية ، ولكني كنت ارى ان للاشياء شكلاً مضحكاً: فقد كانت اكثر اختفاء واقل وزناً من المعتاد . اذ كان يكفي ان انظر الى المقعد ، والسراج ، وكومـــة الفحم المسحوق ، حتى اشعر بأني سأموت . بالطبــع ، لم يكن باستطاعتي ان افكر بموتي بصفاء ، لكنني كنت اراه اينما كان ، على الأشياء ، في الشكل الذي تراجعت به الأشياء ووقفت بعيـــدة ، بتحفظ كأشخاص يتكلمون بصوت خافت قرب فراش انسان يموت ، كان موته ، ذاك الذي تحسسه توم على المقعد .

في الحال الذي كنت فيه ، لو جاء من يعلن لي ان بامكاني العودة بهدوء الى بيتي ، وان حياتي سيتم انقاذها : لظللت على برودي : فعدة ساعات او عدة سنين من الانتظار كلها سواء ، عندما يتبدد وهم الخلود. لم اعد اصر على شيء ، فقد بت هادئاً . لكن هدوئي كان رهيباً -بسبب جسدي : جسدي ، الذي كنت انظر بعينيه ، واسمع بأذنيه ، ولكنه ليس انا . كان يتصبب منــه العرق ويرتجف وحده ، ولم اعد اتعرف عليه . كنت ملزماً بأن ألمسه او ان انظر اليه لأرى كيف اصبح ، كما لو انه اضحى جسم انسان آخر . لفترات ، كنت لا ازال اشعر به ، احس بالمنزلقات ، وبأنواع التدحرج كما لو كنـــا في طائرة تائهة او انني احس خفقان قلبي . ولكن هـــذا لم يكن ليطمئنني ؛

فكل ما كان يأتي من جسدي كانت له هيئة قذرة معوجة . معظم الوقت ، كان يسكت ، ويظل ابكم ، ولم اعد احس بسوى نوع من الجاذبية ، والوجود المدنس قبالتي . كان يتهيأ لي اني مرتبط بموت بطيء . كنت اتحسس سروالي لحظة واحس بأنه مبلّل ؛ولم اكن اعرف اذا كان مبلّلا من العرق أو البول ، غير اني ذهبت لأبول على كومة الفحم ، احتياطاً .

اخرج البلجيكي ساعته ونظر اليها . وقال :

« انها الثالثة والنصف » .

يا له من قذر . لقد فعل هذا عمداً .

قفز توم عن الأرض : لم نكن قد عرفنا بعد ان الوقت يمر والليل يحيط بنا ككتلة مقسمة ليس لها شكل معين ، ولم أعد اتذكر حتى انه ابتدأ .

اخذ جوان الصغير بالصراخ . كان يتضوّر ألماً ، ويتوسل :
« لا أريد ان اموت ، لا اريد ان أموت » .

وركض عبر القبو رافعاً ذراعيه في الهواء ، ثم تهالك على فراش من القش وانتحب . كان توم ينظر اليه بعينين كئيبتين ولم تعد به رغبة لمؤاساته . ولم يعد هذا ضرورياً ، اذ كان الصغير يحدث ضجيجاً أكثر منا ، ولكن اصابته كانت أخف ؛ كان بمثابة مريض يدافع عن بؤسه بالحمى ، فالحمى اذا زالت ، تصبح الأمور اشد خطورة .

كان يبكي ، وكنت أعرف تماماً انه يشفق على نفسه ، ولم يكن يفكر بالموت . للحظة واحدة ، للحظة واحدة اعتراني شعور بالبكاء انا ايضاً ، بالبكاء رفقاً بنفسي . ولكن العكس هو الذي جرى ؛ ألقيت نظرة على الصغير ، فرأيت كتفيه الهزيلتين الباكيتين واحسست بعدم انسانيتي ؛ لم يكن بوسعي ان اشفق على نفسي وعلى الآخرين . وقلت في نفسي : « أود ان اموت حقاً . »

كان توم قد نهض ، ووقف تحت الفوهة المستديرة بالضبط وأخذ يتربص، طلوع النهار . وانا كنت مصدوماً ، وددت ان اموت حقاً ، ولم افكر بغير ذلك . ولكن ، مذ انبأنا الطبيب عن الوقت ، بدأت أحس به ينقضي ، بل يسيل قطرة فقطرة .

كان الوقت لا يزال ظلاماً عندما سمعت صوت توم :

– هل تسمعهم.

– نعم .

كان الرجال يمشون في الباحة .

ما الذي جاء بهم ؟ فليس بامكانهم ان يطلقوا النار في الظلام .

وما هي الا دقائق حتى لم نعد نسمع شيئاً . فقلت لتوم :

« ها هو النهار » .

استيقظ بدرو متثائباً وجاء ليطفىءالسراج . وقال لرفيقه :

« يا له من صقيع » .

كان القبو قد أصبح داكناً تماماً . وسمعنا عبارات نارية من بعيد . فقلت لتوم : « هـــا هي الأمور تبدأ ، يودون ان يقوموا بالواجب في الباحة الخلفية » .

طلب توم من الطبيب ان يعطيه سيجــارة . انا لم اكن ارغب بالتدخين . لا أريد لا سيكارة ولا كحولاً . ابتداء من هـــذه اللحظة ، لم يكفوا عن اطلاق النار .

فقال توم :

« هل ترى ؟ »

كان يود ان يضيف شيئاً ولكنه سكت ، ونظر الى الباب . فتح الباب ،

ودخل ملازم مع اربعة جنود . فوقعت السيكارة من يد توم .

« ستينبوك ؟ » .

لم يجب توم . فبدرو هو الذي دل عليه .

– جوان مربال ؟

– هذا الذي يفترش القش . فقال الملازم :

« انهض » .

لم يتحرك جوان . فأخذه جنديان من تحت ابطيه وأوقفاه . ولكن مـا ان تركاه حتى سقط أرضاً .

وتردد الجنود . وقال الملازم :

« ليس هو الوحيد الذي يرى نفسه في حالة سيئة ، عليكما ان تحملاه انتما الاثنين . وستتدبر الأمر هناك » .

واستدار الى توم :

« هيا ، تعال » .

وخرج توم بين جنديين . وكان يتبعه جنديان آخران ، يحمـلان الصغير من تحت إبطيه وعرقوبيه . لم يكن مغشياً عليه ، فعيناه جاحظتان ، والدموع تسيل على خديه . ولما هممت بالخروج اوقفني الملازم :

– انت إبياتا ؟

– نعم .

– ستنتظر هنا ؛ فسيأتون لاخذك في الحال .

وخرجوا . خرج البلجيكي والسجانان ايضاً ، وبقيت وحدي . لم اكن أفهم ما يجري لي ، ولكني وددت ان ينتهي ذلك بسرعة ، وسمعت الطلقات على فترات شبه منتظمـــة . وكنت ارتعش لسماع كل منها . كنت اود ان

اصرخ ، ان انتزع شعري . لكنني ضغطت على اسناني وغرست يـــدي في جيبي لاني كنت اود البقاء نظيفاً .

وما هي الا ساعة ، حتى أتوا ليأخذوني ،واقتادوني الى الطابق الأول ، الى حجرة صغيرة تفوح منها رائحة السيجار ، ذات حرارة خانقة . كان فيها ضابطان يدخنان وهما جالسان على كنبات ، كما يضع كل منهما على ركبتيـه اوراقاً .

— اسمك ابياتا؟

— نعم .

— اين رامون غري ؟

— لا أعرف .

الذي كان يستجوبني قصير ضخم . كانت عيناه القاسيتان تبدوان من خلف نظارته . وقال لي :

— اقترب

واقتربت . فنهض وامسكني بكتفي وهو ينظر الي بوجه من يريد قذفي الى باطن الأرض . في نفس الوقت الذي كان فيه يضغط على عضلات ذراعيّ بكل قواه . لم يكن ذلك بغية ايذائي ، بل انها اللعبة اللبقة .

كان يبغي السيطرة علي . وارتأى ايضاً ان ينفث لهاثه العفن في وجهي . بقينا لحظة واحدة على هذه الحال ، كان هذا اقرب الى اضحاكي . اذ كان يلزم اكثر من ذلك لاخافة رجل على وشك الموت : لم تنجح لعبته . فدفعني بعنف ثم عاد الى الجلوس وقال :

« انها حياتك مقابل حياته . نحن سننقذ حياتك اذا قلت لنـــا أين هو » .

ان هذين الرجلين المزدانين بسياطهما واحذيتهما الطويلة الساق ، هما كذلك

من الرجال الذين سيموتون ، بعد موتي بقليل ،ولكن ليس ابعد من هـــذا كانا منهمكين بالبحث عن اوراقهما ، يركضان وراء رجال آخرين بغية الالقاء بهم في السجن او حذفهم من الوجود . كانت لهما آراء حول مستقبل اسبانية وحول مواضيــع اخرى . كانت نشاطاتهما الضئيلة تبدو لي ناكية غليظة : لم يكن بوسعي ان اضع نفسي في مكانهما إذ تهيأ لي انهما مجنونان .

كان الصغير الغليظ ينظر الي بامعان ، وهو يضرب بالسوط على جزمته . كل حركاته تدل بدقة على ان له مشية حيوان هائج مفترس .

— اذاً ؟ فهمت ؟ فأجبت :

— أنا لا اعرف اين غري . كنت اظن انه في مدريد .

ورفع الضابط الثاني يده بوقاحة . هــــذه الوقاحة كانت محسوبة بدقة ايضاً . كنت أشهد مناوراتهم الصغيرة ، مندهشاً من وجود رجــال يتسلون بهذي الأمور . فقال بتؤدة :

— لديك ربــع ساعة لتفكر . قده الى غرفة الغسيـــل ، وستعيده بعد ربــع ساعة . فاذا أصر على الرفض سننفذ به الحكم في هذا المكان .

كانوا يعرفون ما يريدونه لقد امضيت ليلي كله بالانتظار ؛ وبعد هذا ، حملوني على الانتظار ساعة في القبو ، بينما كانوا يعدمون توم وجوان والآن ها هم يحتجزونني في غرفة الغسيل . لا بد انهم أعدوا ضربتهم منذ البــارحة . قالوا في نفسهم ان الاعصاب تتلف مع الوقت وتأملوا في ان يروني هكذا .

كانوا يخطئون كل الخطأ . ففي غرفــة الغسيل جلست على طاولة ، لاني كنت لا أزال احس بضعفي وبدأت افكر ، ولكن ليس باقتراحهم . بالطبــع كنت أعلم اين كان غري ! كان مختبئاً في بيت ابنــاء عمه ، على بعد أربعة كيلومترات عن المدينة . وكنت اعرف كذلك اني لن اكشف عن مكان وجوده الا اذا عذبوني (ولم يبد عليهم انهم فكروا بذلك) كل ذلك كان

معداً تمام الاعداد النهائي ، فلن يهمني ابداً . بيد اني وددت لو ادرك اسباب سلوكي . كنت أوثر ان اموت على ان اسلم غري . لماذا ؟ لم اعد احب رامون غري . وصداقتي معه تلاشت قبل الفجر ، مع حبي لكونشا ، مع رغبتي في الحياة . كنت لا أزال اقدره بلا شك ، كان رجلاً قاسياً . ولكن ليس لهذا السبب قبلت بالموت مكانه ، فلم يعد لحياته قيمة تفوق قيمة حيـاتي ، لم يعد لأية حياة قيمة . سيلصقون الانسان بالجدار وسيطلقون الرصاص عليه حتى الموت ، ما هم لو كنت انا او غري او اي شخص آخر ، كنت اعلم انه اكثر فـائدة مني لقضية اسبانية غير اني كنت اسخر من اسبانية والفوضى ، لم يعد لأي شيء اهمية . ومع ذلك كنت هنـــاك ، وكان بامكاني ان انقذ جلدي بتسليم غري ورفضت الاقدام على ذلك . رأيت هذا مضحكاً : إذ كان عناداً وفكرت :

« هل على المرء ان يكون عنيداً » .

واعتراني نوع من السعادة غريب .

وجاؤوا يستدعونني أمام الضابطين .فخرج جرذ من تحت ارجلنا فسلأني قليلاً . واتجهت نحو احد رجال الكتائب وقلت له :

« هل رأيت الجرذ ؟ »

ولم يجب . كان مكفهر الوجه ، مقتنعاً بجديته . امـا انا فكنت ارغب بالضحك ولكنني كنت اضغط على نفسي لاني خفت إن بدأت ان افقد القدرة على التوقف . كان لرجل الكتيبة شاربان ، فأضفت قائلاً له :

« عليك ان تحلق شاربيك ايها الغبي » .

كنت ارى ان اطـلاق الشعر ليغزو الوجه اثناء الحياة ، من الأمـور الغريبة . فرفسني برجله بغير اقتناع ، فسكت.

فقال الضابط الضخم :

– حسناً ، هل فكرت ؟

نظرت اليها بفضول كما لو انني انظر الى حشرات من نوع نادر جداً . وقلت لها :

« انا اعرف اين هو . فهو مختبىء في المقبرة ، في قبو صغير او في كوخ الحفارين » .

كان ذلك لأهزأ منهما كنت اود ان اراهما يقفان ، ويشدان حزاميهما ويعطيان الأوامر باهتمام .

فقفزا على ارجلهما .

« هيا . اطلب خمسة عشر رجلاً من الملازم لوبيز .وقال لي الضابط القصير الضخم : وانت لو قلت الحقيقة ،فليس عندي الا قول واحد . ولكن ستدفع الثمن غالياً لو كنت تكذب علينا » .

ومضوا محدثين ضجة قوية ، بينما انتظرت بسرور تحت رقابة رجال الكتائب .كنت اضحك من وقت لآخر من الوجه الذي سيقابلونني به.شعرت بنفسي مغفلاً وخبيثاً . تخيلتهم رافعين حجارة القبر ، فاتحين أبواب الأقبية واحداً واحداً . وتمثلت الموقف كما لو كان شخصاً آخر : هذا السجين الذي يصر على عمل البطولة ، هؤلاء ، هؤلاء الكتائبيون الوقورون بشواربهم ، واولئك الرجال ببزاتهم الرسمية يتراكضون بين القبور . كان ذلك في منتهى الطرافة .

وما هي الا نصف ساعة حتى عاد القصير الضخم وحده . وخلت انه جاء يعطي امر القضاء علي . اما الباقون فظلوا في المقابر .

ونظر الي الضابط . وقد اختفت عن وجهه مسحة الارتباك وقال :

« اقتادوه الى الباحة مع الآخرين . ففي نهاية العمليات العسكرية ، ستبت المحكمة العادية بمصيره » .

وخلت انني لم افهم ، فسألته :

– اذاً سوف لن... لن يرموني بالرصاص ؟...

– ليس الآن على كل حال . وبعده ، لا يعود الأمر متعلقاً بي .

لم أفهم ابداً . وقلت له :

« ولكن لماذا ؟ »

فهز كتفيه بدون ان يجيب ، واقتادني الجنود . وفي الباحة الكبيرة كان هناك مئات السجناء من نساء وأولاد وبعض الشيوخ . وبدأت أدور حول المرجة الرئيسية ، لقد اصبحت معتوها . عند الظهر ، قدموا لنا الطعام في المطعم . واستجوبني شخصان او ثلاثة . كان علي أن اعرفهم ، غير اني لم اجبهم ؛ فلم أكن اعرف اين انا .

عند المساء ، القوا في الباحة نحو اثني عشر سجيناً جديداً . فتعرفت على غارسيا ، الخباز . فقال لي :

– يا لك من محظوظ مقدس ! لم أكن أفكر بأني سأراك على قيد الحياة . فقلت :

– لقد حكموا علي بالإعدام ، ثم غيروا فكرتهم . ولا أدري لماذا .

فقال غارسيا :

– لقد أوقفوني في الساعة الثانية .

– لماذا ؟

غارسيا لم يكن يعمل بالسياسة . فقال :

– لا أدري . انهم يوقفون جميع من لا يفكرون على شاكلتهم .

وخفض صوته :

« لقد قتلوا غري ».

وبدأت أرتجف .

– متى ؟

– هذا الصباح . لو تدري ما فعل المغفل . لقد غادر بيت ابناء عمّه يوم الثلاثاء ، لأنه صدر عنهم كلام . ولم يكن يفتقر لأناس يأوونه ولكنه لم يعد يريد إحساناً من أحد . وقال : « كنت سأختبىء عند إيبانا ولكن بما أنهم ألقوا القبض عليه فسأذهب واختبىء في المقبرة » .

– في المقبرة ؟

– نعم . كانت بلاهة منه . فبالطبع مرّوا بها هذا الصباح ، وكان هذا مقرراً . فوجدوه في كوخ الحفارين . فأطلق النار عليهم ، لكنهم أردوه .

– في المقبرة !

كل شيء بدأ بالدوران ، ووجدتني جالساً على الأرض ؛ كنت أخجل بقوة ، الى حدّ أن الدموع بانت في عينيّ .

الغرفة

- ١ -

كانت السيدة داريدا تحمل قطعة راحة الحلقوم بين أصابعها . وقرّبتها من شفتيها بعناية مخافة ان يطير عنها مسحوق السكر قائلة في نفسها : « إنها معطرة » . وعضت تلك القطعة التي بلون الزجاج ، فتصاعدت منها رائحة عفنة ملأت فمها . « غريب كم ان المرض يصفي الأحاسيس ».واخذت تفكر بالجوامع ، وبالشرقيين من اصحاب الجاملة (فقد ذهبت الى الجزائر في في رحلة عرسها) ورسمت شفتاها ابتسامة ، فراحة الحلقوم ايضاً متملقة .

وكان عليها ان تمر براحة يدها على صفحات كتابها ولعدة مرات لأن قشرة من المسحوق الأبيض كانت تغطي يدها رغم العناية. فيداها قد دحرجا حبيبات السكر وألصقاها بالورق الأملس : « إن هذا ليذكرني بأركاشون عندما كنت أقرأ على الشاطىء...» فقد أمضت صيف ١٩٠٧ على شاطىء البحر . وكانت تعتمر وقتئذ قبعة من القش لها شريطة خضراء ، كما تجلس على رصيف الحجارة وبيدها كتاب « لجيب » او «لكوليت إيفير». والريح تمطر على ساقيها زوابع من الرمل ، وهي تقلّب من وقت لآخر كتابها ممسكة بأطرافه . إنه الاحساس عينه ، غير ان قطعات الرمل الصغيرة كانت جافة في حين أن قطعات السكر تلزق بيدها . فقد عاشت قطعة من السماء الغبراء المتلألئة فوق بحر اسود . « لم تكن قد ولدت بعد » . وأحست انها وهي مثقلة بالذكريات ثمينة كصندوق من الصندل . وعاودها اسم القصة

التي كانت تقرأها : واسمها السيدة الصغيرة ، ولم يكن الاسم مزعجاً . لكن السيدة داربدا باتت تفضل المذكرات والمؤلفات التاريخية منذ أرغمهـا بلاء مجهول على البقاء في غرفتها . كانت ترى ان الألم ، والقراءات العديدة ، والانتباه الدقيق لذكريات أيامها العذبة ، من شأنها ان تجعلهـا ناضجة كثمرة عجّل نضجها .

وفكرت بأن زوجها سيطرق بابها بعد قليل . ففي أيام الأسبوع الأخرى كان يأتي في المساء فقط ، يقبلها في جبينها بصمت ويتابـع قراءة كتـاب «الوقت» قبالتها . لكن الخميس هو « يوم » السيد داربدا. إذ يملأ الغرفة الهادئة بوجوده . فهو لا يجلس ، بل يذرع ارض الغرفة ويدور على نفسه . كانت حدته تجرح السيدة داربدا كشظية الزجاج . وهذا الخميس ، اسوأ من العادة ؛ حين تفكر بأن عليها في الحال ان تردد لزوجها اعترافات إيفا وترى ذلك الجسم الضخم المخيف يقفز من الهلع ،ذلك يجعل العرق يتصبب منها . ووضعت حلقوماً في الصحن وألقته بكآبة ؛ لم تكن تريد أن يراها زوجهـا تأكل الحلقـوم .

وارتعشت لما سمعت الباب يطرق . وقالت بصوت ضعيف : «ادخل» .

دخل السيد داربدا على رؤوس اصابعه . فقـال كما في كل خميس : « اريد ان ارى إيفا » .

فابتسمت له السيدة داربدا :

« ستقبلها من أجلي » .

لم يجب السيد داربدا وقطب حاجبيه باهتمام ! ففي كل خميس وفي نفس الساعة ، يعتريه نوع من الاثارة التي تمتزج بجاذبية الهضم .

« سآمر لأرى فرانشو وهو خارج من بيتها ، أريد ان يكلمهـا بجدية وأن يحاول إقناعها » .

كان يقوم بزيارات متعددة للدكتور فرانشو . ولكن عبثاً . ورفعت السيدة داربدا حاجبيها . ففي الماضي زمن نشاطها كانت ترفع كتفيها دائماً . ولكن مذ أثقل المرض جسدها ، استبدلت الحركات التي أرهقتها بحركات من وجهها : فتقول نعم بعينيها لا بطرف فمها ، كما ترفع حاجبيها بدلاً من الكتفين .

« من الواجب ان ننتزعها منه بالقوة » .

– سبق وقلت لك إن هذا مستحيل،وذاك ان القانون قد اسيئت صياغته. قال لي فرانشو قبل ايام إن لديهم متاعب لا تحصى مع العائلات . اشخاص لا يعتمدون شيئاً معيناً ، يريدون إبقاء المرض عندهم . والأطباء مكبلو الأيدي فبامكانهم ان يبدوا برأيهم ، ليس إلا . وتابع كلامه بقوله : عليه أن يثير فضيحة عامة او أن تطلب هي بنفسها وضعها في المستشفى .

فقالت السيدة داربدا :

– وهذا لن يكون في يوم غد .

– كلا .

واتجه نحو المرآة ، وغرس اصابعه في لحيته وبدأ يسرحها . كانت السيدة داربدا تنظر بغير حنو الى رقبة زوجها الحمراء القوية .

وقال السيد داربدا : إذا استمرت فستصبح اكثر اهتزازاً منه ، وتلك حالة مخيفة . فهي لا تتركه خطوة ، ولا تخرج أبداً إلا لتقابلك ، ولا تستقبل أحداً . فجو غرفتهم لا يمكن ، بكل بساطة ، تنشقه . وهي لا تفتح الباب إطلاقاً لأن بيار لا يقبل بفتحه . كما لو انه يريد استشارة المريض. ويحرقون، على ما اظن عطوراً ، بل قذارة في مجمرة ، وكأنهم في كنيسة . انني اقسم بأني اتساءل احياناً لماذا لها هاتان العينان الغريبتان . فقالت السيدة داربدا :

– لم ألاحظ ذلك . ارى هيئتها عادية . وهي كئيبة بالطبع .

ـ إن عليها ملامح من غادر القبر . فهل تنام ؟ وهـــل تأكل ؟ يجب ألا تسأل عن هذه الأمور . ولكنني اظن انه لا يغمض لها جفن برفقة رجـــل ضخم كبيار . وهز كتفيه .

« وما أراه اسطورياً أننا نحن وأهلها ، ليس لنا الحق بحمايتها من نفسها . ناهيك عن أن بيار يمكن الاعتناء به جيداً عند فرانشو. فهناك حديقة كبيرة . وأضاف مبتسماً : ان بإمكانه ان يتفق مع اناس من نوعيته . إن هؤلاء الأشخاص كالأولاد يجب تركهم معاً . فهم يؤلفون نوعاً من الماسونية . فهناك كان يجب وضعه منذ اليوم الأول وأقول : من أجل نفسه . من أجل مصلحته بلا ريب .

وأضاف بعد لحظة :

« سأقول لك اني لا اريد ان أعرف أنهـــا وحيدة مع بيار ، خاصة في الليل . فلو افترضنا ان شيئاً ما قد حصل. فان بيار مراء بشكل خطير» .

فقالت السيدة داربدا :

ـ لا أدري إذا كان من الواجب القلق الى هذا الحدّ ، لا سيما وانهـا حالة رافقته دائماً . كان يوصي بأنه يهزأ من العـالم . وتابعت متنهدة : يا له من صبي مسكين ، حاز على شرفه ثم وصل الى هذا الحد . كان يظن أنه اذكانا جميعاً وله أسلوب في قوله لك :

« الحق الى جانبك » . لاقفال النقاش ... انها رحمة له أن لا يستطيـع الاطلاع على حالته » .

كانت تتذكر غير مسرورة ذلك الوجه الطويل الساخر ، الدائم الانحناء. الى جهة واحدة. ففي الأيام الأولى لزواج إيفا، لم تتمن السيدة داربدا أكثر من اقامة علاقات ودية مع صهرها . لكنه ثبط همتها ؛ فلم يكن يتحدث ، كما يوافق باستعجال وبغير اكتراث .

ويتابع السيد داربدا فكرته قائلاً :

« دعاني فرانشو لزيارة عيادته ، انه رائع . فالمرضى لهم غرف خاصة ، فيها مقاعد جلدية ، وأسرة مريحة وهل تعرفين ايضاً ان فيها معدات التنس ، كما وسيصار لبناء مسبح ».

كان قد انتصب أمام النافذة ، ينظر من خلال الزجاج مائجاً ذات اليمين وذات اليسار من على رجليه المقوستين .فجأة استدار على طرفي حذائه بمرونة واطىء الكتفين واضعاً يديه في جيوبه . وبدأت السيدة داربدا تشعر بأن العرق سيتصبب منها ، ففي كل مرة يحصل الشيء ذاته . والآن سيذرع أرض الغرفة طولاً وعرضاً كدب في قفصه ، وسيقرقــــع بحذائه عند كل خطوة فقالت له :

« يا صديقي ، أرجوك ، اجلس ، انت تتعبني » .
واضافت بتردد : « عندي شيء خطير اقوله لك».

جلس السيد داربدا على الكرسي الكبيرة ووضع يديه فوق ركبتيـــه . وسرت في ظهر السيدة داربدا قشعريرة خفيفة ؛ فقد أزفت الساعة ، كان عليها ان تتكلم . وقالت بصوت ملؤه الانزعاج :

– تدري أني رأيت إيفا يوم الثلاثاء .
– نعم .
– لقد تحدثنا عن أشياء كثيرة ، كانت لطيفة جداً، فمنذ وقت طويـل لم أجدها بتلك الثقة . عند ذلك طرحت عليها بعض الاسئلة ، وجعلتهــا تتكلم عن بيار .

وأضافت وقد ازداد انزعاجها : حسناً ، انها تتمسك « كثـــيراً » به . فقال السيد داربدا :
– اقسم بأني أعرف هذا حق المعرفة .

كان يزعج السيدةداربدا قليلاً . إذ ان عليها دائماً ان تشرح له الأشياء بدقة واضعة النقاط على الحروف ، كانت السيدة داربدا تحلم بأن تمضي حياتها مع أشخاص من ذوي اللباقة والحس المرهف ، ممن يفهمونها بسرعة . وأردفت : « غير اني أريد ان اقول ، انها تتمسك به « بخلاف » ما نتصوره » .

وتطلع السيد داربدا بعينين غاضبتين مضطربتين ، كعادته عندما لا يفهم معنى تلميح أو خبر ما :

— ما يعني هذا ؟

فقالت السيدة داربدا :

— شارل ، لا تتعبني ، عليك ان تفهم ان الأم تجد صعوبة في ذكر بعض الأمور .

فقال السيد داربدا بغضب :

— لم أفهم أية كلمة من الكلمات التي أتيت بها ، ولا تريدين ان تقولي شيئاً رغم ذلك ؟

فقالت : حسناً إذا !

— لديهم أيضاً .. ايضاً حتى الآن !

فأجابت بثلاث كلمات جافة :

— نعم ! نعم ! نعم !

فأزاح السيد داربدا ذراعيه ، وأخفض رأسه وسكت .

فقالت امرأته بقلق :

— شارل ، كان عليّ ان لا اقول لك ذلك . لكني لم اعد استطيع الاحتفاظ به لنفسي .

فقال بصوت وئيد :

—يا بنتنا ! مع هذا الجنون ! انه لم يعد يعرفها فهو يسميها أغاثا. فطبيعي

ان تكون قد فقدت معنى ما يجب ان تكون .

فرفع رأسه ونظر الى زوجته بقساوة :

– أنت متأكدة من انك فهمت جيداً ؟ فأضافت بحدة :

– لم يكن هناك من شك ممكن . فأنا مثلك ، لم يكن يسعني ان اصدق ، وانا لا افهمها على كل حال. إلا لأنها متأثرة بهذا البائس المسكين...وتنهدت: واخيراً ، اعتقد انه يحتفظ بها بهذا .

فأجاب السيد داربدا :

– يا للأسف ! هل تذكرين ما قلت لك عندمـا جاء ليطلب يدها ؟ قلت لك : « انه يروق لإيفا اكثر من اللزوم » . ولم تريدي ان تصدقيني .

وضرب فجأة على الطاولة واحمر بقوة :

– هذا فساد في الأخلاق ! يأخذها بين ذراعيه ويقبلها وهو يناديهـا بآغاتا ويفرغ جميع سخافاته حول التماثيل التي تطير وغير ذلك ! وهي تسمح بذلك ! ولكن ما يجري في الحقيقة بينها ؟ ان تلومه من كل قلبها . ان تضعه في مأوى للراحة ، حيث يصبح بإمكانهـا ان تراه كل يوم في ساعة مبكرة ، غير اني لم افكر بشيء كهذا ... كنت اعتبرها بمثابة أرملة .

وقالت بصوت وقور :

– اصغي يا جانيت ، أريد ان اكلمك بصراحة ، فاذا بقي فيها إحساس عليها ان تتخذ لها عشيقاً !

فصاحت السيد داربدا :

– شارل ، اخرس !

فأخذ السيد داربدا ، بهيئة متعبة ، القبعة والعصا اللتين وضعهما على الطاولة المستديرة ، حين دخوله وختم حديثه قائلاً :

– بعد الذي قلته لي ،لم يبق لي اي أمل . وفي النهاية ،سأحدثها رغم كل

شيء لأن هذا من واجبي .

كانت السيدة داربدا تستعجل ذهابه . فقالت له بغية تشجيعه : «اتدري ان إيفا تشكو من عنادها اكثر من اي ... شيء آخر . تعرف أنه غير قابل للشفاء ولكنها تصر على عنادها ، وهي لا تريد ان ترضى بالتكذيب » .

كان السيد داربدا يداعب لحيته حالماً :

« عناد ؟ نعم يمكن ان يكون الأمر كذلك . حسناً ، فاذا كان الحق معك لا بد وان تتعب في النهـــاية . فهو ليس مريحاً كل يوم ثم ان الحديث ينقصه ، فعندما أقول له مرحبا ، يمد لي يداً رخوة بدون ان يتكلم . وعندما ينفردان معاً ، اظن انه يعود الى افكاره الثابتة : قالت لي انه يصرخ كالذبيح لأن عنده وساوس . تماثيل . تخيفه التماثيل لأنها تئز . يقول انها تدور حوله بأعين بيضاء » .

وأردف وهو يضع كفيه :

« ألا أقول لك ، انهــا ستمل في النهاية . ولكن إذا جنت قبل ذلك ؟ أود ان تخرج قليلاً ، ان ترى العالم : فاذا قابلت شاباً ظريفاً — شخصاً مثل شرويدر مثلاً وهو مهندس عند سامبلون ، شخصاً له مستقبله ، تراه تارة عند هؤلاء ، وطوراً عند اولئك وتعتاد برفق على التفكير ببناء حياتهـــا من جديد » .

لم تجب السيدة داربدا بشيء مخـــافة ان يتطور الحديث . فانحنى زوجها نحوها قائلاً :

— هيا ، عليّ ان اذهب .

فقالت السيدة داربدا وهي تقرّب جبينها :

— وداعاً ايها الأب . قبّلها جيداً وقل لها نيابة عني إنها عزيزة تاعسة .

وما ان ذهب زوجها حتى وقعت السيدة داربدا على كنبتهـــا وأغمضت

عينيها من فرط الإعياء . وفكرت بنوع من الملامة : « يا لها من حيوية » .
وما كادت تستعيد بعض قواها حتى مدت يدها الشاحبة ووضعت قطعة من
الحلقوم في الصحن ، بارتجاف وبدون ان تفتح عينيها .

كانت إيفا تسكن مع زوجها في الطابق الخامس من إحدى البنايات ،
في شارع باك .تسلق السيد داربدا برشاقة درجات السلم المئتين واثنتي عشرة .
ولما ضغط على زر الجرس لم يكن على آخر رمق . وتذكر بارتياح كلمة الآنسة
دورموا :

« بالنسبة لسنك يا شارل ، انت ، بكل بساطة ، رائع » . لم يكن يعرفه
أبداً مثيلاً لقوته ونشاطه يوم الخميس ، لا سيا بعد تسلق الدرج .

وجاءت ايفا لتفتح له : « صحيح ، ليس عندها خادمة . هؤلاء البنات
لا يستطعن البقاء في خدمتها لو وضعت نفسي في مكانهن » . قبّلها قائلا :
« مرحباً بك يا عزيزتي المسكينة » .

فقالت له مرحباً ببعض البرود .

وقال السيد داربدا وهو يلامس خدها : « وجهك مائل الى الشحوب ،
فانت لا تتمرنين ما فيه الكفاية » .

ومرت فترة صمت .

وسألت إيفا :

— الماما صحتها جيدة ؟

— لا رديئة ولا جيدة . هل رأيتها الثلاثاء ؟

حسناً انها ككل يوم . جاءت خالتك لويزا لتراها امس ، فسرت لذلك .
تحب كثيراً أن تتلقى الزيارات ، شريطة ألا تطول كثيراً . خالتك لويزا
أتت الى باريس مع الصغار من اجل قضية الحجز . حدثتك عنها على ما أظن .
انها قضية مضحكة . ومرت الى مكتبي لتأخذ استشارة . فقلت لها ان

ليس هناك من طريقين : عليها ان تبيع . فقد وجدت بريتوفيل كمستأجر على كل حال . هل تتذكرين بريتوفيل؟ لقد انسحب من الأعمال في الوقت الحاضر .

وتوقف فجأة ، فايفا لا تكاد تصغي اليه . ففكر باكتئاب بانها لم تعد تكترث لشيء . « كقصة الكتب . في السابق كان علينا انتزاعها بالقوة . والآن لم تعد تقرأ ابداً ».

– كيف حال بيار ؟ فقالت ايفا :

– بأحسن حال . هل تريد ان تراه ؟

فقال السيد داربدا بسرور :

– بل بكل تأكيد ، اريد ان ازوره زيارة قصيرة .

كان كثير الملاطفة لهذا الرجل التعيس ، ولكنه لا يستطيع رؤيته بغير اشمئزاز . « انا اخاف الأشخاص غير الأصحاء» . لم تكن تلك غلطة بيار بلا شك : كانت سلالته مليئة . وتنهد السيد داربدا : « مهما اخذنا من احتياطات فان كل الأمور المماثلة تأتي متأخرة جداً » . كلا ، لم يكن بيار مسؤولاً . ولكن على كل حال ،فقد حمل هذه الآفة فيه ، وهي تكون جوهر طبيعته . اذ لم تكن كمرض السرطان او السل ، بالامكان التغاضي عنها عندما نكون بصدد الحكم على الانسان كما هو بحد ذاته . فلطالما راق ايفا تلك الجاذبية العصبية وذاك الذكاء عندما كان يغازلها ، انها ازهار الجنون . « كان قد أصبح مجنوناً حين تزوجها ، غير ان جنونه لم يظهر . وفكر السيد داربدا ؛ نتساءل اين تبتدىء المسؤولية او بالأحرى اين تنتهي . انه يحلل نفسه كثيراً على كل حال فهل هذا سبب بلائه ام نتيجته . ولحق بابنته عبر ممر طويل معتم وقال :

– هذه الشقة كبيرة بالنسبة اليكما، عليكما ان تنتقلا منها . فأجابت إيفا :

– تردد لي هذا في كل مرة يا أبت ، لكني اجبتك بأن بيار يرفض مغادرة غرفته .

كانت إيفا مدهشة : وهذا ما يثير التساؤل فيما لو كانت تعلم بحالة زوجها كان مجنوناً ، وهي تحترم قراراته وآراءه كما لو كان متمتعاً بحسه السليم .

فأردف السيد داربدا ببعض الانزعاج :

— ما اتحدث عنه هو من اجلك . إذ يبدو لي لو كنت امرأة اني سأخاف من هذه الحجرات القديمة شبه المضاءة ، اتمنى لك ان تقيمي في شقة مضيئة ، كتلك التي بنوا منها هذه السنين الأخيرة ناحية أوتوبي ، من ثلاث غرف يدخلها الهواء جيداً . وقد خفضوا الجـــار شقاتهم لانهم لم يجدوا المستأجرين ، فالفرصة سانحة .

وأدارت إيفـــا مزلاج الباب برفق ودخلا الغرفة . كاد السيد داربدا يختنق من رائحة البخور الثقيلة . والستـــارات كانت مسدلة . فميز في الظل رقبة هزيلة فوق ظهر الكنبة ؛ كان بيار يدير ظهره ، انه يأكل .

فقال السيد داربدا رافعاً صوته :

— مرحباً يا بيار . كيف حالنا اليوم ؟

واقترب السيد داربدا ؛ كان المريض جـــالساً الى طاولة صغيرة ؛ بهيئة متملقة . وقال السيد داربدا رافعاً صوته اكثر :

— أكلنا بيضاً نبرشت . إنه لذيذ ، هذا البيض !

فأجاب بيار بصوت رقيق :

— أنا لست أصم .

والسيد داربدا الذي تأثر ، أدار وجهه ناحية إيفـا ليأخذها كشاهدة . لكن إيفا بادلته نظرة قاسية وسكتت . ففهم السيد داربدا انه جرحهـا . « حسناً . فليكن مـــا تشاء » . كان يستحيل ايجاد اللهجة الملائمة مع هذا الرجل : إذ ان عقله دون عقل طفل في الرابعة ، وايفا تريد ان يعامله الناس كرجل . ولم يكن السيد داربدا ليستطيع ان يحول دون الانتظار بفارغ

الصبر زوال تلك النواحي المضحكة . فالمرضى يزعجونـــه دائماً — وخاصة المجانين لأنهم على خطأ . فبيار المسكين مثلاً ، دائم الوقوع في الخطأ ، ليس بوسعه ان يتفوه بكلمة بدون ان يضيع صوابه ، ومن العبث ان يطلب اليه أي تواضع ، او حتى الاعتراف العرضي بالأخطاء .

وانتزعت إيفا قشرة البيض . ووضعت أمـــام بيار صحناً مع شوكة وسكين .

فقال السيد داربدا مسروراً :

— ماذا سيأكل في الوقت الحاضر !

— قطعة بفتاك .

كان بيار قد تناول الشوكة ووضعها على طرف أصابعه الطويلة الشاحبة . فحصها بدقة ثم ضحك ضحكة خفيفة . وتمتم وهو يضعها من يده :

— لن تكون لهذه المرة . فقد نبهت .

واقتربت إيفا ونظرت الى الشوكة باهتمام فائق . فقال بيار :

— آغاثا اعطيني شوكة أخرى .

واطاعته إيفا ، وبدأ بيار يأكل . فتناولت الشوكة المشبوهة وامسكتها بكلتا يديهـــا بدون ان تزيح نظرها عنها : يبدو انها تقوم بجهود عنيف . ففكر السيد داربدا . « كم هي منحرفة جميع تصرفاتهم وحركاتهم ! »

كان متضايقاً .

وقال بيار :

« انتبهي ، أمسكيها من نصف الظهر بسبب الملاقط » .

فتنهدت ايفا وألقت الشوكة مع فضلات الطعام . وضاق السيد داربدا ذرعاً بما رآه . ولم يفكر بأنه من الأفضل الموافقة على ترهات هذا المسكـين — حتى من وجهة نظر بيار ، كان الأمر مؤذياً . لقد قالها فرانشو بوضوح :

« علينا ألا ندخل في هذر المريض » . فبدلاً من اعطائه شوكة أخرى كان يجب تصويبه برفق وافهامه ان الشوكة الأولى ككل الشوكات الأخرى . واقترب من فتات الطعام ،وتناول الفرشاة علناً واخذ يحكها على اسنانه بخفة. ثم اتجه نحو بيار . لكن هذا كان يقطع قطعة اللحم بسرور . فرفع نحو حميه نظرة عذبة لا تنم عن شيء . فقال السيد داربدا لايفا :

« اريد ان اتحدث قليلاً معك » .

تبعته ايفا طائعة الى غرفة الاستقبال . وانتبه السيد داربدا وهو يجلس، الى انه نسي الفرشاة في يده . فرماها ، بانزعاج على المنضدة . وقال : « هنا أفضل » .

– لن آتي ابداً .
– بامكاني أن أدخن .
فقالت إيفا بتلهف :
– طبعاً يا أبت . هل تريد سيجاراً ؟

آثر السيد داربدا ان يلف سيكارة . كان يفكر بغير قلق بالمناقشة التي سيجريها . كان منزعجاً من عقله وهو يتحدث الى بيار ، انزعاج المارد من قوته عندما يلاعب ولداً صغيراً . فكل صفاته من وضوح وصفاء ودقة كانت تتحول ضده . « مع جانيت المسكينة ، الأمر متشابه الى حد ما ، عليّ ان اعترف بذلك » وبالطبع ، ان السيدة داربدا ليست مجنونة ولكن المرض انهكها. ايفا ، بالعكس ، كانت كأبيها ، ذات طبيعة مستقيمة ومنطقية . « لهذا لا اريد ان يغرقوها ». رفع السيد داربدا عينيه ، كان يريد ان يرى ملامح الذكاء والفطنة عند ابنته . خاب ظنه : ففي هذا الوجه الذي كان عاقلاً شديد الوضوح ، يوجد الآن شيء مضطرب كثيف . كانت لا تزال جميلة جداً . ولاحظ السيد داربدا انها تزينت بعناية فائقة ، وحتى بزهو . فقد لونت ريفها بالأزرق واكتحلت . تلك الزينة الكاملة والعنيفة احدثت عند

ابيها انطباعاً مضنياً. فقال لها :

« تبدين خضراء من تحت زينتك ، اخشى ان تقعي فريسة المرض . ولكم تتبرجين في الوقت الحاضر ! انت التي كنت » .

لم تجب ايفا ، وتطلع السيد داربدا بانزعاج الى هذا الوجه البارز المنهك ، تحت كتلة الشعر الكثيف الأسود . وفكر بأن لها هيئة ممثلة الدراما . « حتى اني اعرف لمن تشابه. لتلك الامرأة متحفظة الرومانية، التي لعبت دور فيدرا باللغة الفرنسية في حائط الأورانج » . وندم على ابدائه تلك الملاحظة غير المحببة .

— حصل هذا رغم ارادتي ! من الأفضل ألا اثيرها لأشياء صغيرة .

فقال لها مبتسماً :

— اعذريني ، فأنت تعرفين اني متمسك بالطبيعة قديم. لا احب كل هذه المراهم التي تطلي بها نساء اليوم وجوههن لكنني انا المخطىء ، فمن الواجب ان يماشي الانسان عصره .

وابتسمت له إيفـــا بتحبب . أشعل السيد داربدا سيكارته وأخذ عدة أنفاس . وبدأ كلامه :

— يا ابنتي الصغيرة ، كنت اريد ان أقول لك حقاً إننا نريد ان نثرثر نحن الاثنين ، كما في السابق . هلمي ، اجلسي واصغي إليّ بلطف ، فعليك ان تثقي بهذا الأب العجوز .

فقالت ايفا :

— أفضل ان أبقى واقفة . ثم أضافت :

— ما عندك لتقوله لي ؟

فقال السيد داربدا بمزيد من الجفاف :

— أريد ان اسألك سؤالاً بسيطاً . إلام سيقودك كل هذا ؟ .

فكررت إيفا مدهوشة :

– كل هذا ؟

– أجل ، كل هذا ، كل هذه الحياة التي ارتضيتها .

وأردف قائلاً :

– اصغي ، لا تظني اني لا افهمك (اصيب بضياع مفاجيء) . لكن ما تريدين ان تقومي به هو فوق طاقة البشر . تريدين ان تعيشي بالخيال فقط أليس كذلك ؟ لا تريدين ان ترضي بأنه مريض ؟ لا تريدين ان تري بيار كما هو اليوم ، أليس كذلك ؟ ليس لك نظر لغير بيار كما كان في السابق . يا عزيزتي الصغيرة ، يا ابنتي الصغيرة . وتابع السيد داربدا : إنها مخاطرة لا يمكن الاستمرار فيها . خذي ، اريد ان اقص عليك حكاية لم تسمعي بها من قبل : نحن عندما كنا في سابله – دولون ، كان عمرك ثلاث سنوات، وتعرفت أمك على امرأة جذابة كان عندها صبي رائع . كنت تلعبين على الشاطىء مع هذا الصبي ، كنت لا تزالين صغيرة جداً ، انه خطيبك . وفي باريس شاءت أمك ان تعود للقاء تلك المرأة الشابة ، إذ قيل لها أن حادثاً رهيباً قد حصل لها . فولدها الجميل قتل بعد ان صدمته مقدمة احدى السيارات وقيل لأمك: « اذهبي لمقابلتها ولكن لا تتناولي بأي حال موضوع ولدها فهي لا تريد ان تصدق أنه مات » . وذهبت أمك لترى خلقة شبه مجنونة : كانت تعيش كما لو ان ولدها لا يزال على قيد الحياة ، اذ انها تكلمه ، وتضع صحنه على الطاولة . لقد عاشت ستة اشهر على تلك الحال من التوتر العصبي ، ولم تمض هذه الاشهر الستة حتى اقتيدت بالقوة الى مأوى احترازي بقيت فيه ثلاث سنين . وقال السيد داربدا وهو يهز رأسه : لا يا صغيرتي ان اموراً كهذه مستحيلة . كان من الافضل لهـا ان تعترف بالحقيقة بشجاعة ، فتتألم لمرة واحدة ثم يمتص الزمن ألمها . فلا يمكن الا التطلع الى الأمور مواجهة ، صدقيني .

فقالت إيفا بعناء :

– انت مخطىء فأنا اعرف ان بيار ...

ولم تجر الكلمة على لسانها ، فوقفت منتصبة القامة ، ووضعت يديهـا على ظهر الكرسي . كان هناك شيء مجدب دميم في اسفل وجهها .

وسأل السيد داربدا مدهوشاً :

– حسناً ... ماذا ؟

– ماذا ؟

– انت ...؟

فأسرعت إيفا لتقول بهيئة منزعجة :

– أحبه كما هو .

فقال السيد داربدا بقوة :

– ليس هذا صحيحاً ، ليس هذا صحيحاً : انت لا تحبينه، ليس بإمكانك ان تحبيه . ليس بالإمكان الشعور بعاطفة الا تجاه إنسان سليم وطبيعي .

« انلديك بعض المالأة لبيار ، ولا أشك بذلك، كما لا بد وانك تحافظين على ذكرى السنوات السعيدة الثلاث التي امضيتها معه . ولكن لا اقول انك تحبينه ، فلن اصدقك» .

ظلت ايضاً بكماء وحدجت السجادة بنظرة تائهة . فقـال السيد داربدا بـبرود :

– ولا تظني ان هذا الحديث لا يؤلمني بقدر ما يؤلمك :

– ولكنك لن تصدقني .

فقال وقد ضاق ذرعاً :

– حسناً ، اذا كنت تحبينه فان هذا وبال عليك ، وعلي وعلى امـك المسكينة وسأقول لك شيئاً كنت افضل اخفاءه . لن تمر ثلاث سنوات حتى يصبح بيار مجنوناً كاملاً ، وسيتحول الى حيوان .

وحدج ابنته بنظرات قاسية ، لقد كرهها لانها ارغمته بعنادها على الاعتراف لها بهذا الأمر الخطير .

ولم تتحرك ايضاً وبدون ان ترفع ناظريها :

– اعرف ذلك .

فسأل مشدوهاً :

– ومن قاله لك ؟

– فرانشو . فأنا اعرف ذلك منذ ستة اشهر . .

فقال السيد داربدا بمرارة :

– وانا الذي قلت له ان يسايرك .

«ولكن ، لعل هذا افضل . ففي مثل هذه الأحوال لا يمكن ان نغفر لك الاحتفاظ ببيار في بيتك . فالكفاح الذي كرست نفسك من اجله سيكتب له الفشل ، فمرضه لا يغفر . فاذا كان عليك ان تفعلي شيئاً ، واذا كان بالامكان انقاذه بالعناية ، فلا اعترض . ولكن انظري قليلاً : كنت جميلة ذكية مرحة ، وانت تدمرين حياتك مختارة وبغير فائدة . حسناً ، أفهم انك مدعاة للاعجاب ، ولكن ها انت قد قمت بواجبك على اكمل وجه بل أكثر من واجبك . ومن العار أن تصري على رأيك في الوقت الحاضر ، فعلى المرء واجبات تجاه نفسه يا ابنتي . ثم ألا تفكرين بنا » .

وأضاف وهو يشد على الكلمات :

– «يجب» عليك ان ترسلي بيار الى عيادة فرانشو ، ثم تتركي هذه الشقة التي لم تجلب لك سوى العذاب وتعودي الى بيتنا . واذا كنت راغبة بأن تكوني مفيدة وأن تسلي عن آلام الغير ، فعليك بأمك . ان المسكينة تحت عناية الممرضات وهي بحاجة لأن ترى بشراً حولها . وأضاف :

– وهي – هي بامكانها ان تقدر ما تقومين به من أجلها وتكون لك شاكرة .

ومضى وقت طويل . وسمع السيد داربدا بيار يغني في الغرفة المجاورة . بالكاد كان صوته غناء فهو نوع من السرد الحاد العصبي ، ورفع السيد داربدا نظره نحو ابنته :

– اذاً ، لن تقبلي ؟

فقالت برفق :

– سيظل بيار معي ، فأنا على اشد ما تكون المفاهمة معه .

– شريطة القيام بأعمال حيوانية طيلة النهار .

فابتسمت إيفا وحدجت أباها بنظرة ساخرة شبه فرحة . وفكر السيد داربدا بغضب : « صحيح ، فهما لا يعملان اكثر من هذا : ينامان في فراش واحد .

فقال وهو ينهض :

« انت مجنونة كاملة » .

فابتسمت بكآبة متمتمة وكأنها تحدث نفسها :

– ليس كثيراً .

– ليس كثيراً ! لا استطيع ان اقول لك سوى شيء واحد يا ابنتي ، أنت تخيفينني .

وقبلها على عجل وانصرف . وفكر وهو ينزل الدرج :

« من الاجدر ان ارسل لها رجلين ضخمين يقتادان تلك القذارة المسكينة ويضعانها تحت مصب المياه دون اخذ رأيها » .

كان يوماً هادئاً من أيام الخريف ، ليس فيه من غرابة . والشمس تسطع في وجوه المارة . دهش السيد داربدا لبساطة تلك الوجوه فمنها الأسمر الخشن ومنها الناعم ، لكنها كانت تعكس السعادة والهموم التي ألفها . وقال في نفسه وقد استلم جادة سان جرمان :

« اعرف بوضوح تام ما آخذه على ايفا ، لم يعد بيار كائناً بشرياً : فبكل ما توليه من عناية وتهبه من حب أراهـا تحرم هؤلاء البشر الآخرين . فليس بامكان المرء ان يتخلى عن بني الانسان » .

كان يراقب المـــارة بمحبة :يعشق نظراتهم الوقورة الصافية . ففي هذه الشوارع المشمسة وبين البشر بامكان المرء ان يكون مطمئناً ، كما لو في عـائلة كبيرة .

وتوقفت احدى النسوة أمـام الأشياء المعروضة في الهواء الطلق ، كانت تمسك بيدها بنتاً صغيرة .

فسألت البنت وهي تدل على جهاز الراديو :

– ما هذا ؟

فقالت أمها :

– لا تلمسي شيئاً بيدك ، انه جهاز ، يحدث موسيقى .

وظلتا للحظة ساكتتين، وفي غمرة السعادة .

فانحنى السيد داربدا وقد رق قلبه – نحو البنت الصغيرة وابتسم .

- ٢ -

« لقد ذهب » . وكان باب المدخل قد اقفل بقرقعة جافة . وايفا وحدها في غرفة الاستقبال : « أودّ أن يموت » .وتشنجت يداها على ظهر الكرسي، إذ تذكرت عيني أبيها . كان السيد داربدا قد انحنى فوق بيار وقال له : « ألذيذ هذا !» وكأنه يتقن الحديث الى المرضى . نظر اليه ، فارتسم وجـه بيار في قعر عينيه . « انا اكرهه ، عندما أفكر بأنه يراه » .

وانزلقت يدا إيفا على طول الكنبة ،واتجهت نحو النافذة. كانت مشدوهة. فالغرفة تسطع بالشمس ، فالشمس في كل مكان فيها : على السجـــادة ذات الدوائر ، وفي الهواء، كغبار يعمي الأبصار . لقدفقدت إيفا تعودها على الضوء القوي، الذي يصل الى كل مكان ويخترق جميـع الزوايا ، يلامس الأثاث فيجعله يلمع . وتقدمت مع ذلك نحو النافذة ورفعت ستار القماش الذي يتدلى فوقها . في نفس اللحظة ، كان السيد داربدا يغـــادر البناية ؛ فلمحت إيفا فجأة كتفيه العريضتين . ورفع رأسه ونظر الى السماء مغمضاً عينيـــه ثم ابتعد بخطى واسعة وكأنه رجل شاب . وفكرت ايفا : «انه يجهد نفسه». لم تكن لتكرهه أبداً : لم يبق في هذا الرأس من أشياء كثيرة ، إذ لا يـكاد اهتمامه بالبقاء شاباً يظهر عليه . لكن الغضب عاد واستبد بها عندما شاهدته ينعطف نحو جادة سان جرمان ومن ثم يختفي .«انه يفكر ببيار » . فالقليل

من حياتها فرّ خارج الغرفة المقفلة ليتهالك في سيره عبر الشوارع ، وفي الشمس ، وبين الناس .

« أليس بالامكان قط أن ينسونا ؟ » .

كانت طريق باك شبه مقفرة . امرأة عجوز تعبر الشارع على مهل ، وتمر ثلاث فتيات يتضاحكن . ثم رجال ، رجال أقوياء وقورون يحملون حقائبهم ويتبادلون الحديث وفكرت ايفا : « البشر العاديون » ، وقد ادهشها ان ترى في نفسها تلك المقدرة على الكره . وركضت امرأة جميلة سمينة أمام سيد أنيق . فأحاطها بذراعيه وقبلها في فمها . ضحكت ايفـــا ضحكة قاسية وأسدلت الستـــار .

كان بيار قد انقطع عن الغناء ، لكن زوجة الثالث جلست الى البيانو ؛ تعزف قطعة لشوبان . وشعرت إيفا بأنها اكثر اطمئناناً ؛ وخطت خطوة نحو غرفة بيار ، لكنها توقفت فجأة وأسندت ظهرها الى الحائط بشيء من القلق : اذ في كل مرة كانت تغادر فيهـــا الغرفة ، يدب في نفسها الذعر عند فكرة العودة اليها ثانية . إلا انها تعرف أنه لم يكن بوسعهـــا العيش في مكان آخر : كانت تحب الغرفة . وجابت ببصرهـــا بفضول بارد تلك الغرفة التي لا ظلال لها ولا رائحة حيث كانت تنتظر عودة شجاعتها ، وكأنها تريد ان تكسب قليلاً من الوقت . « ليقال انهـــا عيادة طبيب الأسنان » : فكنبات الحرير الوردي ، والديوان ، والطاولات كانت صبورة متكتمة ، على شيء من الأبوة فهي من الأصدقاء الطيبين للإنسان . وتصورت إيفا ان رجالاً وقورين عليهم أثواب فاتحة ، يدخلون قاعة الاستقبال ويستأنفون حديثاً كانوا قد بدأوه . لم يسعهم الوقت لكي يتعرفوا على المكان ، اذ تقدموا بخطى ثابتة الى وسط الحجرة . وكان واحد مثلهم ، يجر يده وراءه ، يلامس عند مروره الطنافس والأغراض والطاولات ، فلا يرتعد لاحتكاكه بهـــا . واذا وقعت في طريقهم قطعة أثاث ، كان يعمد هؤلاء الرجال الرزينون لازاحتها من مكانها ، بدون

أن يأخذوا عناء الابتعاد عنها . وجلسوا أخيراً ، وهم لا يزالون غارقين في مباحثاتهم ، حتى بدون ان يلقوا نظرة الى الوراء . ففكرت ايفا : « انها قاعة استقبال للبشر العاديين » وثبتت نظرها بالباب المقفل والقلق يضغط على حنجرتها : « عليّ ان اذهب . فلن اتركه وحده لهذه المدة الطويلة » . كان عليها ان تفتح الباب ، ثم تقف في العتبة ، محاولة ان تعوّد عينيها على خيال الظل ، فتدفعها الغرفة بكل قواها. وكان على إيفا ان تنتصر على تلك المقاومة وان تدخل الى قلب الغرفة . فجأة اعتراها ميل عنيف لمشاهدة بيار ، وأرادت ان تشاطره الهزء من السيد داربدا . لكن بيار لم يكن بحاجة اليها ؛ ولم تتصور إيفا نوع اللقاء الذي يعدّه لها . وفجأة فكرت بنوع من الفخر انه لم يبق لها محل في اي مكان . غير اني لا استطيع المكوث ساعة بصحبتهم . أنا بحاجة لأعيش هناك ، من زاوية الجدار الثانية . ولكنهم لا يريدونني هناك .

وحصل تغيّر عميق فيما حولها . لقد شاخ الضوء ، واصبح لونه داكناً : وتثاقلت إيفا ، كالماء في اناء الزهور حين لا يتغير منذ البارحة . وعلى الاشياء وفي هذا الضوء العجوز ، رأت ايفا من جديد تلك الكآبة التي كانت قد نسيتها منذ وقت طويل ، كآبة بعد ظهر يوم من أيام خريف مضى . كانت تنظر فيما حولها مترددة خجولة : كل هذا كان بعيداً جداً : ففي الغرفة ليس هناك نهار أو ليل ، ولا فصل ولا كآبة . وتذكرت بغير وضوح فصول الخريف السابقة ، فصول خريف طفولتها ، ثم جمدت في مكانها فجأة ، كانت تخشى الذكريات .

وسمعت صوت بيار .

فصاحت :

ــ ها أنا آتية .

وفتحت الباب ودخلت الغرفة .

لقد ملأت رائحة البخور أنفها وفمها ، بينما أغمضت عينيها ومدت يديها الى الأمام ـ اصبحت الرائحة والظل بعينها عنصراً واحداً كالماء او النار ـ وتقدمت بحذر نحو لطخة يبدو أنها طافية في الغمام . كانت اللطخة وجه بيار : فثيابه (وبيار مذ مرض بات يرتدي لباساً أسود) قد ذابت في العتمة . كان بيار قد قلب رأسه الى الوراء وأغمض عينيه . إنه جميل . نظرت ايفا الى ريفه الطويل المقوس ، ثم جلست الى جانبه على الكرسي الواطئة . وفكرت في نفسها : « يبدو أنه يتألم » . بدأت عيناها تألفان الظل شيئاً فشيئاً . فظهر المكتب أولاً ، ثم السرير ، ثم اشياء بيار الشخصية ، والمقص ، والكتب التي كانت على الارض قرب الكنبة .

« أغاثا ؟ »

فتح بيار عينيه ونظر اليها باسماً . وقال :

ـ اتدرين قصة الشوكة ؟ قمت بذلك لأخيف الرجل . فلم يكن ينقصها شيء تقريباً .

فتبددت مخاوف ايفا وضحكت ضحكة خفيفة وقالت :

ـ لقد نجحت نجاحاً هائلاً ، فجعلته يخاف خوفاً شديداً .

وابتسم بيار .

ـ أرأيت ؟

داعبها هنيهة وأمسكها بكلتا يديه . وقال : ان ما هناك ، انهم لا يحسنون أخذ الأشياء فهم يضعونها في قبضتهم .

فقالت ايفا :

ـ هذا صحيح .

ونقر بيار قليلاً على باطن يده اليسرى بسبّابة يده اليمنى .

« فبهذه يلتقطون . يقربون اصابعهم وما ان يلتقطوا الشيء حتى يضعوا

راحة يدهم فوقه ليخنقوه »

كان يتحدث بصوت مريع وبطرف شفتيه :
يبدو انه محتار . وقال في الختام :

ــ أتساءل عما يريدونه . لقد أتى هذا الرجل . لماذا أرسلوه الي ؟ فاذا أرادوا ان يعرفوا ما اعمل ، فليس عليهم سوى ان يقرأوه على الشاشة ، فليسوا بحاجة حتى للتحرك من أمـــاكنهم . انهم يرتكبون الأخطاء . لديهم القوة ولكنهم يرتكبون الأخطاء . أمـــا انا فلا اخطىء ابداً ، وهذا هو رصيدي . ثم قال : ــ هوفكا هوفكا . كان يحرك يديه المديدتين أمـــام جبهته :

ــ العاهر ! هوفكا بافكا سوفكا . هـــل تريدين اكثر من هذا ؟
فسألته ايفا:

ــ هل هذا هو الجرس ؟
وأردف بصراحة :
ــ نعم . انها ذهبت .
ــ هذا الرجل متخلف. انت تعرفينه، وذهبت معه الى قاعة الاستقبال ـ ولم تجب .
فسأل بيار :
ــ ما كان يريد ؟ لا بد وأن يكون قد قاله لك .

فترددت لحظة ثم أجابت بعنف :
ــ كان يريد ان نقفل عليك .

عندما تقال الحقيقة على مسمع بيار بهدوء ، كان شديد الحذر ، اذ يجب أن يضرب بالحقيقة بعنف كي تنشل شكوكه . كانت ايفا تفضل أن تعنفه على ان تكذب عليه . فاذا كذبت وصدقها ، لم تكن لتتالك نفسها دون

شعور بسيط بالتفوق عليه ، يجعلها تشمئز من نفسها .

وكرر بيار بسخرية :

ـ أن يقفل علي . انهم يفقدون جادة الصواب . وما يمكن لهذا أن يصنع بي ، بين الجدران ؟ لعلهم يعتقدون بأن هذا يوقفني . أتساءل أحياناً هل هناك عصابتان ؟ الصحيحة هي تلك التي تنتسب للزنجي . ومن ثم عصابة مسودات تسعى لحشر أنفها في القضية فترتكب السخافة تلو السخافة .

ورقص يده على ذراع الكنبة ونظر اليها باغتباط ثم سأل بعد ان أستدار نحو إيفا بفضول :

– الجدران ، بالامكان اختراقها . فماذا أجبته ؟

– أنه لن يصار الى إدخالك المأوى .

فهز كتفيه .

– لم يكن ينبغي ان تقولي هذا. انت أيضاً ارتكبت غلطة إذا لم تكوني قد تعمدتها . ينبغي ان يستنفدوا لعبتهم .

وسكت . فأخفضت إيفا رأسها بحزن : « يقبضون عليهم ! » فبأي لهجة احتقار قال هذا ، وكم كان صحيحاً . « وهل اقبض انا ايضاً على الاشياء ؟ مهما راقبت نفسي ، أظن ان غالبية حركاتي تؤذيه . ولكنه لا يفصح بذلك». شعرت عندئذ بأنها بائسة ، كما كانت عليه في سن الرابعة عشرة وان السيدة داربدا المليئة بالحيوية والخفة تقول لها :

« سيظن بأنك لا تدرين ما تفعلينه بيديك» .

لم تكن تتجرأ على القيام بأية حركة وفي تلك اللحظة تماماً شعرت برغبة لا ترد بتغيير وضعها . وأعادت رجليها بهدوء الى تحت الكرسي ، وبدون ان تلامس السجادة . كانت تنظر الى المصباح على الطاولة ـ المصباح الذي طلى

بيار ركيزته بالأسود ورقعة الشطرنج . على الرقعة لم يترك بيار سوى القطع السوداء . كان ينهض أحياناً ويذهب الى قرب الطاولة فيأخذ الجنود واحداً واحداً بين يديه . يحدثهم ، يطلق عليها اسم الأشخاص الآليين ، فيبدون وكأن الحياة قد أسبغت عليها بين أنامله . وعندما يضع الجنود من يده ، كانت ايفا تذهب لتلامسهم بدورها (كان يتهيأ لها انها مضحكة) : فعادت الجنود قطعاً من الخشب الميت ، ولكن شيئاً ما مبهماً لا يمكن التقاطه ظل يكسوها ، شيئاً يشابه المعنى . وفكرت في نفسها : « انها اشياؤه . لم يبق لي شيء في الغرفة » . كانت تملك بعض الأثاث في السابق . كالمرآة والمنضدة التي أتتها من جدتها والتي كان بيار يسميها ممازحاً : منضدتك . لقد جر بيار الأشياء وراءه : وله وحده تظهر الأشياء وجهها الحقيقي . كان بامكان ايفا ان تنظر الى الأشياء طيلة ساعات ، والأشياء تأبى الا ان تبدي سوى مظاهرها — كما هي الحال بالنسبة للدكتور فرانشو والسيد داربدا . وقالت بنفس ملؤها القلق : « غير اني لا أرى الاشياء بمنظار أبي . فليس ممكنا أن أستطيع رؤيتها كما يراها هو » .

وحركت ركبتها قليلاً ، فقد تخدرت ساقها . كان وجهها جامداً متقلصاً فهو يؤذيها ، إذ تراه شديد الحيوية ، غير كتوم :

« أود ان أظل غير مرئية وأبقى هنا . أراه بدون ان يراني . فليس بحاجة إلي ، فأنا متطفلة في الغرفة » . وأدارت رأسها قليلاً ونظرت الى الجدار فوق رأس بيار . على الحائط كتبت التهديدات . وإيفا تعرف ذلك ولكنها لم تكن تستطيع ان تقرأها . غالباً ما هي تنظر الى الورود الكبيرة الحمراء على سجادة الحائط ، حتى تتراقص أمامها تلك الورود . وتلتهب الورود في الظل . ويكون التهديد أكثر ما يكون مسجلاً قرب السقف ، الى اليسار فوق السرير ، لكنه يتنقل في بعض الأحيان . « ينبغي ان انهض . لا أستطيع — لا استطيع ان اظل جالسة لوقت أطول » . وعلى الجدار ايضاً

إطارات بيضاء تشابه قطع البصل . وتدور الاطارات على نفسهـا فتأخذ يدا ايفا بارتجاف وتفكر بمرارة :

« هناك لحظات أصبح فيها مجنونة . ولكن لا ، ليس بامكاني أن اصبح مجنونة . بل تثور ثائرتي فقط » .

وفجأة شعرت بيد بيار فوق يدها . ويقول بيار بحنو :

— أغاتا .

كان يبتسم لها لكنه يأخذ يدها بطرف اصابعه بنوع من النفور ، وكأنه يلتقط سرطاناً من ظهره يريد ان يتجنب ملاقطه . ويقول :

— آغاتا ، أريد ان اثق بك كثيراً .

واغمضت إيفا عينيهـا وارتفع صدرها : « يتبغي ألا تجيب والا سيشعر بالتحدي فيمسك عن الكلام » .

وأرخى بيار يدها وقال لها :

— أحبك كثيراً يا أغاتا ولكن ليس بوسعي ان أفهمك . لماذا تظلين في الغرفة طيلة الوقت ؟

ولم تجب إيفا .

— قولي لي لماذا .

فقالت بجفاف :

— انت تعرف جيداً بأني احبك .

فيجيبها بيار :

— أنا لا أصدقك . فلماذا تحبينني ؟ ينبغي ان أخيفك : فأنا مجنون .

ويبتسم ولكن سرعان ما يعود الى رصانته :

— هناك جدار بيني وبينك . أراك ، أكلمك ، ولكن في الجهة الأخرى

ما يحول دون حبنا واحدنا الآخر ؟ يبدو لي أن هذا كان اسهل في الماضي . في هامبورغ .

فتقول إيفا بحزن :

— نعم .

هامبورغ دائماً . لم يكن يتحدث قط عن ماضيهـــا الحقيقي . فلم يكونا يوماً في هامبورغ لا هو ولا إيفا .

— كنا نتنزه على طول الأقنية ، وكان هنـــاك قارب ، فهل تتذكرين ؟ والقارب أسود ، وعلى الجسر كلب .

كان يخترع بمقدار . كان غائباً عن الواقع .
—وأخذك بيدي ، جلدك كان مختلفاً . وصدقت كل ما كنت تقولينه لي .

وصاح : « اسكتوا » .
وأصغى هنيهة ثم قال بصوت حزين :
« ها هم قادمون » .

فارتعدت إيفا :

— انهم قادمون ؟ ظننت انهم لن يأتوا بعد اطلاقاً .

ثلاثة أيام ، وبيار أكثر هدوءاً من الماضي . فلم تأت اليه التماثيل . كان بيار يخاف خوفاً شديداً من التماثيل ولم يتفق معها . أما إيفا فلم تكن تخشاها: ولكن ما أن يبدأوا بالطيران في الغرفة مهمهمين حتى تفزع هي ايضاً من بيار. ويقول بيار :

— اعطيني المجموعة .

وتنهض إيفا وتأخذ المجموعة : كانت مجموعة من قطـــع الورق المقوى ألصقها بيار بنفسه، ويستخدمها في طرد التماثيل، والمجموعة تشبه العنكبوت .

وعلى أحدى الأوراق كتب بيار : « قدرة على المكيدة » وعلى ورقة أخرى: « أسود » . وعلى ورقة ثالثة رسم رأساً ضاحكاً بعينين مجعدتين : كانت صورة فولتير .

وتناول بيار المجموعة بيده ونظر اليها بوجه معتم . وقال :

— لم يعد بامكانها ان تخدمني .

— لماذا ؟

— لقد قلبوها .

— ستصنع مجموعة أخرى .

ونظر اليها طويلاً وقال من بين أسنانه :

— تريدينه كل الارادة .

وثارت إيفا ضد بيار . في كل مرة يأتون فيها ، يتلقى هو خبراً، فكيف يتصرف : إنه لا يخطىء أبداً .

كانت المجموعة تتدلى من طرف اصبع بيار . « انه يجد دائماً أسباباً حقيقية لعدم استعمالها . ففي يوم الأحد عندما جاؤوا ، ادعى بأنه أضاع المجموعة لكنني كنت أراها بنفسي وراء علبة التلزيق وليس ممكناً ألا يراها . فأتساءل ان لم يكن هو الذي يجتذبهم » . لم يكن بالامكان ان نعرف اذا كان مخلصاً حقاً . ففي بعض اللحظات ، كان يتهيأ لإيفا ان سيلاً من الأفكار والرؤى تغزو بيار . ولكن في لحظات أخرى ، كان يبدو لها ان بيار يخترع . « إنه يتألم . ولكن الى اي حد هو يؤمن بالتماثيل وبالزنجي ؟ التماثيل على كل حال ، أنا متأكدة من أنه لا يراها ، فهو يسمعها فقط : فحين تمر يحوّل رأسه عنها ، ويدعي مع ذلك بأنه يراها ويصفها » . وتذكرت وجه الدكتور فرانشو المائل الى الاحمرار : « ولكن ، يا سيدتي العزيزة ، ان جميع المجانين كاذبون، فستضيعين وقتك إذا أردت ان تميزي بينما يشعرون به

حقاً وبين ما يدعون الشعور به». وارتعدت :

« لماذا أتى فرانشو ، لا أريد ان أفكر على غراره » .

كان بيار قـــد نهض وذهب ليضع المجموعة في سلة الاوراق ، وتمتمت : « مثلك أريـــد ان افكر » كان يمشي بخطى ضئيلة ، على رؤوس أصابعه ، لكي يحتل أقل مكان ممكن . وعـــاد الى الجلوس ونظر الى إيفا بوجه مطبق وقال :

— ينبغي وضع سجادات سوداء فوق الجدران ، فليس في هذه الغرفة ما يكفي من السواد .

كان قد ارتاح في الكنبة ونظرت إيفا بحزن الى هذا الجسد الشحيح ، المستعد دائماً للأنسحاب والانكفاء على نفسه : فذراعـاه ، وساقاه ، ورأسه كانت تبدو كأعضاء قـــابلة للإنكماش . ودقت الساعة السادسة على الجدار ، وسكت صوت البيانو . وتنهدت إيفا : لن تأتي التماثيل في الحال ، كان ينبغي انتظارها .

« هل تريد ان أشعل النور » .

كانت تفضل ألا تنتظر التماثيل في الظلام .

فقال بيار :

— افعلي ما شئت .

واشعلت إيفا مصباح المكتب الصغير ، فاجتاح الغرفة ضباب أحمر . كان بيار ينتظر أيضاً .

لم يكن يتحدثبل ان شفتيه بتحركهما ترسمان بقعتين مظلمتين في الضباب الأحمر . إنها تحب شفتي بيار . فقد كانتا في الماضي مثيرتين مغريتين . لكنهما أضاعتا الاغراء . اذ تنفصل واحدتهما عن الأخرى بارتعاش قليل ثم تعـود للالتحام مع رفيقتها ، فتنسحق واحدتهما على الأخرى لتعودا فتنفصلان من

جديد . فهما تعيشان وحيدتين في هذا الوجه المسوّر ، وكأنهما حيوانان وجلان . كان بامكان بيار أن يجعل شفتيه ترقصان طيلة ساعات بدون أن يخرج من فمه أي صوت ، ولطالما انبهرت ايفا بتلـــك الحركة المستمرة . « أحبّ فمه » . لم يعد يقبلها أبداً . اذ بات يخشى الملامسة .في الليل كان يلامس ؛ أيدي رجال قاسية جافة تلتقطه في انحاء جسمه . وأيدي نساءذات أظافر طويلة تقوم بدغدغته بقذارة . غالباً ما ينام بثيابه ، لكن يديـه تنزلقان تحت ثيابه وتشدان على قميصه . مرّة ، سمع ضحكة ؛ شفتـــان منتفختان تلتصقان بشفتيه . منذ تلك الليلة انقطع عن تقبيل إيفا .

وقال بيار :

– أغاتا ، لا تنظري الى فمي !

وأخفضت ايفا عينيها .

وتابـع بوقاحة :

– أنا لا أجهل ان بالامكان تعلم القراءة على الشفتين .

كانت يده ترتجف على ذراع الكنبة . ومد سبابته ونقر على الابهام ثلاث مرات وتشنجت الأصابـع الأخرى : كانت عملية مطـــاردة . وفكرت في نفسها : « سيبتدىء الأمر » . كان بودها ان تأخـــذ بيار بين ذراعيها .

بدأ بيار بالكلام بصوت عال وبلهجة لائقة :

– هل تذكرين سان بولي ؟

لا إجابة . لعل هذا فخ .

وقال بوجه مسرور :

– هناك عرفتك . اختطفتك من بحار دانمركي . كدنا نتقاتـــل ، لكنني دفعت ثمن الرحلة وتركني في صحبتك. كل ذلك لم يكن الا مهزلة .

« انه يكذب ، انه لا يعتقد بأية حكمة يقولها . يعرف اني لا أدعى أغاثا . اني اكرهه حين يكذب » . لكنها رأت عينيه الجامدتين وتبدد غضبها . وفكرت في نفسها : « إنه لا يكذب ، انه متعب . يحس بأنهم يقتربون . ويتحدث كيلا يسمع » . وتعلق بيار بكلتا يديه بذراع الكنبة . كان وجهه شاحباً ، ويبتسم . وقال :

— هذه اللقاءات غريبة اكثر الأحيان ، لكني لا أؤمن بالصدفة . انا لا اسألك عمن أرسلك ، فأنا أعرف انك لن تجيبي . لقد كنت على كل حال لبقة الى حد انك لطختني » .

كان يتحدث بعياء ، وبصوت حاد مضغوط . فهناك كلمات لم يستطع ان يلفظها فتخرج من فمه كمادة رخوة لا شكل لها .

« لقد جذبتني في غمرة العيد ، في ميادين السيارات السوداء ، ولكن وراء السيارات جيشاً من العيون الحمراء التي كانت تبرق عندما أدير ظهري . أظن أنك كنت تعطيهم الاشارات ، وانت تتعلقين بذراعي ، لكنني لم أر شيئاً . كنت مأخوذاً جداً باحتفالات التتويج الكبرى » .

كان ينظر قبالته جاحظ العينين . ومرّ بيده على جبينه بسرعة فائقة وبحركة رشيقة وبدون ان يكف عن الكلام : لم يكن يريد الكفّ عن الكلام . وقال بصوت حاد :

— كانت حفلة تتويج الجمهورية ، مشهد مثير في نوعه بسبب الحيوانات المختلفة الأجناس التي أرسلتها المستعمرات من أجل الاحتفال . وخفت ان تضيعي بين القردة .

وتابع بصوت ملؤه الغطرسة وهو ينظر حوله :

— قلت بين القردة . وبامكاني ان أقول بين الزنوج ؟ فالحيوانات الجهيضة التي تزحف تحت الرمال وتظن انها ستمضي بغير ان يراها احد

يكتشفها « نظري » ويقضي عليها في الحال . وصاح :

– الأمر هو السكوت . الجميع في مكانهم يتأهبون لدخول التماثيل ، هذا أمر .

ترا لا لا – كان يعوي ويضع يديه معاً امام فمه – ترا لا لا . ترا لا لا .

وسكت ، وعلمت ايفا ان التماثيل قد دخلت الغرفة . فجلس جامـــداً شاحباً باحتقار . وجمدت ايفا هي الاخرى وانتظر الاثنان بصمت . كان احد الأشخاص يمشي في الممر . انها ماري ، الخادمة ، ها هي تصل بلا شك . وفكرت في نفسها : « ينبغي أن اعطيها دراهم للغاز » . ومن ثم بدأت التماثيل تطير ، فتمر ما بين إيفا وبيار .

وقال بيار : « هان »، وتكور في كنبته مخبئاً ساقيه تحته . وحول رأسه. كان يهذر من وقت لآخر لكن نقاطاً من العرق تتلألأ على جبينه : لم تستطـع إيفا أن تحتمل هذا الخد الشاحب ، وهذا الفم الذي يشوهه تحريكه شذراً . وأغمضت عينيها . بدأت خيوط مذهبة تتراقص في قعر جفنيها . وأحست بأنها عجوز كبيرة الوزن . وعلى مسافة غير بعيدة ، كان بيار ينفخ بجلبـة . « انهم يطيرون ، يهدرون ، ينحنون فوقه ... » وشعرت بدغدغة خفيفـة، وبانزعاج في الكتف والخاصرة اليمنى . وبحركة غريزية انحنى جسمها نحـو اليسار كما لو انها تتجنب ملامسة مزعجة ، او كأنها تفسح المجال لشيء ثقيل أخرق . وفجأة قرقع السقف ، وأحست برغبة مجنونة لفتح عينيها ، والنظر الى يمينها وهي تكنس الهواء بيدها .

ولم تفعل شيئاً . بل أبقت على عينيها مغمضتين وارتعشت في سرور جاف . وفكرت في نفسها : « أنا ايضاً أخاف » . وانحنت نحو بيار ، بدون ان تفتح عينيها . إذ يكفيها مجهود بسيط حتى تدخل في هذا العالم الرهيب لأول مرة . وفكرت في نفسها : « أنا اخشى التماثيل » . كان تأكيداً عنيفاً

أعمى ، أو سحراً : أرادت بكل قواها ان تشعر بوجودهم . والقلق الذي يشل جهتها اليمنى ، حاولت ان تجعل منه نوعاً من اللمس . وفي ذراعها ، وفي خاصرتها، وفي كتفها ، شعرت بمرورهم .

كانت التماثيل تطير على علو ضئيل ، وتهدر . وإيفا تعلم أن تلك التماثيل خبيثة ولكنها أساءت تصورها . وتعلم أيضاً انها لم تكن حية تماماً ، بل ان قطعاً من اللحم والقشر تظهر على اجسامها الضخمة . وعلى طرف اناملها كان الحجر يتقشر ، وراحات ايديها تأكلها . لم تكن ايفا تستطيع ان ترى كل هذا : فهي تفكر فقط ان نساء شديدات الضخامة ينزلقن عليها بعين انسانية « ها هي التماثيل تنحني فوق بيار » وبذلت ايفا مجهوداً عنيفاً الى حد ان يديها أخذتا ترتعشان . « انها (التماثيل) تنحني فوقي » . وجمدها في النهاية صوت رهيب . « لقد لامسوه » . وفتحت عينيها : كان بيار يضع رأسه بين يديه ، وهو شديد الاعياء . وأحست ايفا بأنها منهكة ، وفكرت بندم : « انها لعبة . لم تكن سوى لعبة ، لم اؤمن بها ولو لحظة واحدة . كانت تتألم طيلة هذا الوقت ، كما لو انها صحيحة ».

وارتاح بيار وتنهد بقوة . ولكن حدقتيه ظلتا ممددتين بشكل غريب ، كان العرق يتصبب منه . وسأل :

— هل رأيتها ؟

— ليس بامكاني أن أراها .

فقال :

— هذا افضل بالنسبه اليك . أما انا فقد تعودت .

كانت يدا ايفا لا تزالان ترتجفان ، ودمها يتصاعد الى الرأس . وتناول بيار سيكارة من جيبه ورفعها الى فمه . لكنه لم يشعلها وقال :

— لا فرق عندي اذا رأيتها . ولكن لا اريد ان تلامسني : أخشى ان تنبت لي بثوراً .

وفكر لحظة ثم سأل :

ـ وهل سمعتها ؟

فقالت ايفا :

ـ نعم ، انهـــا كمحرك الطائرة (قالها لها بيار بنفس العبارة يوم الأحد الماضي) .

وابتسم بيار بنوع من التنازل وقال :

ـ انك تبالغين . لكنه ظل شاحب الوجه .وتطلع الى يدي إيفا : «يداك ترتجفان . لقد أثر هذا في نفسك يا أغاتا المسكينة . ولكن لا حـــاجة لك لافساد دمك : فلن تعود قبل الغد (التماثيل) » .

لم تكن تستطيع الكلام، انأسنانها تصطك وتخشى ان يلاحظ بياذلك . ونظر اليها بيار طويلاً . وقال وهو يومىء برأسه :

« انت جميلة بقوة ، يا للخسارة . يا للخسارة حقاً . »

ومد يده ولامس أذنها بسرعة .

ـ يا شيطانتي الجميلة ! انك تزعجينني قليلاً ، انت جميلة جداً : وهذا ما يسلبني . إذا لم يكن الأمر استعادة ...»

وتوقف ثم نظر الى إيفا بدهشة وقال بوجه غامض :

ـ ليس بهذه الكلمة ... ها قد أتت ... ها قد اتت . كانت عندي الكلمة الأخرى على رأس لساني ... وتلك ... حلت في مكانهـا . ونسيت ما كنت أقوله لك .

وفكر لحظة ثم هز رأسه وقال :

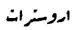
ـ هلمي ، أريد أن أنام ، وأجاب بصوت كصوت الطفل : « هل تعرفين يا أغاتا، أنا متعب . لم اعد اجد افكاري » .

ورمى سيكارته ونظر الى السجادة بوجه مضطرب.ووضعت ايضاًله مخدة تحت رأسه .

فقال لها وهو يغمض عينيه :

ـ بإمكانك ان تنامي أيضاً ، فلن تعود .

« استعادة ». كان بيار نائماً ، على وجهه نصف ابتسامة ساذجة . يحني رأسه : يقال انـــه يريد ان يجعل خده يلامس كتفه . لم تكن ايفا راغبة في النوم ، كانت تفكر : « استعادة » . واتخذ بيار فجأة شكلاً حيوانياً وسالت الكلمة خارج فمه طويلة مائلة للبيــاض . كان قد تطلع أمامه بدهشة كما لو انه يرى الكلمة ولا يتعرف عليها . فمه مفتوح رخو فكأن شيئاً قد تحطم فيه . « لقد دندن بسرعة . هي المرّة الأولى التي يحصل له فيها أمر كهذا وقد انتبه لذلك على كل حال . قـــال انه لم يعد يجد أفكاراً » . أرسل بيار زفرة شهوانية ، وقامت يده بحركة خفيفة . نظرت اليه إيفا بقساوة : « كيف سيستيقظ ؟ » كان هذا يعذبها . فما ان ينام بيار حتى تضطر للتفكير بــه ، وليس بامكانها ان تحول دون ذلك . انها تخشى ان يستيقظ بعينين مضطربتين وان يدندن . وفكرت في نفسها : « أنا بلهاء ، لن يبدأ الأمر قبل سنةهكذا قال فرانشو » . لكن القلق لم يغادرها ؛ عام ؛ فشتاء ، فربيع ، فصيففبداية خريف آخر . ذات يوم ، ستتشوه هذه الملامح ، سيتهدل فكه ، وسيفتح عينيه الدامعتين قليلاً . وانحنت ايفا على يد بيار ووضعت شفتيهـــا فوقها : « سأقتلك قبل ان يتم ذلك » .


اروسترات

البشر ينبغي ان نراهم من فوق . كنت اطفىء النور واجلس في النافذة : لم يكونوا ليشتبهوا بأن احداً ينظر اليهم من فوق . هم يعتنون أحياناً بالواجهة ، وبالجهات الخلفية ، ولكن جميع تأثراتهم كانت محسوبة بعين المشاهدين من قياس مئة وسبعين . فمن فكر اذا بشكل القبعة الصفراء ، كما تبدو من الطابق العاشر ؟ انهم يهملون الدفاع عن أكتافهم وجماجمهم تحت الألوان الفاقعة والأقمشة البارزة اللون ، ليس بامكانهم أن يقضوا على كل هذا العدد الكبير للانسانية : التطلع من فوق . وانحنيت واخذت اضحك : أين هي تلك « المحطة الواقفة » التي فخروا بها : كانوا ينسحقون على الرصيف وتخرج من بين أرجلهم سيقان طويلة ترحف تحت أكتافهم .

في شرفة الطابق السادس : هناك كان ينبغي أن أقضي كل حياتي . كما ينبغي أن نسند مجالات التفوق المعنوي بشعارات رمزية ، لأنها ستسقط بدون ذلك . اذاً ، ما هي بالضبط مجالات تفوقي على البشر ؟ تفوق في الوضعية ليس إلا :وضعت نفسيفوق الانسان ، الذي هو في داخلي وأصبحت اتفرج عليه . لهذا كنت احب ابراج نوتر دام ، وسطيحات برج إيفل ،والقلب الأقدس ، وطابقي السادس في شارع دلامبر . إنها رموز رائعة .

كان ينبغي في بعض الأحيان النزول الى الشوارع . للذهاب الى المكتب مثلاً . كنت اختنق . عندما نمضي مع البشر، فمن الصعب كثيراً ان نعتبرهم كالنمل : إنهم « مؤثرون » . مرة ، شاهدت شخصاً ميتاً في الشارع . سقط على أنفه . قلبوه ، فرأوا الدماء تنزف منه . ورأيت عينيه المفتوحتين ووجهه

الدميم ، وكل هذا الدم . وقلت في نفسي : « ليس هـذا بذي شأن ، فليس اكثر تأثيراً من الدهان الجديد . لطخوا أنفه بالأحمر ، هـذا كل شيء » . لكنني احسست بعذوبة قذرة تتسرب الى رجـلي ورقبتي ، فأغمي علي . اقتادوني الى صيدلية ، ووضعوا لزقات عـلى كتفي وسقوني كحولاً . كنت سأقتلهم . أعرف انهم أعدائي ، ولكنهم لا يعرفون ذلك . كانوا يحبون بعضهم ، ويشدون على مرافق بعضهم البعض . لعلهم ضربوني بقبضة يد من هنـا وهناك لأنهم ظنوا بأني شبيه لهم . غير انهم لو أدركوا أقل جزء من الحقيقة ، لقضوا عليّ . ولقد قضوا عليّ فيما بعد على كل حـال . عندما القوا القبض عليّ وعرفوا من أنا ، ضربوني لمدة ساعتين في دائرة الشرطة ، وصفعوني ولكموني ، وجعلوا ذراعي تلتوي ، وانتزعوا سروالي ، ومن ثم ولكي ينتهوا رموا بنظارتي على الأرض ، ولما هممت بتناولها على أربع ، أمعنوا بركلي من الخلف ضاحكين . توقعت دائماً انهم سينتهون الى القضاء عليّ : أنا لست قوياً وليس بامكاني ان أدافع عن نفسي . كثيرون كانوا يتربصون بي منذ وقت طويل : الكبار . يدفعونني في الشوارع ليضحكوا او ليروا ما سأقوم به ، لم أقل شيئاً . وتظاهرت بعدم الفهم . ومع ذلك نالوا مني . كنت أخشاهم : وهذا شعور مسبق . وكلكم تعتقدون تمام الاعتقاد ان لديّ اسبابـاً أخرى تدفعني الى أن اكرههم .

من هذه الجهة ، سار كل شيء على ما يرام بعد ان ان اشتريت مسدساً . يحس المرء بقوته عندما يحمل باستمرار شيئاً من تلـك الأشياء التي تنفجر أو تحدث ضجة . كنت آخذه يوم الاحد ، وأضعه في جيب سروالي ثم أذهب لاتنزه — عادة في الشوارع العريضة . فأحس به ينطلق من جيب سروالي كالسرطان ، وأشعر به يضغط على فخذي ، ببرود كلي . لكنه يسخن شيئاً فشيئاً باحتكاكه بجسدي . ومشيت بنوع من الجمود ، مشية الشخص الذي يشد سرواله دائماً . ومددت يدي الى جيبي وتحسست « الغرض » . كنت ادخل من وقت لآخر الى المرحاض — وحتى في المرحاض كنت اتنبه فغالبـاً

ما يكون بجواري أحد من الناس. كنت اخرج مسدسي وأروزه، واتطلع الى قبضته ذات المربعات السوداء وزناده الأسود الذي يشبه جفناً شبه مغمض. والآخرون، أولئك الذين يرون من الخارج، رجلي المتباعدتين وقعر سروالي، كانوا يظنون اني ابول. ولكنني لا ابول ابداً في المراحيض العامة.

ذات مساء اتتني فكرة اطلاق النار على البشر. كان ذلك في يوم السبت مساء، خرجت لكي ابحث عن ليا، وهي شقراء تداوم على الوقوف أمام احد الفنادق في مونبارناس. لم اكن قد اقمت علاقـــات وثيقة بامرأة قط: فأحسست بأنني سُرقت. صحيح أننـا نعتليهن، ولكنهن يفترسن أسفل بطنك بفمهم الواسع المكسو بالشعر، فهن اذاً على ما سمعت، اللائي يربحن من هذه المبادلة. انا لا اطلب شيئاً الى أي انسان، غير اني لا أريد ان اعطي شيئاً. أو انه ينبغي أن تكون لي امرأة باردة تقية تتقبلني باشمئزاز. في اول سبت من كل شهر كنت اصعد مع ليا الى غرفة في فندق دوكان. كانت تخلع ثيابها، فأنظر اليها بدون ان ألامسها. في بعض الاحيـان كنت ابلغ ذروة اللذة في سروالي، واحياناً اخرى كان لدي الوقت الكافي للعودة الى منزلي حتى انتهي. هذا المساء، لم أجدها في مكتبها. وانتظرت لحظة، ولما لم تأت، افترضت انها مصابة بالزكام. كان الوقت في بداية كانون الثاني والطقس شديد البرودة، حزنت كثيراً: فأنا خياليّ، وتمثلت اللذة التي توقعت ان اجتلبها في تلك الأمسية. في شارع أوديسا تقف احدى السمراوات، وكنت قد لاحظت وجودهـا في اكثر الأحيان، انها شديدة النضوج، لكنها صلبة وثمينة. أنا لا أكره النساء الناضجات: لكنهن عاريات، او انهم يبدين كذلك فوق اللزوم. غير انهـا لم تكن تدري شيئاً عني، وهذا ما كان يجعلني أخجل منهـا. ثم اني احذر المعلومات الجديدة: اذ ان بامكان أولئك النسوة ان يخبئن لصاً وراء الباب، لا يلبث ان يستولي على دراهمك. هذا اذا لم يرسل لك اللكمات. غير ان شيئاً ما كان يأخذني في تلك الامسيـة فقررت ان امر بمنزلي لاخذ المسدس وأقوم بالمغامرة.

لما دخلت على المرأة ، وبعدها بربــع ساعة ، كان مسدسي لا يزال في جيبي ، ولم أخش شيئاً. والناظر اليها من قريب يدرك انها اقرب الى البؤس. انها تشبه جارتي في البيت المقابل ، اي زوجة نائب الضابط ، سررت لذلك لأني تمنيت منذ وقت طويل ان اراها عارية . كانت ترتدي ثيابها والنافذة مفتوحة في غياب نائب الضابط ، وكنت ابقى وراء الستار كي اباغتها. لكنها تقوم بزينتها في قعر الغرفة .

في فندق ستيلا لم يبق سوى غرفة فارغة . وصعدنا . كانت الامرأة ثقيلة تتوقف عند كل درجة ، لتتنفس. وكنت مرتاحاً جداً : لأن جسمي جاف رغم بطني الدافق ، إذ يلزمني أربعة طوابق لأتعب كثيراً .على درج الطابق الرابــع توقفت ووضعت يدها اليمنى على قلبها وتنهدت بقوة . بيدها اليسرى كانت تحمل مفتاح غرفتها . وقالت محاولة ان تبتسم لي : « المكان شاهق». اخذت المفتاح من يدها بدون ان اجيب وفتحت الباب . كنت احمــل مسدسي بيسراي ، مصوباً الى الأمام في جيبي، ولم اتركه الا بعد ان اضأت النور .الغرفة خاوية. وعلى المغسلة وضعوا مربعاً صغيراً من الصابون الأخضر . وابتسمت : لم تكن قطعة الصابون مفيدة بالنسبة الي .لا تزال المرأة تلهث ورائي وهذا ما يهيجني . واستدرت ، فمدت لي شفتيها . فدفعتها عني وقلت لها :

— اخلعي ثيابك .

كانت هناك كنبة عليها طنافس فجلست عليها مرتاحاً.

في مثل تلك الأحوال لا اقدم على التدخين . وخلعت الامرأة فستانها ثم توقفت وهي تنظر اليّ نظرة حذرة .

وسألتها وانا ارتمي الى الوراء :

ـ ما اسمك ؟

ـ رينيه .

ـ حسناً ، عجلي يا رينه ، اني انتظر

ــ ألا تتعرى ؟

فقلت لها :

ــ اذهبي ، اذهبي ، لا تهتمي بي .

وانزلت سروالها حتى رجليها ثم التقطته ووضعته بعناية فوق فستانها الى جانب صدريتها .

وسألتني :

ــ انك مذنب صغير ، يا عزيزي ، وكسول صغير . هل تريد ان تقوم امرأتك الصغيرة بالعمل كله ؟

وفي نفس الوقت ، اقتربت مني خطوة ، وحاولت ، وهي تسند يديها على جانبي الكنبة ، ان تركع بين فخذي . غير اني رفعتها بقساوة . وقلت :

ــ لا اريد شيئاً من هذا ، لا اريد شيئاً من هذا .

فنظرت اليّ بدهشة :

ــ ماذا تريد ان أفعل لك ؟

ــ لا شيء ، أمشي ، تنقلي ، لا أطلب منك اكثر من ذلك .

وبدأت تسير عرضاً وطولاً ، بوجه العاجز . لا شيء يزعج النساء قدر مسيرهن عاريات . فلم يألفن إهمال الكعب العالي . وقوست البغي ظهرها وجعلت ذراعيها يتهدلان . أما أنا ، فكنت مع الملائكة : أجلس بهدوء ، مرتدياً ملابسي حتى العنق ، ولا أزال واضعاً قفازي ، بينما راحت تلك المرأة الناضجة تدور قبالتي ، عارية .

وأدارت رأسها نحوي ، وابتسمت لي بغنج لانقاذ المظاهر .

ــ هل تجدني جميلة ؟ هل تفرك عينك ؟

ــ لا تهتمي بهذا .

فسألتني بغضب مباغت :

– قل ، أتريد ان تجعلني أمشي كثيراً هكذا ؟
– اجلسي .

جلست على السرير ، وبدأنا نتبادل النظر بصمت . أقشعر بدنها . وسمعنا صوت الساعة الكبيرة من جانب الجدار الآخر ، وفجأة قلت لها :

– باعدي بين فخذيك .

فترددت لربع ثانية ثم انصاعت .فنظرت بين فخذيها وشخرت . ثم بدأت أضحك بقوة حتى سالت الدموع من عيني . وقلت لها ببساطة :

– هل لاحظت ؟
وتابعت الضحك .
فنظرت الي مشدوهة ثم احمرت كثيراً وضمت فخذيها .
وقالت من بين اسنانها :
– يا للقذر .

لكنني استرسلت بالضحك ، عندها قفزت وراحت تأخذ صدريتها عن الكرسي .

فقلت لها :
– هه ، لم أنته بعد . سأنقدك خمسين فرنكاً في الحال ، لكني أريد مقابل دراهمي .

وتناولت سروالها بعصبية .

– ضقت ذرعاً ، هل تفهم . لا أعرف ماذا تريد . واذا كنت جعلتني أصعد لتهزأ مني ...

عندها أخرجت مسدسي وأبديته لها .

فتطلعت الي بوجه رصين وأنزلت سروالها بدون أن تنبس بشفة .

فقلت لها :

– إمشي ، تنقلي .

وتمشت خمس دقائق . ثم اعطيتها عصاي وجعلتها تقوم بالتمرين . ولما شعرت بأن سروالي تبلل ، نهضت وناولتها ورقة الخمسين فرنكا .فأخذتها.

وأضفت :

– الى اللقاء ، عساي لم أتعبك مقابل هذا الثمن .

وذهبت ،وتركتها عارية وسط الغرفة ، صدريتها بيد ، وورقة الخمسين فرنكاً في اليد الأخرى .لم آسف على دراهمي :لقد افزعتها وهذا ليس عجيباً انها بغي . وفكرت وأنا انزل الدرج :

– هذا كل ما أردته ، ان أدهشهم جميعاً . كنتجذلاً كالطفل . وحملت الصابون وعدت الى بيتي وفركته كثيراً تحت الماء الساخن حتى تحول الى قطعة رقيقةبين أصابعي تشبه حبة الملبس بالنعناع إذا وضعت في الفم وقتاً طويلاً .

ولكن في الليل ، استيقظت مذعوراً ، ورأيت عينيها ، تينك النظرتين اللتين رسمتها لما شهرت سلاحي ، وكذلك بطنها السمين الذي كان يقفز عند كل خطوة .

وقلت في نفسي : « كم كنت متوحشاً » . وأحسست بندم أليم : كان علي أن اطلق النار عندئذ ، أن أبقر هذا البطن . في تلك الليلة ، ولثلاث ليالمتتابعة حلمت بستة ثقوب حمراء بشكل دائرة .

بعد ذلك لم أعد اخرج بدون مسدسي . كنت انظر الى ظهور الناس وأتصور كيف سيسقطون فيما لو اطلقت النار . يوم الأحد ، تعودت على الذهاب الى أمام الشاتليه ، عند انتهاء حفلات الموسيقى الكلاسيكية . وفي الساعة السادسة ، كنت اسمع رنين جرس فتأتي الحاجبات لاقفال الأبواب المزججة باحكام . إنها البداية : الجمهور يخرج على مهل ، والناس يسيرون

بخطى متهدجة ، أعينهم لا تزال الاحلام تغمرها ، وقلوبهم مفعمة بالعواطف.
كثيرون منهم كانوا يتطلعون حولهم بوجه مدهوش . لقد بدا لهم الشارع كلي الزرقة . عندها ، كانوا يبتسمون بغرابة : إذ ينتقلون من عالم الى آخر . وفي العالم الآخر كنت أنا بانتظارهم . وضعت يدي اليمنى في جيبي وضغطت بكل قواي على قبضة مسدسي . وما هي إلا هنيهة ، حتى رأيتني اطلق النـــار فوق رؤوسهم . جندلتهم كمجموعة من الغلايين ، فأخذوا يتساقطون بعضهم فوق بعض ، والذين ظـــلوا على قيد الحياة استبد بهم الذعر ، ففروا الى المسرح يحطمون الزجاج والأبواب . كانت لعبة شديدة الازعاج : فيـــداي كانتا ترتجفان ، كما ألفيتني مرغماً على احتساء الكونياك عند دراهير لأعـــود الى صوابي .

النساء لم اقتلهن . بل اطلقت النار على كلياتهن وفي مؤخراتهن لأدفعهن الى الرقص . .

لم أكن قد صممت على شيء ولكنني ارتأيت أن افعل كل شيء ، كما لو أن قراري توقف .وذهبت لأتمرن في معرض (دانفر روشرو). كانت الأهداف واسعة . واخيراً ، بت اهتم بدعايتي . اخترت يوماً كان فيه جميع أقراني مجتمعين في المكتب . صباح يوم اثنين . كنت لطيفاً جداً معهم ، رغم اني أجد رهبة في مصافحتهم.

كانوا ينزعون قفازاتهم ليصافحوا النـــاس ، ولهم طريقة خـــاصة في تعرية أيديهم . أما أنا فكنت احتفظ بقفازي .

صباح الاثنين ، ليس هناك من شيء مهم يجب عمله . فقد أتت الضاربة على الآلة الكاتبة بالأوراق . ومازحها لومارسييه بلطف ومـــا إن خرجت حتى تحدثوا عن صفاتها بلباقة . ثم تحدثوا عن لندبرغ . كان يحبون لندبرغ كثيراً . فقلت لهم :

— أنا أحب الأبطال السود .

فسأل ماسيه :

– الزنوج ؟

– كلا . الزنوج ، كما يقـال السحر الأسود . ولندبرغ هو بطل أبيض . فهو لا يهمني .

وقال بوكسان بخشونة :

– اذهبوا وانظروا إذا كان عبور الأطلسي ممكناً .

وعرضت لهم مفهومي عن البطل الأسود .

وقال لومارسييه مختصراً :

– انه فوضوي .

فقلت بهدوء :

– كلا ، ان الفوضويين يحبون الرجال على طريقتهم الخاصة .

– اذاً فهو مجنون .

ولكن ماسيه الذي كانت بين يديه رسائل ، تدخل في تلك اللحظة وقال لي :

– اني اعرفه صاحبك ، واسمه اروسترات . كان يريد ان يصبح عظيماً ولم يجد شيئاً أفضل من احراق هيكل إيفاز ، احدى عجائب الدنيا السبع .

– وما كان اسم مهندس الهيكل ؟

فاعترف قائلا :

– لم أعد اتذكر ، بل اعتقد بأن لا أحد يعرف اسمه .

– حقاً ؟ وتتذكر اسم اروسترات ؟ هل ترى انه لم يجر حساباً خاطئاً .

وانتهت المحادثة عند هذه الكلمات ، لكنني كنت مطمئناً ، فسيذكرونها في اللحظة المناسبة . أما بالنسبة لي ، ولم أكن حتى ذلـك الحين ، قد سمعت بإروسترات ، فشجعتني تلك الحادثة . هـــا قد مضى ألفا سنة على وفاته ،

وفعلته لا تزال تشع ، كالماسة السوداء . وبدأت اعتقد بأن مصيري سيكون قصيراً مؤلماً . وهذا ما جعلني أخاف في البداية ، ثم ألفت ذلك . فاذا اعتبر هذا الأمر من زاوية معينة ، فهو شديد العنف ، لكنه ، من جهة ثانية ، يعطي قوة وجمالاً لا يستهان بها . وعندما نزلت الى الشارع ، احسست ان في جسمي قوة غريبة . كنت احمل مسدسي ، ذلك الشيء الذي ينفجر ويحدث ضجيجاً . لكنني لم أعد آخذ ضمانتي منه، بل من نفسي! فأنا كائن من نوع المسدسات والمفرقعات والقنابل . ذات يوم وفي نهاية حياتي القاتمة ، سأنفجر واضيء العالم بلهيب ساطع قصير ، كبريق المانيزيوم . وحدث لي في نفس الحقبة ان رأيت نفس الحلم في عدة ليال . كنت فوضوياً ، وألقيت بنفسي في طريق القيصر وحملت معي آلة خبيثة . وفي الساعة المحددة ، مر الموكب وانفجرت القنبلة وقفزنا في الهواء ، أنا والقيصر والضباط الثلاثة الموشون بالذهب ، تحت أعين الجمهور .

بقيت أسابيع كاملة أداوم في المكتب . كنت اتنزه في الشوارع الكبيرة ، وسط ضحاياي في المستقبل، أو كنت انعزل في غرفتي وأعد الخطط . طردوني في بداية تشرين الأول . فملأت فراغي إذ سجلت الرسالة الآتية ، وجعلتها في مئة ونسختين :

ايها السيد

أنت شهير ، تطبع مؤلفاتك على ثلاثين ألف نسخة . سأقول لك لماذا : لأنك تحب البشر . انك تتفتح عندما تكون بصحبة احد : الانسانية تجري في دمك. فما أن ترى واحداً من أشباهك وحتى بدون أن تعرفه تشعر بعطف نحوه . وأنت تميل لمشاهدة جسمه ، من أجل الشكل الذي يتحرك فيه ،ومن أجل رجليه اللتين تنفرجان وتنضمان تبعاً لارادته ، ولا سيما ليديه : اذ يعجبك ان يكون له خمس أصابع ، وان يستطيع مقابلة الابهام بسائر اصابعه . تسر كثيراً عندما يتناول جارك كأساً عن الطاولة ، لأن هناك

طريقة وصفتها لي أكثر الأحيان في مؤلفاتك ، وهي أقل مرونة وسرعة من طريقة القرد . ولكن أليس انها اكثر ذكاء ؟ انت تحب ايضاً لحم الانسان، وهيئته في مشيته ، ونظرته التي لا تستطيع الوحوش احتمالها . يسهل عليك اذاً ان تجد اللهجة الملائمة لتحدث الانسان عن نفسه : لهجة محتشمة لكنها مشتتة . ويرتمي الناس على كتبك بنهم، يقرأونها على مقاعد وثيرة ،ويفكرون بالحب التعيس والخفي الذي تخبئه لهم ، وهذا ما يعزيهم عن البشاعة والجبن أو عدم تلقي زيادة في أول كانون الثاني . ويقولون مختارين عن روايتك الاخيرة: انها عمل جيد .

كما افترض بأنه يهمك ان تعرف ما يمكن ان يكون الانسان الذي لا يحب البشر . إنه انا ، أحبهم حباً ضئيلاً جداً حتى انني اريد ان اقتل منهم نصف دزينة فقط ؟ لأن في مسدسي ست رصاصات فقط . انه لعمل اجرامي أليس كذلك ؟ وهو بالأخص عمل غير سياسي اطلاقاً؟ ولكنني أقول لك ان ليس بامكاني أن احبهم . انا أفهم تماماً ما تشعر به . لكن ما يجذبك اليهم يثير اشمئزازي رأيت مثلك البشر يمضغون العلكة بمقدار ،محافظين على نظرتهم الوقحة ، وهم يقلبون باليد اليسرى مجلة اقتصادية . هل هي غلطتي اذا كنت افضل حضور وليمة الحيوانات القطبية ؟ ليس بامكان الانسان ان يفعل شيئاً لوجهه بدون ان يتحول هذا الى تلاعب في ملامحه . وعندما يمضغ وهو مطبق فمه ، فترتفع زوايا فمه وتنخفض، يبدو أنه يريد الانتقال بلا تأخر من الصفاء الى المفاجأة المبكية . انت تحب هذا ، وأنا اعرف ذلك،فأنت تسميه نباهة الروح . لكن هذا يقتلني . ولا أدري لماذا خلقت هكذا .

فإذا لم يكن بيننا سوى فارق في الذوق ، فلن أتعبك . لكن كل شيء يجري كما لو ان لك الرحمة ،وأنا لا ألوي على شيء . انا حر في ان أحب الطبق الأميركي أو ألا أحبه ،ولكنني لا احب البشر ، أنا بائس وليس بامكاني ان اجد مكاناً تحت الشمس . لقد ارهقوا معنى الحياة . آمل ان تفهم ما اريد

ان أقوله . ها قد مرت ثلاثون سنة وانا اصطدم بابواب مغلقة كتب فوقها : « لا يدخل أحد ما لم يكن انساني النزعة ». وكل ما فعلته هو انني هجرت المكان . كان ينبغي ان اختار : إما انها كانت محاولة مجنونة ، أو انها ينبغي ان تنقلب لمصلحتهم . والأفكار التي لم أكرسها لهم، ليس بامكاني ان انتزعها من نفسي ، وأن أصوغها : فستظل فيّ كحركات عضوية خفيفة . والأدوات التي كنت استعملها ، أحس بأنهـــا لهم . الكلمات مثلاً : وددت لو ان لي كلمات . لكن هذه الكلمات التي استعملهـــا ، لا أدري عبر أي من العقول انتقلت . فهي تترتب في رأسي من تلقاء ذاتها بفضل عادات اكتسبتهـــا عند الآخرين ، وليس استعمالي لها خلواً من الاشمئزاز . لكنني أقول لك، ولآخر مرة : يجب ان تحب البشر. او اذا ما كانوا يسمحونَ لك بعمل اية صنعة، فأنا لا اريد ان اقوم بأية صنعة. سأتناول مسدسي في الحال ، سأنزل الى الشارع وسأرى اذا كان بامكانهم ان يفعلوا شيئاً ضدهم . وداعاً يا سيدي قد تكون انت الذي سأصادفك . لن تعرف عندئذ بأي سرور سأطيّر دماغك . والا — وهذا مرجح - فاقرأ صحف الغد . فسترى ان شخصاً يدعى بول هلبير صرع في سورة غضبه خمسة من المارةفي جادة ادغار كينيه .وانت تعرف أفضل من اي شخص آخر ما قيمة النثرالذيتكتبهالصحف اليومية الكبرى.ستعرف عندئذ بأني لم اكن في « سورة غضب » . بل انا هادىء ، وارجوك ان تقبل يا سيدي افضل عواطفي .

« بول هربير » .

وضعت الرسائل في مئة ومظروفين ، وكتبت على المظروفات عنوان مئة واثنين من الكتاب الفرنسيين . ثم وضعت الكل في درج الطاولة مع ثمانية دفاتر من ورق البول .

طيلة الأيام الخمسة عشر التالية ، نادراً ما كنت اغادر البيت ، اذ كنت أتلهى بجريمتي . وفي المرآة التي اتطلع من خلالها الى نفسي ، لاحظت بسرور

التعديل الذي طرأ على وجهي ، لقد اتسعت عيناي ، حتى كادتا تقضيان على معظم وجهي ، بسوادهما الرقيق البادي من تحت النظارة ، كنت أديرهما كالكواكب . غير اني رغبت في التبدل كثيراً بعـــد المجزرة . رأيت صورة تينك الفتاتين الجميلتين ، صورة الخادمتين اللتين قتلتـــا مخدوميهما . رأيت صورهما من قبل ومن بعد . من قبل ، كان وجهاهما يتأرجحان كالزهور العاقلة فوق العنق ، كما كانتا ترفلان بالصحة والشرف . لست أدري اية آلة جعدت شعريهما . وكانتا لشدة الشبه بينهما تبدوان كالاختين عند المصور ، الأمر الذي يضع صلات الدم والجذور الطبيعية والعائلية في المـــكان الاول . ومن بعد ، كان وجهاهما يشتعـــلان كالحريق . وتعرت عنقاهما وكأنهما سائرتان الى الشنق ، وغزتهما التجاعيد ، تجاعيد مخيفة من الرهبة والكراهية ؛ تجاعيد ، وثقوب في اللحم كما لو أن وحشاً من الوحوش قد دار بأظافره فوق وجهيهما . وهاتان العينان ، هاتان العينان الواسعتان السوداوان اللتان لا قرار لهما – هما كعيني . على انهما لم تعودا تتشابهان . إذ باتت كل منهما تحمل ذكرى الجريمة على طريقتها الخاصة . وقلت في نفسي : « إذا كانت الجريمة الـــتي ارتكبت بالصدفة من شأنها ان تشوه الوجه هكذا ، فكيف لجريمة عن سابق تصـــور وتصميم قمت بها ؟ » ستستولي عليّ ، وتشوه دمامتي الانسانية... الجريمة تقطع حياة مرتكبها الى شطرين . تمر لحظات نتمنى فيها العودة الى الوراء فـــاذا بالجريمة تقف في الطريق تسده . لم اكن اطلب سوى ساعـــة واحدة لأعيش جريمتي ، وأحسّ بعبئها القاتل . في هذه الساعة ، سأرتب كل شيء لأخذها لنفسي : قررت أن اقوم بالتنفيذ في شارع أوديسا . سأفيد من الجنون لأفرّ تاركاً إياهم ورائي يجمعون الأموات . سأركض ، سأعبر جادة إدغار – كينيه وأدور سريعاً في شارع دولامبر . لن احتاج لأكثر من ثلاثين ثانية كي أبلـغ باب البناية التي اسكن فيها ، وفي هذه اللحظة ، يكون من يطاردني لا يزال في جادة إدغار كينيه ، فيضيعون أثري ، إذ تلزمهم ساعـــة على الأقل حتى يجدوه . سأنتظرهم في بيتي ، وعندما أسمعهم يطرقون الباب ، سأحشو مسدسي .

واطلق النار في فمي .

كانت حياتي أوسع مما هي عليه . تفاهمت مع صاحب مطعم في شارع فافان كان يأتي لي بأطباق جميلة كل صباح ومساء . ويطرق العميل البـــاب، فلا أفتح له ، بل انتظر عدة دقائق ثم افتح الباب لأرى في سلة كبيرة على الارض، صحوناً ملأى يتصاعد منها الدخان.

في ٢٧ تشرين الأول ، وفي السادسة مساء ، كان قد بقي معي سبعة عشر فرنكاً ونصف . فأخذت مسدسي ورزمة الرسائل ، ونزلت . تعمدت عدم اقفال الباب ، كي اتمكن من العودة بسرعة بعد ان أقوم بضربتي .

لم اكن على أحسن حال ، إذ ان يدي باردتان والدم صعد الى رأسي ، وكنت بحاجة لأفرك عيني . نظرت الى المخازن. الى فندق المدارس، والى دكان الورق حيث اشتري اقلام الرصاص فلم أعرفها . وقلت في نفسي : « مـــا هذا الشارع ! » كانت جادة مونبارناس تعجّ بالبشر ؛ يدفعونني الى الأمام والوراء ، ويلطمونني بمرافقهم أو بأكتافهم . كنت اتهادى ذات اليمين وذات اليسار ، إذ لم تكن لديّ قوة الانزلاق بينهم . رأيتني فجأة وسط ذلـــك الجمهور ، شديد الوحشة والصغر .كم كان بامكانهم ان يؤذوني لو شاؤوا ! كنت خائفاً بسبب السلاح الذي في جيبي . فقد تهيأ لي انهم سيكتشفون مكانـه . سيتطلعون اليّ بأعينهم القاسية وسيقولون : « ولكن ... ولكن ... » بغضب يصحبه الفرح ، وهم يدوسون عليّ بأرجلهم البشرية . مـا ان يقضوا عليّ كلياً ، حتى يلقوا بي من فوق رؤوسهم، فأقع فوق أيديهم كاللعبة الصغيرة فارتأيت تأجيل مشروعي حتى الغد . وذهبت لأتنــاول العشاء في الكوبول بستة عشر فرنكاً وثمانين . كان قد بقي لي سبعون سنتيماً ألقيت بهـــا في الساقية .

بقيت ثلاثة أيام في غرفتي ، بدون طعام أو نوم . واغلقت المنافذ ولم أعد أجرؤ على الاقتراب من النافذة او على إضاءة المصباح . يوم الاثنين طرق

بابي أحدهم . فهدأت من روعي وانتظرت. وما هي سوى دقيقة حتى عادوا الى رن الجرس . رحت على رؤوس اصابعي لأنظر من ثقب الباب ، فلم أر سوى قطعة قماش أسود وزر . رن الشخص الجرس ثانية ثم نزل . ولا أدري من هو . في الليل ، رأيت احلاماً عذبة وسعفاً ، ودماً جارياً ، وسماء بنفسجية فوق قبة . لم أكن ظمئاً لاني كنت أشرب ساعة بعد ساعة من حنفية المغسلة لكنني كنت جائعاً . ورأيت البغيّ السمراء مرة ثانية . كان ذلك في قصر بنيته فوق الهضبة السوداء على بعد عشرين ميلاً من كل قرية . كانت السمراء عادية ، ووحيدة معي . أرغمتها على الركوع بقوة مسدسي ، وعلى الركض على أربع . ثم ربطتها بعمود ، وبعد ان شرحت لها مطوّلاً ما سأقوم به ، أمطرتها وابلاً من الرصاص. أثّرت فيّ هذه الصور فاكتفيت بها . وبعدها ، بقيت جامداً في الظلام ، فارغ الرأس تماماً . بدأت قطع الأثاث تقرقع . كانت الساعة تشير الى الخامسة صباحاً . كنت أعطي أي شيء مقابل الخروج من غرفتي ، ولكن لم يكن بوسعي ان أنزل بسبب الناس الذين يسيرون في الشارع .

وجاء النهار . لم أعد احس بالجوع ، بل ان العرق صار يتصبب مني : فتبلل قميصي . في الخارج ، كانت الشمس . عندها فكرت : « في الغرفة المقفلة ، في الظلام يختبىء . فمنذ ثلاثة ايام لم يذق الطعام او النوم ، دق بابه ولم يفتح . والآن ، سينزل الى الشارع وسيقتل » . كنت اخيف نفسي . في السادسة مساء عاودني الجوع . كنت غاضباً حتى الجنون . تعثرت لحظة في الغرف ، ثم اضأت الكهرباء في الغرف والمطبخ والمراحيض . وبدأت أغني بأعلى صوتي ، وغسلت يدي وخرجت . كان يلزمني دقيقتان لأضع جميع رسائلي في علبة البريد . كنت أرميها عشرة فعشرة . فجعّدت بعض المظروفات .

ثم سرت في جادة المونبارناس وحتى شارع أوديسا . وتوقفت أمام

المرآة في احدى محلات بيع القمصان ، ولما لمحت وجهي فيهـا فكرت في نفسي : « هذا من أجل المساء » .

تمركزت في أعلى شارع أوديسا ، ليس بعيداً عن قناة الغاز ، وانتظرت . ومرت امرأتان . كل منها تمسك بذراع الأخرى ، وتقول الشقراء :

– لقد وضعوا السجادات في كل النوافذ ، وكان نبلاء البـلاد هم الذين يقومون بالتصوير .

فسألت الأخرى :

– هل هم مفلسون ؟

– ليس ضروريا أن يكون المرء مفلساً حتى يقبل بعمل يدر عليه خمس ليرات ذهبية في اليوم .

فقالت السمراء مبهورة :

– خمس ليرات !

وأضافت وهي تمر من أمامي :

– ثم أتصور انهم يتسلون بارتداء ثياب أجدادهم .

وابتعدت الامرأتان . كنت أشعر بالبرد لكن العرق يتصبب مني بغزارة . وما هي إلا لحظة ، حتى أتى ثلاثة رجال ، فتركتهم يعبرون : إذ كان يلزمني ستة . ونظر الي من كان على اليسار وقرقـع بلسانه . فحولت نظري عنه .

في السابعة وخمس دقائق ، دخلت امرأتان تتبع واحدتها الاخرى جادة ادغار كينيه . كان رجل وامرأة بصحبة ولدين في احدى الفرقتين . ووراءهم تأتي ثلاث عجائز . خطوت خطوة الى الأمام . كانت المرأة غاضبة تهز الصبي بذراعه . ويقول الرجل بصوت متهدج :

– انه لا يطاق ، هذا الولد .

كان قلبي يخفق بقوة بما سبب لي ألمـــاً في ذراعي . وتقدمت ووقفت قبالتهم ، لا حراك بي . واصابعي في جيبي ، كانت رخـــوة حول الزناد . وقال الرجل اذ دفعني :

« عفواً ».

تذكرت انني اغلقت باب غرفتي وهذا ما جعلني متناقضاً : اذ يلزمني وقت ثمين لفتحه . وابتعد الاشخاص . فهجمت عليهم اتبعهم بصورة آلية . لكنني لم أعد ارغب في اطلاق النار عليهم . لقد ضاعوا في زحمة الجمهور في الشارع . اما انا ، فاستندت الى الجدار . فسمعت الساعة الثامنة تدق ومن ثم التاسعة . وكررت قائلاً في نفسي :

« لمـاذا ينبغي قتل هؤلاء الأشخاص الموتى » واعترتني رغبة بالضحك . فجاء كلب وشم قدمي .

ولما تجاوزني الرجل السمين ، أرتعدت . كنت أرى تجاعيد عنقه الحمراء . كان يروح ذات اليمين وذات اليسار ويتنفس بقوة ، فهو يبدو قوياً . اخرجت مسدسي ؛ كان لماعاً بارداً ، يثير اشمئزازي ، لم اتذكر تماماً ما كان يجب ان افعل به . فتارة مـا كنت انظر اليه ، وطوراً الى عنقـــه . تجاعيد عنقه كانت تضحك لي ، كفم باسم مرير . وتساءلت في نفسي اذا كنت سأهم بالقاء مسدسي في احد المجارير .

فجأة اتجه الرجل نحوي ونظر اليّ بحنق . فتراجعت خطوة الى الوراء .

« ذلك كي ... اسألك ... »

لم يبد عليه انه يريد الاستماع . كان ينظر الى يديّ . وانتهيت بصعوبة :

– هل بامكانك ان ترشدني الى شارع « السرور » ؟

كان وجهه ضخماً، وشفتاه ترتجفان . لم يقل شيئاً بل مدّ يده . فتراجعت أكثر وقلت له :

– أريد ..

في تلك اللحظة عرفت اني سأبدأ بالصياح . ولما لم أرغب في ذلك، افرغت له ثلاث رصاصات في بطنه . فسقط بهيئة مضحكة على ركبتيه ، وتدحرج رأسه على كتفه اليسرى . وقلت له :

— يا للقذر ، يا للقذر اللعين !

وهربت . وسمعته يسعل . وسمعت أيضاً صياحاً ووقع خطى تتبعني . وسأل أحدهم : « ما هذا ، انهما يقتتلان ؟ ثم صاحوا بعد ذلك : « الى القاتل ! الى القاتل ! » لم أفكر بأن هذه الأصوات تتعلق بي . لكنها بدت مشؤومة ، كصفارة رجال الاطفاء كما كنت اسمعهـا في طفولتي . مشؤومة ومضحكة نوعاً . وركضت بكل ما أوتيت ساقاي من قوة .

إلا اني ارتكبت خطيئة لا تغتفر : فبدلاً من ان اصعد نحو جادة ادغار كينيه ، نزلت نحو جادة المونبارناس . وعندما ادركت ذلك ، كان الوقت متأخراً : كنت وقتئذ في وسط الجمهور ، تتجـه نحوي الوجوه المدهوشة ، (اتذكر من بين تلك الوجوه وجه امرأة شديدة التبرج تعتمر قبعة خضراء) وأسمع أصوات السخفاء في شارع أوديسا يصيحون : الى القاتل وراء ظهري . وأحسست بيد تمتد الى كتفي ، عندما اضعت رشدي: لم أكن أريد ان أموت خنقاً على يد هذا الجمهور . اطلقت أيضاً عيـارين ناريين . فبدأ الأشخاص يهربون ويتفرقون . فدخلت راكضاً الى احد المقاهي . فوقف المستهلكون عند مروري ولكنهم لم يحاولوا إيقافي ، وعبرت المقهى بطوله واعتصمت في المغاسل . بقيت رصاصة واحدة في مسدسي .

ومرت لحظة . كنت منهوك القوى ، لاهثاً . كل شيء صامت صمتـاً عجيباً ، كما لو أن الناس تعمدوا السكوت . ورفعت سلاحي حتى عيـنيّ ورأيت ثقبه الاسود المستدير : ستنطلق الرصاصة من هنا : وسيحرق البارود وجهي . أرخيت ذراعي وانتظرت . ما هي إلا لحظة حتى وصلوا بخطى الذئاب ، لا بد وأن يكونوا قطيعاً كاملاً ، على ما يتبادر الى الذهن من وقـع

خطاهم . وتمتموا لحظة ثم سكتوا . أما انا فكنت لا أزال ألهث وفكرت بأنهم سيسمعونني وأنا ألهث، من جهة الحاجز الاخرى. اقترب احدهم بهدوء وشد على قبضة الباب . لعله أسند ظهره للجدار جانبياً ليتقي رصاصـــاتي . ورغبت مع ذلك في اطلاق النار — لكن الرصاصة الاخـــيرة كانت لي . وسألت في نفسي : « ماذا ينتظرون ؟ » فاذا انقضوا على البـــاب وخلعوه « حالاً فلن يتركوا لي الوقت الـكافي لقتل نفسي ، فيقبضون علي حياً » . لكنهم لم يستعجلوا ، فقد تركوا لي فرصـــة كي اموت . القذرون ، كانوا خائفـــين .

وما هي إلا لحظة حتى ارتفع صوت « هيا افتح فلن نؤذيك » . وما هي الا لحظة صمت حتى تابــع الصوت : « انت تعرف انه ليس بامكانك الفرار».

لم أجب ولكنني كنت لا أزال ألهث . وحتى اتشجــع على اطلاق النار، قلت في نفسي : « اذا قبضوا علي فيضربونني، سيحطمون أسناني ، سيفقأون احدى عيني » . وودت أن أعرف اذا كان الرجل السمين قد مات . لعــلي جرحته فقط ... والرصاصتان التاليتان لعلهما لم تصيبا أحداً ... كانوا يعدون أمراً ما ، فهم يجرون شيئاً ثقيلاً على الارض .

أسرعت بوضع فوهة مسدسي في فمي وعضضت عليها بقوة . غير اني لم استطع اطلاق النار ، ولا حتى وضع اصبعي على الزناد . كل شيء عاد للصمت .

عندها رميت المسدس وفتحت لهم الباب .

حبل الوريد

- ١ -

كانت لولو تنام عارية لأنها تحب أن تداعب نفسها بالغطاء ، ولأن الغطاء كان ثميناً . اعترض هنري في البداية : فلا يجوز ان تنام عارية في السرير ، فهذا لا يمكن ، بل إنه قذر . لكنه انتهى مع ذلك الى النزول عند رأي زوجته لكن هذا كان نوعاً من المسايرة بالنسبة اليه ، كان جافاً تمام الجفاف عندما يكون بين الناس. وبالنسبة للأصناف (كان معجباً بأهل سويسرا لا سيا سكان جنيف ، انه يعجب بهم لأنهم من خشب) غير انه كان يهمل نفسه في الأشياء البسيطة ، فليس شديد النظافة مثلاً ، إذ لم يكن يغير سرواله كثيراً . فحين تضع لولو سراويله للتنظيف ، كانت تلاحظ عليها البقع الصفراء : لم تكن لولو شخصياً تكره القذارة : فهي تجعل الشخص اقرب الى القلب ، وهي تضفي ظلالاً عذبة بين المرافق مثلاً . فلم تكن تحب أولئك الانكليز ، تلك الأجساد غير البشرية التي ليس لها رائحة . لكنها كانت تخشى اهمال زوجها ، لأنه سبيل للميوعة . في الصباح ، حين يستيقظ ، يكون شديد الرقة أمام نفسه ، فرأسه مليء بالأحلام . كان الماء البارد وشعيرات الفرشاة تحدث له انعكاسات سيئة .

كانت لولو نائمة على ظهرها ، كما أدخلت اصبع رجلها اليسرى الكبيرة في شق الغطاء . لم يكن هذا شقاً ، بل أن الغطاء ممزق . انه يزعجها . وعليها ان تخيطه غداً ، كانت مع ذلك تشد على الخيطان لتنقطع . لم يكن هنري قد

نام ، لكنه انفك عن الازعاج . لطالما قال هذا للولو : مـا ان يغمض عينيه حتى يشعر بأنه قد ربط تماماً بحيث لا يستطيع ان يحرك حتى اصبعه . الذبابة عالقة في خيوط العنكبوت . ولولو تحب ان تشم هذا الجسد السجين . فلو ان بامكانه ان يظل هكذا مشلولاً لاعتنيت بـــه انا ، ولنظفته كولد ولقلبته أحياناً على ظهره وضربته على مؤخرته وازحت الغطاء حتى اذا أتت أمـــه ورأته عارياً ، أظن انها ستجمد في مكانها .منذ خمسة عشر عاماً لم تشاهده على هذه الحال . مرّت لولو بيدها الخفيفة على خاصرة زوجهـا وقرصته قليلاً . فهمهم هنري لكنه لم يقم بأية حركة . أصبح « عاجزاً » . وابتسمت لولو : كلمة « العجز » كانت تضحكها دائماً . ففي الوقت الذي كانت لا تزال فيه تحب هنري ، تخيلته وكأنه «جلفر» ، وهنري يحب ذلك فهذا اسم انكليزي ولولو تبدو مثقفة ، لكنه كان يفضل ان تلفظه لولو باللهجة الانكليزية . كم كانوا قادرين على ازعاجي : فلو رغب في الثقافـة لم يكن عليه سوى الاقتران بجان بدير ، فهي وان حملت نهدين بارزين ، تتقن خمس لغـــات وعندمـا كنا نذهب الى « سو » يوم الأحد ، كنت شديد الانزعاج بين اسرتها حتى اني كنت آخذ اي كتاب لأقرأ فيه.وغالباً ما كان هناك من يأتي لينظر الى ما اقرأ وتسألني أختها الصغيرة : «هل تفهم لوسيا؟» انها لا تجدني مميزاً . السويسريون نعم هم الاشخاص المميزون ، لأن اختها البكر قد تزوجت من رجل سويسري انجبت منه خمسة أولاد . أما أنا فلا يمكن ان يكون لي أولاد . انـــه أمر مشروع ، غير اني لم ار ان مـــا يقوم به ، من زيارة المراحيض عدة مرات عندما يكون برفقتي ، شيئاً مميزاً . اذ اصبح مرغمة على النظر في الواجهات وأنا بانتظاره . ويخرج وهو يشد سرواله ويقوس ساقيه كالعجوز .

وسحبت لولو اصبعها من شق الغطاء وحركت رجلها قليلا ، حتى تشعر بلذة تنبهها .الى جانب تلك الكتلة الرخوة من اللحم .وسمعت غرغرة ؛انها بطن تغني ، وهذا يزعجني ، فليس بامكاني أن اعرف هـل كانت بطني ام بطنه .

وأغمضت عينيها : انها سوائل يسمع خريرها في الاقنية الرخوة ، فالجميع عندهم منها ، عند ريرات وعندي (لا أحب أن افكر بذلك ، فهذا ما يسبب لي ألماً في بطني) انه يحبني ولا يحب امعائي ، فلو قدمت له زائدتي الدودية فلن يعرفها ، سيظل طيلة الوقت يقلّبني ولكن اذا وضعنا الاناء في يديه فلن يشعر بشيء . فلن يفكر بأن هذا الذي في الداخل « هولها » . من الواجب أن نحب كل شيء في الشخص ، بلعومه وكبده وامعاءه . لعلنا لا نحب هذه الأعضاء بحكم عدم التعود عليها ، فلو رأيناها كا نرى أيدينا وأذرعنا لأحببناها على ما اعتقد . فنجوم البحر إذاً تفوقنا في محبة بعضها . فهي تتمدد على الشاطىء في الشمس وتخرج معدتها لتتنشق الهواء ، والجميع يرون هذه المعدة . أتساءل كيف بامكاننا أن نخرج معدتنا ؟ كانت قد اغمضت عينيها ، أخذت الصحون السوداء بالدوران ، كما كنت أمس في المعرض ، اطلق النار على الصحون بأسهم من المطاط . كانت هناك حروف تشع ، يشع الحرف عند اطلاق النار ، فتؤلف الحروف اسم مدينة ، لقد حرمني من رؤية حروف ديجون كاملة لفرط ما كان يلتصق بي من الخلف ، أكره كثيراً أن يلامسني أحد ، أود لو لم يكن لي ظهر ، لا أريد أن يفعل لي الناس شيئاً عندما لا اكون منتبهة . فبامكانهم أن يحركوا أيديهم فوق ظهرك فلا تدري الى أية جهة ستنتقل الأيدي ، وهم يتطلعون اليك بكل أعينهم بدون أن تراهم ، وهنري يحب هذا حتى العبادة . لم يفكر هنري قط بذلك ، لكنه يفكر بالوقوف ورائي ، وأنا متأكدة من انه يفعل هذا عمداً ، ويلامسني من خلف ، فأنا اخجل من مؤخرتي ، وهو يعرف ذلك ، لكن هذا يهيجه . لكنني لا أريد أن افكر فيه (كانت خائفة) . أريد أن أفكر بريرات . كانت تفكر بريرات في جميع الأمسيات وفي نفس الساعة . في نفس اللحظة التي يبدأ فيها هنري بالشخير . لكن المقاومة موجودة ، فالآخر أراد أن يظهر نفسه ، ورأى للحظة الشعر الأسود ، وارتعش لأن المرء لا يدري ماذا سيحصل له . فلو انه الوجه لكانت الحال على ما يرام ، لكن هناك ليالي قضاها بدون

أن يغمض عينيه بسبب الذكريات القذرة التي طغت عليه ، فمن الأمور الرهيبة أن نعرف كل شيء عن انسان ما وخاصة هذا . وهنري لا يمثل الشيء ذاته ، فبامكاني أن اتصوره من الرأس حتى الرجلين ، فهو يجعل قلبي رقيقاً ، لأنه رخو ، ولحمه رمادي الا بطنه فهي وردية ويقول ان الرجل الحسن القوام هو الذي اذا جلس تتجعد بطنه ثلاث تجعدات ،بينا هو فتتجعد بطنه ست تجعدات . الا انه يعدهـا اثنتين بعد اثنتين ولا يريد أن يرى الآخرين . وأبدت امتعاضها وهي تفكر بريرات : « لولو ، انت لا تدركين كيف يكون جسم الرجل الجميل». هذا مضحك بالطبع،نعم أنا اعرف ما الجسم الجميل ، تريد أن تقول انه جسم قاس كالحجر ، جسم ذو عضلات ، أنا لا أحب هذا الجسم ، باترسون كان له جسم مشابه ، وأنا كنت احسني رخوة كالدودة عندما كان يضمني اليه . وتزوجت من هنري لأنه رخو ، ولأنه يشبه الكاهن . والكهنة كالنساء على جانب من العذوبة بقلنسواتهم ، كما يبدو أن لهم جوارب . في الخامسة عشرة ، كنت احب أن أرفع فساتينهم برفق لأرى سيقان الرجال عندهم وكذلك سراويلهم ، كان يضحكني أن يكون لهم شيء بين الساقين . كنت أريد أن أمسك الفستان بيد وأزحلق الأخرى على طول سيقانهم ، صاعدة الى حيث أفكر ، وليس مرد ذلك الى اني احب النساء الى هذا الحد ، لكن عضو الرجل عندما يكون تحت الفستان ،طريء كالوردة الكبيرة . ان ما هنالك انه ليس بالامكان أن يمسك هذا باليد فيظل ساكناً ، بل هو يبدأ بالتحرك كالحيوان ، ويصبح قاسياً عنيفاً . الحب ، كم هو قذر .أنا كنت احب هنري لأن غرضه الصغير لا ينتصب أبداً ولا يرفع رأسه، كنت اضحك ، وأقبله احياناً ، لم أعد أخشاه كثيراً . في المساء ، آخذ شيئه العذب الصغير بين أصابعي ، فكان يحمر ويدير رأسه جانباً وهو يتنهد ، ولكن الشيء لم يتحرك ، بل يظل عاقلاً في يدي ، لم أكن اضغط عليه ، فتظل طويلاً على هذه الحال ، وكان ينام . عندها استلقي على ظهري وأفكر بالكهنة ، والاشياء الطاهرة والنساء ، وادغدغ بطني اولاً ، بطني الجميلة

المسطحة ، وأنزل يدي ؛ انزلها ، وها هي اللذة . اللذة التي لا يستطيع أحد غيري أن يجتلبها لنفسه .

الشعر مجعد كشعر الزنجي . والقلق في الحجرة ككتلة مستديرة . لكنها ضغطت على جفنيها بقوة ،واخيراً ظهرت اذن ريرات، وهي اذن صغيرة محمرة ومذهبة كالسكر المذاب . وإذا رأيت لولو لن تجدها بمثل سرورها المعتاد لانها تسمع صوت ريرات ، وهو صوت حاد دقيق لا تحبه لولو . « عليك ان تذهبي مع بيار يا لولو العزيزة ، فهذا هو العمل الذكي الوحيد الذي بامكانك ان تقومي به . اشعر بكثير من العاطفة تجاه ريرات ، لكنها تزعجني قليلاً عندما تتظاهر بالأهمية وتفتخر بما تقوله . انحنت ريرات عند العشية في الكوبول ، وكانت عليها ملامح التعقل المصحوب بالخوف : « ليس بامكانك ان تظلي مع هنري ،لانك لا تحبينه ،فهذا عمل اجرامي». إنها لا تضيع أية فرصة دون أن تتناوله بسوء ؛ أرى ان هذا ليس من اللياقة بشيء، فهو شديد المحبة لها ان اكون لا أحبه ، امر ممكن ، ولكن ليس من واجب ريرات ان تقوله لي . اذ انه يبدو معها كل شيء بسيطاً سهلاً : فالمرء إما ان يحب ، واما الا يستمر في هذا الحب . أما انا فلست بسيطة . أولاً ، إن لي عاداتي الخاصة ، ومن ثم اني احبه ، فهو زوجي . كنت أود ان اضربها ، ولا زلت أرغب في إيذائها لانها وقحة . « انه لعمل اجرامي » .لقد رفعت ذراعها ،فرأيت ما تحت أبطها . لا أزال أحبها حين تكون ذراعاها عاريتين . تحت الابط ، ينفتح نصف فتحة ، فقد يتبادر الى الذهن انه فم ، وترى لولو لحماً بنفسجياً ، قليل التجاعيد ، تحت شعيرات مجعدة كأنها الشعر . يطلق بيار عليها اسم « مينرفا السمينة » وهي لا تحب هذا الاسم اطلاقاً . وابتسمت لولو لأنها فكرت بأخيها روبير الذي قال لها ذات يوم وكانت بالغلالة الرقيقة : « لماذا لك شعر تحت الذراع ؟ » وأجابته : « انه مرض » . كانت تحب كثيراً ان ترتدي ثيابها أمام اخيها الصغير ، لأنه كان لديه دائماً ملاحظات طريفة ، ويتساءل المرء أين تريد ان تبحث عن هذا . كان يلامس جميع أغراض لولو ،

فيطوي الفساتين بعناية بيدين حاذقتين؛ سيصبح يوما ما « خياطاً » . انهـــا مهنة مغرية ، وانا ، سأرسم له على قطع القماش . إنه لغريب ان يحلم الصبي بأن يصبح خياطاً . يتهيأ لي لو كنت صبياً ، انني أتمنى عندئذ ان اصبح مغامراً أو ممثلاً ، وليس خياطاً . لكنه حـــالم طيلة الوقت ، فهو لا يتكلم كثيراً ، ويتابع فكرته . وأنا كنت أريد ان أصبح اختاً صالحـــة للاستجداء ، في البنايات الكبرى . أحس بعذوبـة عيني وكأنهما اللحم البشري ، اريد ان انام ، وجهي الجميل الشاحب تحت التسريحة . كانت ملامحي مميزة . رأيت مئات من الردهات المعتمة . غير ان الخادمة أضاءت النور في الحال ، عندهـا أبصرت لوحات العائلة ، وتماثيل البرونز على المنضدات . وكذلك المشاجب . وتأتي السيدة بدفتر صغير وورقة من فئة الخمسين فرنكاً :

« خذي يا اختي – شكراً يا سيدتي وليبـــارك الله والى المرة القادمة » لكنني لم اكن أختاً حقيقية . في السيارة ، أومأت بعيني لأحد الأشخاص ، ففزع أولاً ، ثم تبعني وهو يحدثني عن أشياء فسلمته للشرطي. دراهم الاستجداء كنت احتفظ بهـــا لنفسي . ماذا اشتري لنفسي أأشتري سماً . يا للبلاهة . وارتخت عيناي ، فهذا يعجبني ، إذ يقال انهما قد تبللتـا بالماء ، فجسمي مريح بجمله . والتاج الجميل المرصع بالزمرد . ودار التاج ، ثم دار ، فتحول لرأس ثور مخيف ، لكن لولو لم تكن خائفة ، وقالت : « يا لعصافير الكانتال » . وجرى نهر احمر عبر الحقول المجدبة . وفكرت لولو بفأسها الآلية .

« إنها الجريمة » . وارتعدت فرائصها واستيقظت في ذلـك الليل ، بعينين قاسيتين ! انهم يعذبونني ، أفلا يشعرون ، بذلك ؟ انا أعرف ان ريرات تتحدث عن نية حسنة ، لكنها وهي العاقلة بالنسبة للآخرين ، ينبغي ان تفهم انني بحاجة للتفكير. قال لي : « ستأتين ! » وقد احمرت عينـــاه اشد الأحمرار . « ستأتين الى بيتي انا ، أريدك ان تكوني لي » . اني اخشى عينيه حين يريد ان يلعب دور المنوم المغناطيسي ، كان يخدر ذراعي . فلا أرى

عينيه على تلك الحال حتى افكر بالشعر الذي على صدره . ستأتين ، أريدك ان تكوني لي : كيف للمرء ان يقول أشياء كهذه ؟ أنا لست كلباً .

عندها جلست وابتسمت له ، وغيرت المسحوق من أجله وكحلت عيني لانه يحب ذلك ، لكنه لم ير شيئاً ، فهو لا ينظر الى وجهي ، كان يتطلع الى نهديّ ، فوددت لو انها يجفان فوق صدري لازعجه، على كل حال فلستغنية بالنهود ، فهما صغيران جداً . ستأتين الى دارتي في نيس . قـال انها بيضاء، درجها من المرمر ، وهي مشرفة على البحر ، وأننا سنعيش عاريين طيلة اليوم، سيكون الأمر طريفاً عندما يصعد الانسان الدرج بغير ثياب . سأرغمه على الصعود قبلي ، حتى لا ينظر الي . والا فلن استطيع ان احرك رجلي ، بـل سأظل مسمّرة في مكاني متمنية من كل قلبي أن يصبح أعمى ، لكن هذا لن يبدلني . اذ أنه عندما يكون موجوداً أحس دائماً بعريي . أخذني بذارعي ، يبدو انه خبيث وقال لي : « انت في جلدي !» وأنا كنت خائفة فقلت : « نعم » . اريد ان اصنع سعادتك ، سنذهب للنزهة في السيارة ، وفي المركب، سنذهب الى ايطاليا وسأعطيك كل ما تريدين. لكن دارته ليست غنية بالاثاث فسننام على الارض في فراش . يريدني أن انام بين ذراعيه ، سأشم رائحته ؛ احب صدره كثيراً لانه صدر اسمر عريض ، لكن هناك كثـيراً من الشعر فوقه ، أريد ان يكون الرجال بدون شعر ، شعره هو أسود ناعم كالزبد ، فلطالما دغدغتها ولطالما فزعت منها ، أتراجع قدر الامكان لكنه يشدني اليه . يريد ان انام بين ذراعيه وأشم رائحته . وعندما يأتي الليل ، نسمع ضجيج البحر ، وبامكانه أن يوقظني في منتصف الليل اذا اراد ان يفعل هذا: لن استطيع ان انام مطمئنة ما لم تكن حوائجي لدي ، اذ يتركني وشأني وقتئذ ، ثم ان هناك رجالاً يقومون بهذا مع نسوة في دورتهن،فتتلطخ بطونهم بالدم ، بدم ليس لهم ، سيلطخ الدم أيضاً الاغطية ، وكل مكان ، هذا شيء يدعو للاشمئزاز ،لماذا ينبغي أن يكون لنا أجسام ؟

وفتحت لولو عينيها ، كانت الستائر ملونة بالاحمر ، يلونها النور الآتي من الشارع ،

وفي المرآة كان خيال أحمر ، والكنبة انشطرت الى ظــل على الحائـط .
على ذراع الكنبة، كان هنري قد ألقى سرواله ، وقميصه كان يتدلى في الفراغ.
علي ان اشتري لهحزاماً للقميص.أوه ! لا اريد . لا اريد ان اذهب .سيقبلني
طيلة اليوم ، « وسأكون له » ، اصنع لذته ، وسينظر اليّ . سينكر « انهـا
لذتي »لامستها هنا وهناك، وبامكاني ان اعيد الكرة عندما يروق الامر لي».
في بور رويال،رفست لولو الاغطية برجلها ، كانت تمقت بيار عندما تتذكر ما
جرى لها في بورروبال . كانت وراء السياج ، تظن ان بيـار لا يزال في
السيارة ، يتفحص الخريطة ، وفجأة ابصرته ، ركض وراءهـا بخطى
الذئاب ، كان ينظر اليهـا . رفست لولو هنري ، سيستيقـظ .
لكن هنري شخر « هوم ف. ف.ف. » . ولم يستيقـظ . اريد
ان أتعرف على شاب وسيم ، طاهر كالفتاة ، فلا يلامس أحدنا الآخر ،
ونتنزه على شاطىء البحر،امسك بيده ويمسك بيدي .وفي المساء ننـام كل في
سرير منفصل ، نظل كأخ واخت غارقين في حديث حتى الصباح . أو انني
أحب ان اضحك مع ريرات ، فما أحلى النساء فيا بينهن . كتفاها عريضتان
وسمينتان . كنت سعيدة جداً عندمـا كانت تحب فرسنيل ، لكن فكرة
دغدغته لها كان تهزني ، وكذلك يهزني انيمر بيديه على كتفيها وعلى خاصرتيها
وان تتنهد . أتساءل كيف يمكن لوجهها ان يكون عندمـا تكون ممددة على
هذا الشكل ، عارية، تحت رجل، تحس بيدين تتنقلان على لحمها . لن ألامسها
مقابل ذهب العالم كله ، فلن اعرف مـا أفعله بها ، حتى ولو رغبت في ذلك
وقالت لي :

« حقاً انني اريد ». فلن اعرف ، لكنني لو كنت غير منظورة ، لأحببت
ان أراه يفعل هكذا معها ، ينظر الى وجهها (يدهشني ان تكون كمينرفا) ،
ويدغدغ بيد رشيقة ساقيها المنفرجتين ، وركبتيها الموردتين ، ويسمعها تتنهد.
وضحكت مينرفا ضحكة جافة : اذ يعتري المرء احياناً مثل هذه الافكار .

مرة أدعت بأن بيار يريد ان يغتصب ريرات . وساعدتهـا ، اخذت ريرات بين ذراعي . امس . كان خداها شديدي الاحمرار ، كنا جالستين على ديوان، الواحدة قبالة الاخرى ، كانت ساقاها مضمومتين ، لكننا لم نقل شيئاً ، ولن نقول شيئاً . بدأ هنري بالشخير وصفرت لولو . أنا هنـــا ، ليس بامكاني ان أنام ، سأفسد دمي ، وهو كان يشخر ، ذاك السمج . فلو أخذني بين ذراعيه ولو رجاني ، ولو قـــال لي : « أنت لي بأكملك . لولو ، أنا احبك ، لا تذهبي ! » سأقدم له هذه التضحية ، سأبقى نعم ، سأظل طيلة حياتي معه ، طلباً لرضاه .

- ٢ -

جلست ريات على شرفة القبة وطلبت كأساً من البورتو . كانت متعبة ، غاضبة من لولو .

« ... البورتو الذي قدموه فيه طعم الفلين ، ولولو لا يهمها الأمر فهي تشرب القهوة ، لكنه ليس من المناسب أن تشرب القهوة في وقت المقبلات . إنهم يشربون القهوة هنا طيلة اليوم أو القهوة مع الكريما لأنهم مفلسون ، كم يزعجهم هذا الأمر ، أما انا فلا استطيع ، بل اضرب جميع الحوانيت برؤوس الزبائن ، فهم أناس لا يريدون الاستمرار . لا ادري لماذا تحـدد لي المواعيد في المونبارناس دائماً ، لا سيما وأنها لو حدّدت لي مواعيدها في مقهى السلام أو البام بام ، لكان اقرب اليها ، وأبعد عن مكان عملي . لا أستطيع أن اقول كم يحزنني ان ارى دائماً هذه الرؤوس ، ففي كل دقيقة لدي،عليّ أن آتي الى هذا المكان . لو كنت في الشرفة فلا بأس ، ولكن في الداخل تفوح رائحة الثياب القذرة .وحتى على الشرفة احس بأني غريبة بين رجال لا يحلقون ذقونهم ونساءلست أدري كيف هن . قد يقول أحدهم : « ما تراها تفعل هنا ؟ » أعرف ان الاميركيات المثريات يؤمن المكان في الصيف ، ولكن يبدو أنهن قد توقفن الآن في انكلترا مع حكومتنا ، لهذا فان تجارة الكماليات ليست على ما يرام ، فقد بعت حتى الآن نصف ما بعته في السنة الماضية . » واتساءل ماذا يفعل الآخرون ،لانني أنا البائعة الفضلى ، والسيدة

دوباش هي التي قالت لي هذا ،
فهي لم تكسب درهماً واحداً ء
يقضي المرء نهاره واقفاً على رج
يسمع فيه الموسيقى ،وليس الذ
لكن الخدم وقحون ، ، فهم يعاه
فهو لطيف .أظن ان لولو تسرّ عند
الذهاب الى مكان راق ، فهي ليست شديدة الثقة
كل رجل ذي عادات جميلة ، ولم تكن تحب لويس .
والرجال هنا فقراء يضعون غلايينهم في أفواههم ، ولا
الشرهة ، وإن كان يبدو عليهم أنهم لا يستطيعون دفع اجرة النسـ
إنهم يتطلعون بشراهة ،وليسوا قادرين علىأن يقولوا للمرأة بأسلوب لطيف
بأنهم يرغبون فيها ».

واقترب الخادم :

– تريدين البورتو الصرف يا آنستي ؟

– نعم . شكراً .

– يا له من وقت جميل .

فقالت ريرات :

– ليس الوقت مبكراً !

– حقاً ، حتى انه بامكاننا ان نقول ان الشتاء لن ينتهي أبداً .

وذهب ، فتبعته ريرات بعينيهـا . وقالت في نفسها « أحب هذا الصبي كثيراً ، انه يحسن الوقوف في مكانه ، ولا يتعدى حدوده ، لكن له دائماً كلمة يقولها لي ، ليعيرني انتباهاً خاصاً » .

كان رجل نحيل مقوس الظهر ينظر اليها بامعان . فهزت ريرات كتفيهـا وأدارت ظهرهـا : « إذا أراد الرجل ان يغازل المرأة ، فعليه على الأقل ان ينظف ثيابه . سأجيبه بهذا اذا وجه لي الكلام . واتساءل لمـاذا لا تذهب . إنها لا تريد أن تؤذي هنري ، هذا جميل جداً : فليس للمرأة الحق بأن تفسد حياتهـا من أجل رجل عاجز » . كانت ريرات تحتقر الرجال العاجزين . وقررت في نفسها : « عليها ان تذهب، فإن مسألة سعادتها في الميدان، سأقول لها بأنه لا يجب ان تضع سعادتها على كف عفريت . لولو ، ليس لديك الحق بأن تتلاعبي بسعادتك . سوف لا أقول لها شيئاً ، لقد انتهت القضية ، وقلت لها مئة مرة انه ليس بالامكان اسعاد الآخرين رغماً عن إرادتهم » . واحست ريرات بفراغ كبير في رأسها ، كانت شديدة الاعيـاء ، تنظر الى شراب البورتو المائع في كأسها ، وكأنه نوع من الحلوى السائلة ، ويتردد في ذهنهـا صوت يقول : « السعادة ، السعادة » لقد كانت كلمة عذبـة رصينة وفكرت بأنه لو طلب اليها رأيها في مباراة باريس سوار ، لقالت ان تلك الكلمة هي أجمل ما في اللغة الفرنسية . « فهل فكر فيهـا أحد ؟ » ذكروا : الطاقة ، والشجاعة ، ذلك لأنهم رجال ، أما لو كانت هنـاك امرأة ، فهي التي تستطيع ان تأتي بتلك الكلمة . كان من الواجب تخصيص جـائزتين ، واحدة للرجـال فتكون كلمة « شرف » ، وأخرى للنساء فأربح اذ اقول : « سعادة » . فالشرف والسعادة يتلاءمان ؛ واسم كهذا ممتع . سأقول لهـا : « لولو لا يمكنك ان تتخلي عن سعادتك .سعادتك يا لولو . « سعادتك » .انا شخصياً اجد بيار ممتازاً ، فهو انسان طيب أولاً ثم انه ذكي ، وهذا لا يفسد شيئاً ، ولديه دراهم ، وسيظل دائم الاهتمام بها . إنه من أولئك الرجال الذين يعرفون كيف يذللون صعوبات الحياة ، وهذا ما يلائم المرأة . احب حسن القيادة كثيراً ؛ لكنه يحسن الكلام مع الخدم وموظفي الفنادق ، فهم يطيعونه ولعل هذا ما ينقص هنري . ثم ان هناك اعتبارات صحية ، فلولو عليهـا ان تنتبه ، فإن كان جميلاً ان تظـلّ المرأة رقيقة شفافة والا تشعر بالجوع او

النعاس . لكن هذا امر لا واع ، اذا انها بحاجة لاتبـــاع نظام غذائي ، فلا بأس اذا أكلت قليلاً في المرّة الواحدة ولكن عليها أن تقوم بهذا عدة مرات . ستتحسن صحتها لو أرسلت الى المصح طيلة عشر سنوات » .

وثبتت نظرها حائرة على ساعة جادة مونبارناس الكبيرة ، التي تشـــير عقاربها الى الحادية عشرة وعشرين دقيقة .

« أنا لا افهم لولو ، فهي ذات مزاج غريب ، لم استطع ابداً ان اعرف ما اذا كانت تحب الرجال ، او انهم يثيرون اشمئزازها : ومن الواجب مع ذلك ، ان تكون على وفاق مع بيار ، وهذا ما يغيرها قليلاً عمّا كانت عليه في السنة الماضيـــة » .

لقد تمتعت بهذه الذكرى ، لكنها كتمت ابتسامتها لأن الشاب النحيل كان لا يزال ينظر اليها ، إذ انها فاجأته وهو ينظر اليها وهي تدير رأسها .

كانت رابو ذات وجـــه مثقوب بنقط سوداء ، وكانت لولو تعبث بهذه البثور اذ تضغط على جلدها بالأظافر . « هذا مؤلم ، ولكن ليست هذه غلطتها ، فلولو لا تعرف ما هو الرجل الجميل ، اما انا فأعبد الرجال المتحذلقين ، وقضاياهم تبعث في النفس السرور ، قمصانهم ، أحذيتهم ، ربطات أعناقهم . إنه شيء قاس ، لكنه لذيذ ؛ وقوي ، له قوة عذبـــة . كرائحة التبـــغ الانـــكليزي الذي يدخنونه ، وكرائحة العطر ، ورائحة جلدهم عندما يحلقون ذقونهم . ليس ... ليس جلدهم كجلد المرأة ، فكأنه جلد من قرطبـــة . وتنقض عليك أذرعهم القوية ؛ نضع الرأس على صدورهم ، فنحس برائحتها ، رائحة الرجولة . ويتمتمون لك كلمات عذبة .لديهم اشياء جميلة ، أحذيـــة قاسية من جلد البقر ، ويهمسون في أذنك : « يا عزيزتي ، يا عزيزتي الرقيقة » . فنحس بأجسامنا تنهدّ ؛ وفكرت ريرات بلويس الذي هجرها في العام الماضي فانعصر قلبها : « رجل يحب نفسه ولديه الكثير من العادات الصغيرة .وافضل من ذلك رجل في الأربعين ، رجل يعتني بنفسه ، رد الى الوراء ، شعره الذي

غزاه الشيب في الصدغين ، يكون عريض المنكبين ، رياضياً ، لكنه يعرف الحياة حق المعرفة ، وله قلب طيّب لأنه اجرى تجربة الألم . ليست لولو سوى صبية صغيرة ، حالفها الحظ فكانت لها صديقة مثلي ، لأن بيار بدأ يمـــل . فلو ان واحدة كانت في مكانها لعرفت كيف تستفيد . وعندما يكون رقيقاً معي اتظاهر بعدم الانتباه ، وابدأ بالحديث عن لولو ، فأجد دائماً كلاماً يرفع من شأنها ، غير انها لا تستحق مـــا لها من حظ ، انها لا تعي ، أتمنى لها ان تعيش قليلاً بمفردها كما عشت منذ ان ذهب لويس ، فسترى ما تعني عودتها وحيدة الى البيت في المساء ، بعد عناء اليوم ، لترى الغرفة خاوية ، فتموت من شدة رغبتها في الارتقاء على ذراع رجل . ولعلنا نتساءل اين نجـد الشجاعة على النهوض صبيحة اليوم التالي ، بغية العودة الى العمل ، مـــع المحافظة على الاغراء والفرح . في الوقت الذي نفضـــل فيه الموت على حياة كهذه ... »

ودقت الساعة الحادية عشرة والنصف . كانت ريرات تفكر بالسعادة ، بالعصفور الازرق ، بعصفور السعادة ، بعصفور الحب الثـــائر . وقفزت من مكانهـــا : « تأخرت لولو ثلاثين دقيقة ، وهذا أمر عادي . فهي لن تهجر زوجها قط ، وهي لا تملك إرادة الإقدام على عمل كهذا . في الواقع انهـا تبقى مع هنري بدافع الاحترام : انها تخوفه ولكن ذلك لا يهم طالمـــا ان الناس ينادونها بقولهم « سيدتي » . لقد فعلت كل شيء من أجلها ، وقلت لها كل ما يجب ان أقوله ، فتباً لها » .

وتوقفت سيارة أمام القبة ، وترجلت لولو منهـــا . كانت تحمل حقيبة ضخمة ، على وجهها مسحة الوقار . وصاحت من بعيد :

— لقد هجرت هنري .

واقتربت ، مقوسة الظهر تحت عبء حقيبتها . وكانت تبتسم .

فقالت ريرات مدهوشة :

– كيف يا لولو ؟ الا تريدين ان تقولي ...؟

فقالت لولو :

– نعم ، انتهى كل شيء ، لقد رميته .

فقالت ريرات وهي لا تزال على سذاجتها :

– وهل عرف هذا ؟ هل قلت له ؟

فبدا الغضب في عيني لولو وقالت :

– وكيف !

– حسناً . يا لولو الصغيرة !

وافترضت ريرات ان لولو كانت بحاجة للتشجيع فقالت لها :

– يا له من فعل حسن لقد كنت في غاية الشجاعة .

وأرادت ان تضيف قائلة : أرأيت ان هذا لم يكن صعباً . لكنها تمالكت نفسها . بينما كانت لولو تتلقى الأعجاب : كان خداهـا محمرين ، وعيناها متأججتين . جلست ووضعت حقيبتها الى جانبهـا ، كانت ترتدي معطفاً من الصوف الرمادي يشده قشاط جلدي وكنزة صفراء فاتحة ذات عنق مبروم وكانت مكشوفة الرأس: لقد أدركت في الحال هذا المزيج من الملامة والتسلية، هذا المزيج الذي عرفت به . كانت لولو توحي لها دائماً بهذا الأثر . وصممت ريرات على القول : « ان ما احبه فيها هي حيويتها » .

وقالت لولو : لقد قلت له كل ما شعرت به .

فقالت ريرات :

– لن اعود عنه ، ولكن ما هو الذي حدا بك الى هذا يا عزيزتي لولو ؟ هل اكلت من لحم الأسد ، مساء امس . كنت مستعدة لأن اقطع رأسي لو لم تتركيه .

– ذلك بسبب أخي الصغير . أريد ان يكون عليّ رئيساً ، ولكنني لا

أقبل بأن يمس عائلتي ابداً .

– ولكن كيف تم ذلك ؟

فقالت لولو وهي ترتعد فوق كرسيها :

– أين الصبي .إن صبيان مقهى القبة ليسوا دائماً حاضرين عندما ينادونهم . انه الأسمر الصغير الذي يخدمنا ؟

فقالت ريرات :

– نعم ؟ هل تعرفين انني سيطرت عليه .

– كيف ؟ عليك ان تحذري من امرأة المغاسل ، فهو يعيش دائماً الى جانبها . يغازلها ، ولكن هذا انه هو الادعاء ليرى النساء تدخل الغرف الصغيرة . وعندما يخرجن ، ينظر الى اعينهن حتى تحمر وجوههن . وبالمناسبة ، انني ، اعطيكم مهلة دقيقة ينبغي ان انزل واتصل ببيار ، لأنه سيغضب ! واذا رأيت الصبي ، اطلبي لي فنجاناً من القهوة مع الكريما . سأغيب دقيقة ثم أعود واخبركم بكل شيء .

ونهضت ، ثم خطت عدة خطوات وعادت الى ريرات .

– انا سعيدة جداً يا عزيزتي ريرات .

فقالت ريرات وهي تمسك بيدها :

– يا لولو العزيزة .

وافلتت لولو يدها واجتازت الشرفة بخطى وئيدة ونظرت اليها ريرات وهي تبتعد . « لم اكن لأظن انها قادرة على مثل هذه الأمور . وفكرت في نفسها : كم هي سعيدة . وإن كانت تؤاخذ نفسها قليلاً . ولو سمعت مني لأقدمت على ذلك منذ مدة طويلة . على كل حال فان لي فضلاً في ذلك . في الواقع ، انني أؤثر عليها أشد التأثير .

وعادت لولو بعد لحظات وقالت :

بيار كان جالساً . يريد تفاصيل حسنة ، وسأعطيه هذه التفاصيل في الحال ، سأتناول طعام الغداء معه . قال إنه بالامكان أن نذهب غداً مساء .

فقالت ريرات :

– كم أنا سعيدة يا لولو . اخبريني بسرعة . هل قررت ذلك هذه الليلة بالذات ؟

فقالت لولو بتواضع :

– أنا لم اقرر شيئاً ، فالأمر تقرر تلقائياً . ونقرت على الطاولة بعصبية : « يا صبي ! يا صبي ! انه ليزعجني هذا الصبي ، أريد فنجان قهوة مع الكريما » .

دهشت ريرات : فلو كانت في مكانها ، تواجه أشياء خطيرة لما اضاعت وقتها في الركض وراء القهوة مع الكريما . لولو امرأة جذابة ، ولكن كم هي تافهة في بعض الأحيان . انها عصفور .

وضحكت لولو :

– لو رأيت هيئة هنري !

فقالت ريرات برصانة :

– اتساءل ما يمكن ان تقول والدتك .

فقالت لولو باطمئنان :

– امي ؟ ستكون سعيداً جداً . كان سيء الخلق معها ، وقد ضاقت ذرعاً به حتى الآن . كانت تتهمه بأنه أساء تهذيبي ، وانني كنت كذا وكذا ، وانني تعلمت ثقافة من الدرجة الأخيرة . هل تدرين ان كل ما فعلته هو بسببها ؟

– ولكن ماذا جرى بالفعل ؟

– لقد صفع روبير .

– اذاً فروبير أتى الى بيتك .

– نعم . عندما مرّ بنا هذا الصباح ، اذ ان والدتي تريد أن تعلمه عند غومبيز . اظن إنني اخبرتك بذلك . لذا مر ببيتنا وكنا نتناول طعـــام الفطور ، فصفعه هنري .

وسألت ريرات بانزعاج ، لانها كانت تكره الشكل الذي كانت لولو تسرد به قصتها :

– ولكن لماذا ؟

فقالت لولو بغموض :

– تبادلا بعض الكلمات، ولم يسكت الصغير عنها لقد. قابله بعناد. وقال له في وجهه « أيها الوسخ العجوز . وذلك لأن هنري قد نعته بقـــلة الأدب طبعاً ، فهو لا يعرف سوى التفوه بهذه الكلمات . عندها نهض هنري ، وكنا نتناول طعام الفطور في الستوديو ، وصفعه صفعة واحدة ، فوددت لو اقتله.

– عندها ، ذهبت ؟

فقالت لولو مدهوشة :

– ذهبت ؟ الى اين ؟

– ظننت بأنك تركته في تلك اللحظة بالذات . اصغي ، يا لولو الصغيرة ، عليك ان تخبريني القصة بالتسلسل ، وإلا فلن أفهم منها شيئاً .

وأضافت وقد ساورها الشك :

– قولي ، هل هجرته فعلاً ، هل هذا صحيح ؟

– أجل ، وها انا اشرح لك القصة منذ ساعة .

– حسناً . صفع هنري روبير ؟ وبعدها ؟

فقالت لولو:

– وبعدهـا : احتجزته :
يرتدي ثياب النوم ، وهو ينقر
كالقملة. أما ، انافلو كنت موجو
بالدم . وتخاصمنا . وابتسم لي

ويمر الصبي ، فتمسكه لولو

– إذاً ، ها انك اتيت اخيرا ايها الصبي ؟ هلا
فنجاناً من القهوة مع الكريما !

كانت ريرات مزعوجة لكنها ابتسمت للصبي ابتسامة مسايرة الصبي فظل مكفهر الوجه وانحنى انحناءة ملؤهـا اللوم ، ريرات كرهت بعض الكره . لم تكن لتستطيع أبداً ان تحسن لهجتها مع من هو دونها ، فتارة ما تكون شديدة المسايرة ، وطوراً جافة جداً .

وبدأت لولو بالضحك .

« اضحك لاني أرى هنري بثياب النوم على الشرفة ، كان يرتجف من البرد . هل تدرين ماذا فعلت حتى اطبقت عليه ؟ كان في طريق الستوديو ، وروبير يبكي ، ويقسم . وفتحت النافذة وقلت : « انظر يا هنري ! هنـاك سيارة صدمت بائعة الزهور » . فجاء بالقرب مني : انـه يحب بائعة الزهور كثيراً لانها قالت له انها سويسرية ويظن انهـا تعشقه . « اين حدث هذا ؟ أين ؟» وانسحبت على مهل ، وعدت الى الغرفة واقفلت النـافذة . وصحت فيه من وراء الزجاج :

« ستتعلم ألا تكون متوحشاً مع اخي » . تركته اكثر من ساعـة على الشرفة ، كان ينظر الينا بعينين مدورتين ، وقد أزرق لونه من الغضب . أما أنا فمددت له لساني واعطيت روبير ملبساً ، وبعدها ، حملت اشيائي الى الستوديو

وارتديت ثيابي أمام روبير لاني اعلم أن هنري يكره هذا : كان روبير يقبل ذراعي وعنقي وكأنه رجل ، انه جذاب . تصرفنا كما لو أن هنري كان غائباً . ونسيت أن اغتسل .

فقالت ريرات وقد انفجرت ضاحكة :

— هذا مضحك جداً .

وانقطعت لولو عن الضحك وقالت بجدية :

— اخشى أن يكون قد برد كثيراً ، فالمرء لا ينتبه في حالات غضبه . وتابعت بسرور : كان يمد لنا قبضة يده ويتكلم طيلة الوقت ، لكنني لم افهم نصف ما كان يقوله . ثم ذهب روبير وجاء من يراه على تلك الحال فقلت لهم: انظروا الى زوجي ، زوجي العزيز الكبير ، إذا كان يشبه سمكة في مسبح ؟ فحياه هؤلاء من خلال الزجاج مدهوشين .

فقالت ريرات ضاحكة :

زوجك في الشرفة والناس في الستوديو . أرادت ان تبحث عن كلمات مضحكة وملونة لكي تشرح المشهد للولو ، وفكرت بأن لولو لا تعرف معنى الضحك . ولكن الكلمات لم تأتها .

فقالت لولو :

— وفتحت النافذة فدخل هنري . وقبلني على مرأى منهم . وأخذ يمازحني ، انه يريد ان يمثل معي دوراً ، وابتسمت . وابتسم الجميع . لكنهم عندما ذهبوا ، لطمني بقبضة يده على أذني . عندها اتيت بفرشاة وألقيت بها على زاوية فمه . فانشقت شفتاه .

فقالت ريرات بحنو :

— يا لولو المسكينة .

لكن لولو دفعت بحركتها كل مسايرة . وانتصبت وعلى سيمائها الغضب ، بينما راحت عيناها تشعان كالبرق :

– عندها افصحنا عن كل شيء . غسلت شفتيه بنشفة، وقلت له انني ضقت به ذرعاً ، وبأنني لا أحبه ، وأريد الذهاب . فأجهش بالبكاء وقـــال انه سيقتل نفسه . لكن احابيله لم تعد تنطلي عـــليّ : هل تذكرين يا ريرات ، في السنة الماضية أثناء المناوشات مع الريناني ، كان يقول لي في كل يوم : ستقع الحرب . لولو ، سأذهب وأموت ، وستأسفين عـــليّ ، وستندمين على كل ما أقدمت عليه تجاهي . مـــا « يهم لو قلت له انك عاجز » . ومع ذلك ، هدأت من روعه ، لأنه فكر بأن يقفل عليّ الباب في الستوديو ، فاقسمت له بأنني لن اذهب قبل شهر . بعدها، حضر الى مكتبه، وكانت عيناه حمراوين، ولم يكن جميلاً . أما انا ، فقمت بأعمال البيت ، وضعت العدس على النـــار وأحضرت حقيبتي . وتركت له خطاباً على طاولة المطبخ :

– ماذا كنت تكتبين له ؟

فقالت لولو بفخر :

– كتبت قائلة : العدس على النار . تناول طعامك واطفىء الغاز . لحم الخنزير المجفف في البرّاد. اما انا فضقت ذرعاً . الوداع.

وضحكت الاثنتان معاً بقوة حتى التفت صوبها المارة . وفكرت ريرات بأن منظرهما سيكون جذاباً وندمت على عدم جلوسها في شرفة الفيال او في مقهى السلام . ولما فرغتا من الضحك ، سكتتا ، ورأت ريرات انه لم يبق شيء يستحق الذكر . فاحست ببعض الخيبة .

فقالت لولو وهي تنهض :

– علي أن انقذ نفسي . سألاقي بيار ظهراً . ماذا ينبغي ان افعـــله بحقيبـــتي ؟

فقالت ريرات :

– اتركيها لي ، سأسلمها في الحال الى امرأة المغاسل . متى أراك ثانية ؟

– سآتي لآخذك من بيتك في الساعة الثانية ، فلدي الكثير من الأعمال بصحبتك : فأنا لم آخذ سوى نصف أغراضي ، يجب على بيار أن يعطيني نقوداً .

وذهبت لولو ، فنادت ريرات الخادم . أحست بأنها شديدة الوقار والحزن . وأسرع الصبي : لاحظت ريرات بأنه يأتي مسرعاً عندما تناديه هي. وقال لها :

– خمسة فرنكات . وأضاف بهيئة جافة :

كنتما مسرورتين معاً ، فقد سمع ضحكما الى تحت .

وفكرت ريرات بتأنٍّ :

« لعل لولو مست شعوره ».

وقالت بعد ان احمر وجهها :

– صديقتي عصبية المزاج هذا الصباح فقال الصبي:

– انها جذابة . اشكرك يا آنستي .

ووضع في جيبه الفرنكات الستة وذهب . ودهشت ريرات بعض الدهشة وفكرت بأن هنري سيعود الى بيته ويعثر على خطاب لولو : كانت لحظة مفعمة بالسعادة بالنسبة اليها .

قالت لولو لأمينة الصندوق :

– أريد ان يرسل كل هذا قبل مساء الغد الى فندق المسرح في شارع فاندام . ثم اتجهت نحو ريرات :

– كفى يا ريرات فسنضعها هنا .

فقالت امينة الصندوق :

– ما هو الاسم ؟
– مدام لوسيان كرسبان .

وألقت لولو معطفها على ذراعها وراحت تركض . ونزلت راكضة درج السامارتان . كانت ريرات تتبعها . كادت تقع عدة مرات لأنها لم تكـن تنظر الى رجليها . لم تكن تنظر لسوى الطيف الأزرق والاصفر الهادىء الذي كان يرقص أمامها ! « صحيح أن لها جسماً بعيداً عن الحشمة » . في كل مرة كانت ريرات ترى فيها لولو من الخلف أو جانبياً ،تقف مشدوهة أمام جسمها غير المحتشم بدون ان تشرح لنفسها السبب . انه انطباع . « انها رقيقة لينة، لكن فيها شيئاً بعيداً عن الحشمة ، فلن اتخلى عن هذه الفكرة . تقول انها تخجل من مؤخرتها وهي ترتدي « التنورة » الضيقة التي تبرز تلك المؤخرة . إن مؤخرتها صغيرة ، اصغر من مؤخرتي بكثير ، لكنها بارزة أكـثر . فهي مستديرة من تحت كليتيها الهزيلتين ، وهي تملأ التنورة تماماً . ثم إنها تحسن الرقص .

واستدارت لولو ، وتبادلتا الابتسام . فكرت ريرات بجسم صديقتهـــا الفاضح بنوع من عدم الرضى : نهدان ناهضان ، ولحم مصقول احمر – حين يلامس يظن انه صنع من المطاط وساقان طويلتان، وقامة مديدة ، وأطراف طويلة . وفكرت ريرات في نفسهـا : « انه جسم زنجية ، فهي تشبه زنجية ترقص الرمبا ». قرب الباب لاحظت ريرات صورتها تنعكس ، وفكرت في نفسها ، وهي تمسك بذراع لولو : « انا رياضية اكثر من لولو ، لكنهـا ابلغ أثراً مني عندما نكون لابستين ثيابنا ، ولكنني اجمل منها عارية » .

وظلتا للحظة صامتتين ، ثم قالت لولو :
– بيار كان جذابـاً . انت ايضاً كنت جذابة يا ريرات ، فأنا اشكركما انتما الاثنتين .

قالت هذا بلهجة المتضايقة ، لكن ريرات لم تنتبه لها، لم تعرف لولو قط

ان تشكر ، فقد كانت شديدة الخجل .

واضافت لولو فجأة : « هذا يزعجني ، ولكن عليّ ان اشتري صدرية» .

فقالت ريرات : — من هنا ؟ فقد كانتا تمران امام دكان لبيع الثياب
— كلا . تذكرت لانني رأيت . وبالنسبة للصداري فأنا اقصد محل فيشر . وهتفت ريرات :

— من جادة مونبارناس ؟ وتابعت كلامها بجدية :
— اصغي يا لولو ، عليك الا تترددي كثيراً على جادة المونبارناس خصوصاً في هذه الساعة : سيقع نظرنا على هنري ، وهذا أمر مزعج .

وقالت لولو وهي تهز كتفيها .
— على هنري . كلا . لماذا ؟

واستبد الغضب بريرات فاحمر خداها وصدغاها :
—انت لا تزالين على حالك يا لولو الصغيرة، فحين لا يروق الأمر لك، تعمدين الى نفيه ، بكل سهولة . أنت ترغبين في الذهاب الى محل فيشر ، فتؤكدين لي ان هنري لا يمر في جادة المونبارناس . وانت تعرفين حق المعرفة انـه يمر من هناك ، كل يوم في السادسة ، فهذا هو طريقه . وانت التي قلت لي ذلـــك بنفسك : فهو يصعد في شارع الرين وينتظر في زاوية جادة رسباي .

فقالت لولو :
— أولاً ، ليست الساعة الخامسة الآن ثم انه ، قد يكون غائبـــاً عن مكتبه : فبعد الكلمة التي وجهتها اليه لا بد وان يعمد للراحة .

فقالت ريرات فجأة :
— ولكن يا لولو ، هنـــاك محل آخر لفيشر ، ليس بعيداً عن الأوبرا في شارع الرابع من ايلول .
فقالت لولو بوجه عديم الارادة :

– نعم يا لولو ، ولكن علينا ان نذهب الى المحل الاول .
– آه ! كم انني احبك يا صغيرتي لولو ؟ ينبغي ان نذهب الى المحل الأول؟ لكن هذا المحل على بعد خطوتين ، فهو أقرب بكثير من جادة المونبارناس .
– لا احب ما يبيعونه هنا .

وفكرت ريرات في نفسها بأن جميع محلات فيشر تبيع الاصناف نفسها . لكن لولو كانت تصر اصراراً لا يفهم . فهنري هو آخر من ترغب في رؤيته في الدنيا في هذا الوقت ، ومع ذلك فهي تتصرف وكأنها تريد ان ترتمي عند رجليه .

وقالت باصرار :

– حسناً ، فلنذهب الى مونبارناس ، وعلى كل حال فان هنري فارع الطول وسنراه قبل ان يرانا .

وتابعت لولو :

– ثم ماذا ؟ اذا صادفناه ، نكون قد صادفناه وكفى ، فلن يأكلنا .

اصرّت لولو على بلوغ مونبارناس مشياً .قالت إنها بحاجة لتنشق الهواء. أخذتا طريق السين ، ثم شارع الأوديون وشارع فوجيرار . وامتدحت ريرات صفات بيار وبينت للولو كيف انه كان رائعاً في هذه الفرصة .

فقالت لولو :

– كم احب باريس ، سآسف عليها كثيراً .
– اسكتي يا لولو ، سنحت لك الفرصة بالذهاب الى نيس وتندمين على ايام باريس .
لم تجب لولو بشيء ، بل أخذت تنظر ذات اليمين وذات اليسار بهيئة حزينة تائهة .

وعندما خرجتا من محل فيشر كانت الساعة تشير الى السادسة .

اخذت ريرات لولو بكتفها وأرادت ان تسير بها بأقصى سرعة . لكن لولو توقفت أمام محل بومان بائع الورود .

— انظري الى هـــذه النباتات الصحراوية يا صغيرتي ريرات . فلو كانت عندي قاعة استقبال كبيرة ، لوضعت هذه النباتات في كل مكان فيها .

فقالت ريرات :

— أنا لا احب الورود في الخزف . كانت ساخطة . وأدارت وجههـــا ناحية شارع الرين ، فرأت بالطبع، طيف هنري الطويل . كان مكشوف الرأس يرتدي سترة عادية بلون كستنائي . وريرات تكره هذا اللون .

وقالت على عجل :

— ها هو يا لولو . ها هو .

فقالت لولو :

— أين ؟ اين هو ؟

لم تكن اكثر هدوءاً من ريرات .

— انه وراءنا على الرصيف الآخر . فلنذهب ولا تتطلعي الى الوراء .

واستدارت لولو رغم ذلك الى الوراء وقالت :

— ها انني أراه .

حاولت ريرات أن تجرها لكنها تجمدت ، واخذت تنظر بامعان نحـــو هنري . وقالت أخيراً :

— أظن انه رآنا .

وظهر عليها الخوف فأطاعت ريرات وتابعت طريقها .

فقالت ريرات لاهثة :

— والآن بحق السماء يا لولو ، لا تنظري الى الوراء . سندور في الشارع التالي نحو اليمين ، انه شارع دلامبر .

كانتا تسيران على عجل وتدفعان المارة . كانت لولو تتباطأ حيناً ، وتجر

ريرات حيناً آخر . وقبل ان تصلا الى زاوية شارع دلامبر حتى أبصرت ريرات ظلاً اسمر وراء لولو. ففهمت أنه هنري كان وبدأت ترتجف من الغضب . أما لولو فظل جفناها منخفضين ، وعليها سيماء المبالاة . « انها تأسف لقـلة درايتها لكن الوقت متأخر ، فلتحسن النتائج » .

وحثتا الخطى . فتبعها هنري بدون ان يقول كلمة واحدة . وقطعتـا شارع دلامبر وتابعتا المسير في اتجاه المرصد .كانت ريرات تسمع قرقعة حذاء هنري ، كما تسمع نوعاً من الحشرجة المتقطعة . كان لهـاث هنري . (هنري لهاثه قوي منذ البداية ولكن ليس الى هذا الحدّ : إذ انه ركض حتى لحق بهما او انه اثر الانفعال) .

وفكرت ريرات . ينبغي أن نتصرف كما لو انه ليس هنا . وان نتجاهل وجوده . لكنها لم تستطـع عدم النظر اليه بطرف بصرها . كان أبيض كقطعة القماش البيضاء ، يخفض حاجبيه الى الأرض وكأنه يغمض عينيه . وفكرت ريرات في نفسها بنوع من الخوف : « لعله مربوص» كانت شفتا هنري ترتجفان، وعلى شفته اليمنى قطعة من القماش الناعم ترتجف معه أيضاً . ولهاثه ، لهاثـه الذي ظل على حاله مبحوحاً ، بات ينتهي الآن بنوع من الموسيقى التي تنبعث من المنخرين . احست ريرات بالضيق : لم تكن لتخشى هنري لكن المرض والعاطفة يخيفانها الى حد ما. وما هي الا لحظة ، حتى قرب هنري يده برفق وبدون ان يتطلع وأمسك بذراع لولو . فقلبت لولو فمها وكأنها تهم بالبـكاء وافلتت منه مرتعشة فقال هنري :

– بوف هـ . هـ . هـ .

واعترت ريرات رغبة جامحة في التوقف . لكن لولو كانت تركض . فهي ايضاً تبدو وكأنها مربوصة . وفكرت ريرات انهـا لو افلتت ذراع لولو وتوقفت لاستمرا في مسيرهما جنباً الى جنب ، ابكمين ، شاحبي اللون كأموات مغمضي الأعين .

بدأ هنري بالكلام ،

قال بصوت مضحك مبحوح :

— عودي معي .

لم تردّ لولو عليه . فتابع هنري بنفس الصوت المبحوح :

— انت زوجتي . عودي معي .

فقالت ريرات من بين اسنانها :

— انت ترى تماماً انها لا تريد العودة . فدعها وشأنها .

ولم يبد انه سمعها . بل اخذ يكرر :

— انا زوجك وأريد ان تعودي معي .

فقالت ريرات بصوت حاد :

— أرجوك ان تتركها وشأنها ، فلن تكسب شيئاً بازعاجهـــا على هذه الصورة . اذهب من هنا .

فأدار نحو ريرات وجهاً مدهوشاً وقال :

— انها زوجتي ؛ انها لي . وأريد ان تعود معي .

تمسك بذراع لولو ، ولولو لم تفلت هذه المرة . فقالت ريرات :

ـ اذهب من هنا .

ـ لن اذهب . سأتبعها الى اي مكان ، اريد ان تعود الى المنزل .

كان يتكلم بعناء . وفجأة كشر عن اسنانه وصرخ بكل قواه :

ـ انك لي !

فاستدار بعض النـــاس نحوه ضاحكين . بينا كان هنري يهز ذراع لولو مهمهماً كحيوان وهو يزم شفتيه . ومن حسن الحظ ، مرت سيارة فارغة . أشارت لها ريرات بالوقوف . فوقف هنري ايضاً . وأرادت لولو ان تتابع مشيتها فشدّها كل منهما بذراع .

فقالت ريرات وهي تجر لولو نحو الطريق :

— ينبغي ان تفهم انه ليس بالامكان ان تعود اليك بوسائل العنف هذه

فقال هنري وهو يجرها باتجاه معاكس :
– اتركيها ! اتركي زوجتي .
كانت لولو رخوة كحزمة القماش .
وصاح السائق :
– هل تريدون الصعود أم لا ؟
وتركت ريرات ذراع لولو وامطرت يد هنري بوابل من الضربات . غير انه لم يكن يحس بها . وما هي إلا هنيهة حتى تركها وراح ينظر نحو ريرات كالمعتوه . نظرت اليه ريرات ايضاً .كانت تجد صعوبة في استجماع افكارها، كما اجتاحها ألم عميق . بقيا على هذه الحال لعدة ثوان . كان كلاهما يلهث . ثم عادت ريرات لتتمالك نفسها ، فامسكت لولو وجرتها الى السيارة .
فسأل السائق :
– الى اين نذهب ؟
وتبعهما هنري . كان يبغي ان يستقل السيارة معهما .
لكن ريرات دفعته عنهما بكل قواها واغلقت الباب بعنف. وقالت للسائق:
ـ هيا اذهب، سندلك على العنوان فيما بعد .
وسارت السيارة ، فتراخت ريرات في وسطها . وفكرت في نفسها :
« يا للدناءة ! كانت تكره لولو ».
وسألت بعذوبة :
ـ الى اين تريدين الذهاب ، يا صغيرتي لولو ؟
ولم تجب لولو . فأحاطتها ريرات بذراعها وقالت بلهجة مقنعة :
ـ عليك ان تجيبيني . أتريدين ان اضعك عند بيار ؟
وقامت لولو بحركة اعتبرتها ريرات دالة على الاذعان. وانحنت الى الامام:
ـ ١١ شارع الماسين .
ولما عادت ريرات الى وضعها السابق ، كانت لولو تنظر اليهـــا بوجه غريب .

وبدأت ريرات .

ـ ما الذي ...

فصاحت لولو :

ـ انني اكرهك . وأكره بيار ،وأكره هنري. ماذا تريدون مني جميعاً؟ انكم تعذبونني.

وتوقفت على عجل واضطربت جميع ملامحها . فقالت ريرات بوقار هادىء :

ـ ابكي ، ابكي ، فسينفعك البكاء .

وانطوت لولو على نفسها واخذت تبكي . فأخذتها ريرات بذراعيها وضمتها الى صدرها . كانت تداعب شعرها من وقت لآخر . لكنها كانت تحس في داخلها بالبرود والاحتقار. ولما توقفت السيارة ، كانت لولو هادئة . فمسحت عينيها ووضعت المسحوق على وجهها . وقالت بلطف :

ـ اعذريني ، كنت متوترة الأعصاب .لم أكن اطيق رؤيته على تلك الحال، لقد كان يؤذيني.

فقالت ريرات وقد عاودتها البشاشة :

ـ كان يشبه الأورانج أوتانج .

وابتسمت لولو .

وسألتها ريرات :

ـ متى أراك ثانية ؟

ـ أوه ، ليس قبل الغد . أنت تعرفين ان بيار لا يستطيع ايوائي بسبب أمه ؟ فأنا في فندق المسرح . بامكانك ان تأتي في وقت مبكر ، نحو الساعة التاسعة ، اذا كان هذا لا يزعجك ، لأنني ذاهبة لمقابلة أمي بعد ذلك .

كانت بيضاء شاحبة ، وفكرت ريرات بكآبة بالسهولة التي تتفكك بها ريرات وقالت :

ـ لا تشغلي بالك كثيراً هذا المساء .

فقالت لولو :

ـ أنا متعبة جداً ، وأتمنى ان يتركني بيار لأعود في ساعة مبكرة . لكنه لا يفهم هذه الأمور .

وأبقت ريرات السيارة بانتظارها لتقتادها الى بيتها . وفكرت للحظة بأنها ستذهب الى السينما لكنها لم تعد تتحمل ذلك . فألقت قبعتها على كرسي ومشت خطوة نحو النافذة . لكن السرير كان يجتذبها ، ببياضه ، وعذوبته ، وليونته . فهل تقفز فوقه لتستمتع بمداعبة الوسادة على خديها المحترقين . « انا قوية ، فأنا التي فعلت كل شيء من اجل لولو والآن أراني وحيدة ليس بوسع احـــد ان يفعل شيئاً من أجلي» . كانت تشفق على نفسها كثيراً ، ولشدة شفقتها تصاعدت الى حنجرتها زحمة الدموع . «سيذهبان الى نيس وسوف لا أراهما بعد الآن. فأنا الذي صنعت سعادتها ، لكنهما لن يفكرا بي . وأنا اظل هنا اعمل ثماني ساعات في اليوم ، في بيع اللآلىء المزيفة عند بورما» . ولما انحدرت أوائل الدموع على خديها ، ارتمت برفق فوق سريرها . وكررت وهي تبكي بمرارة :

ـ الى نيس ... الى نيس ... الى الشمس ... على الريفييرا .

- ٣ -

« بواه ! »

ليل أسود . فكأن احداً كان يمشي في الغرفة : إنه رجل يضع في رجليه خفين . كان يقدم بعناية قدمه الأولى ويتبعها بالثانية ، بدون أن يتمكن من تجنب القرقعة على الأرض .يتوقف ، فيعمّ الصمت ، ثم لا يلبث أن يطير الى جانب الغرفة الآخر متابعاً مشيته كالمعتـوه . وكانت لولو تشعر بالبرد ، إذ ان الأغطية خفيفة جداً . وقالت « بواه ! » بصوت عـــال فخافت من صدى صوتها .

بواه ! أنا متأكدة من أنه يتطلع الآن الى السماء والنجوم ، ويشعل سيكارة، وهو في الخارج . وقال إنه يحب اللون البنفسجي في سماء باريس . ويعود الى بيته بخطى وئيدة ، ويحسّ بأنه شاعري عندما يقوم بهذا العمل ، كما قال لي وبأنه رشيق كبقرة يحلبونها ؛ لم يعد يفكر بهذا وأنا أشعر انني تلطخت . ولا يهمني أن يكون طاهراً في هذه اللحظة ، فقد ترك قذارته هنا في الظلام، وهذه منشفة اتسخت ، والغطاء رطب وسط السرير ، فليس بامكاني أن امد رجليّ لأنني سأشعر بالرطوبة تحت جلدي ، يا للقذارة ، لكنه جاف هو ، سمعته يصفر تحت نافذتي عندما خرج . كان تحت النافذة ، جافاً ونشيطاً في ثيابـه الزاهية ، بسترته نصف الفصلية ، وينبغي أن نعترف أنه يحسن هندامـــه ، ويمكن للمرأة ان تفخر بالخروج معه . كان تحت نافذتي ، وأنا عاريـة

في الظلام ، أشعر بالبرد ، وأفرك بطني بيديّ لانني كنت احس بالرطوبة .
« سأصعد دقيقة لأرى غرفتك » . ظل ساعتين ، والسرير يحدث صريراً .
يا له من سرير حديدي قذر . اتساءل في نفسي ما الذي جعله يعثر على هـذا الفندق ، قال لي انه امضى فيـه خمسةعشر يوماً في الماضي ، وبأنني سأرتاح فيه ، إنها غرف مضحكة ، رأيت منها اثنتين ، لم أر قط غرفاً بهذا الصغر، تعج بالأثاث ، فيها طنافس وكنبات،وطاولات صغيرة ، هذا يجعل الحب منتنا، لا أدري اذا أمضى فيه خمسة عشر يوماً ؛ لكنه لم يمض هـذه الأيام بمفرده .
ينبغي ألا يفرط في احترامي لأنه ألتصق بي في الداخل .كان صبي الفندق يهذر عندما صعدنا ، انه جزائري ، انني اكره هذا الشخص وامثاله ، لقد نظر الى ساقيّ ، وبعدها عاد الى المكتب ، وقال في نفسه : « حصـل الأمر ، انهم يقومون بهذا » وتخيل أشياء قذرة ، يبدو أن ما يفعلونه هناك مع النسـاء ، مخيف . فاذا وقعت امرأة تحت ايديهم لا بد وأن تظل عرجاء طيلة حياتها .
وفي الوقت الذي كان بيار يزعجني فيه فكرت بهذا الجزائري الذي فكر بما أقوم به ، وتصور قذارات تفوق القذارات التي حصلت فعلاً . هناك شخص ما في الغرفة !

وضبطت لولو تنفسها ، لكن القرقعة انقطعت فجأة . أشعر بـألم بين فخذي ، يتأكلني ويحرقني ، لدي رغبة بالبكاء ، هكذا طيلة ليـالي إلا في الليلة القادمة لأننا نكون آنئذ على متن القطار . وعضت لولو على شفتهـا لأنها تذكرت انها تنهدت . ليس صحيحاً ، انا لم اتنهد ، بـل تنفست بقوة ، ولأنه ضعيف السمع بحيث انه حين يكون فوقي يقطع لي نفسي . قـال لي :
« تتنهدين ، تلتذين ! » ، أكره الكلام كثيراً عند القيام بهذا العمل ، أريد ان انسى نفسي ، لكنه لا ينفك عن سرد سفاهاته . انا لم اتنهـد في البدء ، وان كنت لا استطيع ان آخذ اللذة ، وهذا أمر واقع ، فالطبيب هو الذي قال لي ذلك ، إلا اذا اجتلبتها لنفسي . إنه لا يريد ان يصدق ، وهم جميعاً لا يريدون ان يصدقوا ، كانوا يقولون لي : « ذلـك لأن البداية سيئة ، انا

سأعلمك اللذة » . وكنت اسمح لهم بذلك ، فأنا اعرف القصة حتى المعرفة ، وهذا سبب طبي ؛ لكن هذا يثير أعصابهم .

كان أحدهم يصعد الدرج. ذاك الذي يهم بالدخول. إلا اذا كان هو نفسه قد عاد. فهو مستعد لذلك إذا دفعته الرغبة. ليس هو، اذ ليست هذه خطى ثقيلة – أو لعله – وهنا قفز قلب لولو في صدرها – الجزائري ، فهو يعلم انني وحدي ، سيأتي ويدفع الباب ، انا لا استطيع احتمال هذا . انه في الطابق الاسفل ، انه شخص يعود الى غرفته ، يضع مفتاحه في ثقب الباب ، يلزمه بعض الوقت ، انه ثمل ، أتساءل من يسكن هذا الفندق ، فيه شيء خاص . صادفت بعد الظهر شقراء على الدرج ، عيناها كعيني المدمن على المخدرات . لم أتنهد ! إلا انه جعلني اضطرب بأشيائه تلك ، انه يحسن العمل . وانا أخاف الأشخاص الذين يحسنون العمل فأنا افضل ان أنام مع رجل طاهر . فاليدان اللتان تذهبان توّاً الى المكان المطلوب ، اليدان اللتان تلامسان وتشدّان قليلاً ، وليس كثيراً جداً... يدان تعتبرانك آلة يفخرون بأنهم يحسنون اللعب بها . انا أكره ان يهزني احد ، إن بلعومي قد جفّ ، كما انني خائفة وفي فمي طعم ، وأشعر بالذل لأنهم يعتقدون بأنهم يسيطرون عليّ . بيار ، سأصفعه عندما يقول مفاخراً : « عندي اسلوب فني » . رباه ، أن نقول ان هذه هي الحياة ، ومن اجل هذا نغتسل ونتجمل . وكل الروايات كتبت من اجل هذا ، ويفكر الناس بهذا طيلة الوقت ، واخيراً ليس هذا سوى أمر بسيط ، ان نذهب مع شخص الى غرفة ، شخص يخنقك نصف اختناق ويبلل جوفك في النهاية . أريد ان أنام ، أوه لو استطيع فقط ان انام قليلاً ، وغداً سأسافر الليل بطوله ، سأكون محطمة . أود مع ذلك ان أحافظ على بعض نشاطي لاتجول في نيس . يبدو انها جميلة ، فيها شوارع إيطالية صغيرة وغسيل ملون يجف في الشمس ، سأقيم مع الركيزة وأرسم ، وستأتي الفتيات الصغيرات ليرين ما اصنعه . يا للقذارة ! (كانت قد تقدمت قليلاً فلامست خاصرتها بقمة الغطاء المبللة) . من اجل هذا هو يصطحبني . لا ،

لا احد يحبني . كان يسير بجواري ، وكانت قواي خـــائرة انتظر كلمة من كلمات المحبة ، فلو قال : « احبك » . لما عدت بالطبع اليه ، غير انني أقول له آنئذ قولاً لطيفاً ، وهكذا نفترق كأصدقاء طيبين ، وانتظرت ؛ انتظرت ، فأخذ ذراعي فتركتها له . فغضبت ريرات، اذليس صحيحاً انه يشبه الأورانج أوتانج ، لكنني كنت أعرف انها تفكر بشيء كهذا ، اذ تنظر اليه شذراً بعينين قذرتين؛انه لمدهش جداً ان تكون قادرة على الشرالى هذا الحد؛ ورغم هذا ، حين أخذ ذراعي لم أقاوم ولكن لست « أنا » التي كنت أريد ، فهو يريد « أمرأته» لأنه اقترن بي وهو زوجي ؛ كان ينقص دائماً من قدري ويقول إنه اكثر مني ذكاء ، وكل ما حصل انمـا حصل بسببه ، فلو عاملني من غير تكبر لبقيت معه حتى الآن . أنا متأكدة من انه لا يأسف عليّ في هذه اللحظة فهو لا يبكي بل يشخر ، وهذا كل ما يعمله؛ انه مسرور لأن السرير أصبح له وحده ؛ وبامكانه ان يمدّ عليه ساقيه الضخمتين . أريد ان أموت . لم يكن بوسعي ان اشرح له شيئاً لأن ريرات كانت بيننا، تتحدث وتتحدث، وكأنها هستيرية . انها مسرورة في الوقت الحاضر ، راضية عن نفسها لمـا أبدته من شجاعة ، يا للخبث، تجاههنري الوديع كالحمل . سأذهب . فليس بأمكانهم ان يرغموني على هجره كالكلب . وقفزت خارج السرير وأدارت الزر . جورباي وغلالتي تكفي . ولم تكلف نفسها عناء تسريح شعرهـا ، فهي مستعجلة من جهة ؛ والناس الذين سيرونها لن يدركوا انها تحت معطفها الرمـادي ، الذي ينزل حتى القدمين . والجزائري — وهنا توقفت وقلبها تخفق بشدة — عليّ ان أوقظه ليفتح لي الباب . ونزلت بخطى حثيثة لكن الدرجـات أخذت تقرقع واحدة واحدة ؛ ونقرت على زجاج المكتب . فقال الجزائري : « ما هذا؟ » كانت عينـــاه مائلتين للأحمرار وشعره مبعثراً ، ولم يكن يبدو عليه سيماء الرهبة .

فقالت لولو بجفاف : « افتح لي الباب » .

وما هي إلا ربـع ساعة حتى طرقت باب هنري . فســأل هنري من

وراء الباب :

– من هنا ؟
– أنا .

لم يجب بشيء، فهو لا يريد ان يسمح لي بالدخول الى بيتي . لكنني سأضرب على الباب حتى يفتحه ، سيعود عن اصراره بسبب الجيران . وما هي إلا لحظة حتى فتح الباب قليلاً وبدا فية هنري ، شاحب اللون على أنفه نقطة احمرار بسيط ، كان بلباس النوم .

وفكرت لولو بجنو : « انه لم ينم » .
« لم اكن أريد الذهاب على هذا الشكل، أردت أن أقابلك » .

لم يقل هنري شيئاً . فدخلت لولو بعد أن دفعته قليلاً . ونظر الي بعينين مدوّرتين وذراعين خائرتين وهو لا يدري ما عليه أن يفعل بجسمه . اسكت، اذهب ، اسكت ، أرى تماماً انك متأثر وبأنك لا تستطيع الكلام . وأجهد نفسه ليبلع ، واقفلت لولو الباب . وقالت :

– أريد ان نهجر بعضنا ونظل اصدقاء .

وفتح فمه وكأنه يريد الكلام ، ودار فجأة حول نفسه وهرب . مـــاذا يصنع ؟ لم تجرؤ على اللحاق به . هل انه يبكي ؟ سمعته فجأة يسعل : انه في المرحاض . وحين عاد ، تعلقت بعنقه وألصقت فمها بفمه : كانت تفوح منه رائحة القيء . وأجهشت لولو بالبكاء . وقال هنري :

– اني اشعر بالبرد .
فاقترحت عليه باكية :

– فلننم ، بامكاني ان ابقى الى صبيحة الغد .

وناما ، وهزّت لولو الدموع المنهمرة لأنها عادت الى غرفتها والى سريرها

الجميل النظيف والضوء الأحمر في الزجاج . وفكرت بأن هنري سيأخذها بين ذراعيه . لكنه لم يفعل شيئاً من هذا ، كان ينام على طول السرير وكأن فيه وتداً . كما انه جامد وكأنه يتحدث الى سويسري . أمسكته برأسه بكلتا يديها ونظرت إليه بامعان . « انت طاهر انت ، انت طاهر » . فأخذ يبكي . وقال :

— كم انا بائس ، لم اكن قط بائساً الى هذا الحد .

فقالت لولو :

— وأنا كذلك .

وبكيا طويلاً . وما هي إلا هنيهة حتى اطفأت النور ووضعت رأسها على كتفه . لو كان باستطاعتنا البقاء على هذه الحال الى الأبد طاهرين كئيبين كالأيتام . لكن هذا مستحيل ، لأنه لا يجري في الحياة . كانت الحياة ، كانت الحياة كموجة ضخمة تذوب فوق لولو وتنتزعها من بين ذراعي هنري . يدك . يدك الكبيرة . انه فخور بيديه لانها كبيرتان ، يقول ان المتحدرين من الامر العريقة لهم دائماً أطراف كبيرة . لم يأخذ قامتي بين يديه — كان يدغدغني قليلاً لكنني فخورة لانه أصبح بامكانه ان يضم أصابعه الى بعضها . وليس صحيحاً انه عاجز ، انه طاهر ، طاهر — وخامل نوعاً ما . وابتسمت من خلال دموعها وقبلته على ذقنه . وقال هنري :

— ما ينبغي ان اقوله لأهلي . ستموت والدتي من هول الخبر .

لن تموت مدام كرسبان من الخبر ، بل بالعكس ستنتصر . سيتحدثان عني عندما يجلسان الى المائدة في الخامسة ، وعليهما سيماء الملامة ، كالناس الذين يريدون ان يقولوا اشياء كثيرة لكنهم لا يستطيعون ذلك ، بسبب وجود تلك الفتاة الصغيرة ، وهي في السادسة عشرة ، وليس بالامكان أن يتحدثوا أمامها عن بعض الأمور . ستضحك لأنها ستعرف كل شيء ، وهي تعرف

دائماً كل شيء وتمقتني . كل هذا الوحل ! والظواهر ليست الى جـــانبي -
ورجته لولو :

– لا تخبرهم في الحال ، تدلهم انني ذهبت الى نيس من أجل صحتي .

– لن يصدقوني .

وقبلت هنري قبلات صغيرة على طول وجهه .

– هنري لم تكن لطيفاً ما فيه الكفاية معي .. فقال هنري :

– هذا صحيح ، لم اكن لطيفاً ما فيه الكفاية .

وأضاف معلقاً :

– ولا انت ، كنت لطيفة بما فيه الكفاية .

فقالت لولو :

-- وأنا كذلك ! هوه ؟ يا لنا من تعيسين !

وبكت بقوة الى حد انها كادت تختنق: سويعات ويطلع النهار، وستذهب، ليس بالامكان ان يفعل المرء ما يريد ، بل انه مساق .

وقال هنري :

– لم يكن ينبغي ان تذهبي على هذه الصورة .

وتنهدت لولو :

– كنت أحبك كثيرا يا هنري .

– والآن ، اقلعت عن حبك لي ؟

– ليس كما في السابق .

– وبصحبة من ستذهبين .

– مع اشخاص لا تعرفهم .

فقال هنري بغضب :

– كيف انك تعرفين أشخاصاً لا أعرفهم ، فأين قابلتهم ؟

– دع عنك هذا يا عزيزي ، يا جلفر الصغير ، فما عليك ان تقوم بدور الزوج في هذه اللحظة !

فقال هنري باكياً :

– تذهبين مع رجل !

– اصغ يا هنري ، اقسم لك ،انني لا أذهب ، اقسم لك على رأس امي، فالرجال يثيرون اشمئزازي كثيراً هذه الايام. فانا أذهب مع اصدقاء ريرات، وهم متقدمون في السن . اريد ان اعيش وحيدة ، سيجدون لي عملاً . أوه يا هنري ؟ لو تدري كم انا بحاجة للعيش بفردي ، ولكم يثير اشمئزازي كل هذا .

فقال هنري :

– ماذا ؟ ما هو الذي يثير اشمئزازك ؟

– كل شيء !

وقبلته :

– انت وحدك الذي لا تثير اشمئزازي يا عزيزي .

وأنزلت يدها تحت بيجاما هنري وداعبت جسمه بجميع انحائه. فارتعش تحت يديها الباردتين لكنه قبل بذلك ، إلا انه قال :

– ساصاب باذى .

– كان فيك ولا شك شيء منكر .

في الساعة السابعة ، نهضت لولو ، وقد تورمت عيناها من شدة البكاء ، وقالت باعياء :

— عليّ أن اعود الى هناك .
— اين هناك ؟
— انا في فندق المسرح في شارع فاندام . انه فندق قذر .
— ابقي معي .
— كلا يا هنري ارجوك ، لا تلح عليّ ، قلت لك ان هذا مستحيل .
— ان الامواج هي التي تحملك ، انها الحياة . وليس بامكاننا ان نطلق الاحكام ، ولا ان نفهم الامور ، وما علينا الا ان ندع الامور تجري . وغداً سأذهب الى نيس .

ودخلت الى المغسلة لتغسل عينيها بالماء الساخن . وارتدت معطفها وهي ترتجف . « لكأنه مصير محتوم . شريطة ان اتمكن من النوم في القطار هذه الليلة ، والا فستخور قواي حال وصولي الى نيس . آمل ان يكون قد حجز في الدرجة الاولى . انها المرة الاولى التي اسافر فيها بالدرجة الاولى . هكذا دائماً تكون الامور: ها قد مرت سنوات وانا ارغب في القيام برحلة طويلة بالدرجة الاولى وما ان تحقق هذا الحلم حتى لم أعد اجد لذة فيه ».

كانت تستعجل ذهابها ، في الوقت الحاضر ، لان هذه اللحظات الاخيرة كانت من الامور التي لا تطاق . وسألته :

— ماذا ستفعله مع غالوا ؟

كان غالوا قد طلب اعلاناً من هنري ، ولما قام هنري بتنفيذ الطلب في الوقت الحاضر ، رفضه غالوا .

وقال هنري :
— لا أدري .

كان قد انطوى على نفسه تحت الاغطية ، ولم يعد يرى سوى شعره وطرف اذنه . وقال بصوت بطيء رخو :

ـ أريد ان انام طيلة ثمانية ايام .

فقالت لولو :

ـ وداعاً يا عزيزي .

ـ وداعاً .

وانحنت قليلا فوقه ، وازاحت الاغطية عنه وقبلته في جبينه . مكثت طويلاً على الدرج ، بدون ان تصمم على اغلاق باب الشقـــة . وما هي إلا لحظة ، حتى أدارت عينيها وجرّت القبضة بقوة . وسمعت ضجة جافة وكاد ان يغمى عليها : لقد اعتراها نفس الانطباع الذي احست به عندما ألقوا برفش من التراب فوق نعش أبيها .

« لم يكن هنري لطيفاً . كان ينبغي ان يقف ويرافقني حتى البـــاب . يبدو لي ان حزني كان اقل لو انه اغلق الباب بنفسه »

- ٤ -

قالت ريرات وهي تنظر الى البعيد .

ــ لقد أقدمت على هذا العمل ! اقدمت على هذا !

الوقت مساء . نحو الساعة السادسة كان بيار قد اتصل هاتفياً بريرات فجاءت لمقابلته في مقهى القبة .

وقال بيار :

ــ ولكن أنت ، أما كان ينبغي ألا تذهبي لمقابلتها في الساعة التاسعة ؟

ــ لقد قابلتها .

ــ لم تكن هيئتها غريبة ؟

فقالت ريرات :

ــ كلا . لم ألاحظ شيئاً . كانت متعبة نوعاً ما ، لكنها قالت لي انها نامت نوماً سيئاً بعد ذهابك لأنها كانت شديدة التأثر أمام فكرة السفر الى نيس ولأنها كانت تخشى الصبي الجزائري .. كما أنها سألتني اذا كنت أعرف هل انك اخترت المكان في الدرجة الأولى ، اذ ان هذا حلم حياتها .

وأضافت ريرات بتصميم :

ـ كلا أنا متأكدة من ان شيئاً من هذا القبيل لم يبد على وجهها ، طيلة وجودي معها على الأقل . لقد مكثت ساعتين معها ، وانني شديدة الملاحظة لأشياء كهذه ، ويدهشني ان يفوتني منها أمر ما . ستقول لي انها كتومة جداً ، لكنني أعرفها منذ أربع سنوات ورأيتها في زحمة المناسبات ، انني أضع لولو على طرف اصبعي .

ـ اذا ان هناك من دفعها الى ذلك .

ـ فيا له من أمر مضحك ...

وحلم لبضع ثوان وأضاف فجأة :

ـ أود ان أعرف من الذي أعطاهم عنوان لولو : فأنا الذي اخترت الفندق ولم تكن قد سمعت به مسبقاً .

كان يعبث برسالة لولو ، وريرات يبدو عليها الانزعاج لأنها تريد قراءة الرسالة ، لكن بيار لم يقترح عليها ذلك . وسألت اخيراً :

ـ متى تلقيتها ؟

ـ الرسالة ؟

فأعطاها اياها ببساطة :

ـ خذي ، بامكانك قراءتها . لعلهم وضعوها عند الحاجب نحو الساعة الواحدة .

كانت ورقة بنفسجية رقيقة ، كالأوراق التي تباع في مخازن التبغ :

« عزيزي الكبير .

« جاء آل تكزيي (لست ادري من أرشدهم الى العنوان) . سأسبب

لك متعبة ، لن أذهب يا حبيبي ، يا عزيزي بيار . سأظل مع هنري لأنه تعيس جداً . جاؤوا لزيارته هذا الصباح ، لم يكن يريد أن يفتح ، وقالت السيدة تكزبي ان صورته لم تعد كصورة الانسان . كانوا لطفاء جـداً وفهموا جميـع مبرراتي ، وقالت انه مصدر الاخطاء كلها ، وانه دب،ولكنه ليس شريراً في جوهره . وقالت انه يستحق هذا التصرّف ليدرك الى اي حد يتمسك بي.لا أدري من الذي سلمهم عنواني ، لم يقولوا ذلك لي ، لعلهم شاهدوني صدفة حين خرجت من الفندق بصحبة ريرات . وقالت لي السيدة تكزبي انها تدرك تماماً قيمة التضحية التي تطلب اليّ القيام بها ،لكنها تدرك انني لن اتخلف عن القيام بالتضحية . انني آسف كثيراً على رحلتنا الجميلة الى نيس ، يا حبيبي . أنا لك من كل قلبي وبكل جسمي ، وسنتقابل أكثر مما كنا نتقابل في الماضي .لكن هنري سينتحر بدوني ، فأنا بالنسبة اليه لا يمكن الاستغناء عني وأؤكد لك بأنني لا أجد متعة في تحمل مسؤولية كهذه.وآمل ألا تغضب كثيراً كعادتك فتخيفني فأنت لا تريد ان يعتريني عذاب الضمير . سأعود الى بيت هنري في الحال . ولا بد وان أكون مزعوجة حين ألاقيه على هذه الحال لكنه ستكون لدي الشجاعة حتى أفرض شروطي . أولاً أريـد مزيداً من الحرية لانني أحبك ، وأريد ان يترك روبير وشأنـه والا يتفوه بكلمة بحق والدتي . عزيزي ، أنا حزينة جداً ، أريدك ان تبقى هنـا ، فأنا راغبة بك ، وأضمّ صدري اليك وأشعر بدغدغتك في جميـع أنحـاء جسمي . سأكون غداً في الخامسة في مقهى القبة —

لولو »

— يا لك من مسكين يا بيار .

أخذته ريرات بيده . فقال بيار :

— أقول لك انني اندم من أجلها هي فقط ! كانت بحاجة للهواء وللشمس.

لكنها إذ تقدم على هذا القرار ...

وأضاف :

– كانت أمي تسبب ليّ متاعب شديدة . فالدارة هي ملكها ، ولم تكن تريد ان أقود اليها أية أمرأة .

فقالت ريرات بصوت شبه مقطوع :

– آه ! آه ! حسناً جداً ، فان الجميع مسرورون !

وتركت يد بيـــار وأحست بدون ان تعرف السبب ، بالأسف المرير يجتاحها .

طفولة قائد

« أنا رائع في بذلة الملاك هذه » . قالت السيدة بوتيه لأمي :

– ولدك الصغير يلذ أكله . فهو رائع في بذلة المـــلاك . وجذب السيد بوناردييه لوسيان الى ما بين ساقيه وداعب ذراعه وقال مبتسماً :

– حقاً إن هذه الفتاة صغيرة .

– ما اسمك ؟ جاكلين أولوسيانه أو مارغو ؟

ولم يكن متأكداً من انه ليس فتاة صغيرة : فكثير من الناس قبلوه وهم يدعونه بالآنسة ، ووجده الجميــع جذاباً بجناحيه الملائكيين ، وبثوبه الأبيض الطويل ، وبذراعيه المكشوفتين وبجدائـــله الشقراء . كان يخشى ان يقرر الناس فجأة انه لم يعد صبياً . ولطالما احتج ، ولكن أحداً لم يصغ اليـــه ، ولم يسمح له بخلع فستانه إلا حين يريد ان ينام ، وفي الصباح عندما يستيقظ يجد الفستان على طرف السرير ، وعندما يريد ان يبول أثناء النهار ، كان عليه أن يشمر فستانه مثل نانيت ، وأن يجلس القرفصاء على رجليه . كان الجميــع ينادونه : يا عزيزتي الصغيرة ، لعل الامر قد انتهى و« اصبحت » فتاة صغيرة . كان يحس بأنه شديد الرقة من الداخل ، كما ان فمه يخرج من بين شفتيه بمقدار ، وهو يقدم الزهور لجميــع النـــاس بحركات دائرية . وفكر . ليس هذا حسناً . كان بودّه ألا يكون هذا حسنـــاً ، لكنه تسلى كثيراً يوم الثلاثاء من ايام الفصح ، ارتدى ثياباً على طريقة بيارو ، وركض وقفز وهـو يضحك مع ريري ، كما اختبأ تحت الطاولة . وضربته أمه ضربة خفيفـــة

وقالت : « أنا فخورة بولدي الصغير». كانت قوية الشخصية جميلة ، وهي أكثر النساء سمنة . وعندما مر أمام الطاولة الكبيرة المغطاة بغطاء أبيض رفعه أبوه وكان يحتسي قدح الشمبانيا وقال له : « يا رجلي الطيب ! » وأراد لوسيان أن يبكي وان يقول « نا ! » وطلب عصير البرتقال المثلج وكان قد منع عنه. لكنهم صبوا له قدر إصبعين في كأس صغير . كان طعمه كريهاً وليس شديد البرودة : أخذ لوسيان يفكر بالعصير الممزوج بالخروع ، وكان قد شربه أثناء مرضه . وأجهش بالبكاء ووجد تعزية لنفسه في الجلوس بين أمه وأبيه في السيارة . كانت الوالدة تضم لوسيان اليها ، وهي معطّرة دافئة ، ترتدي لباساً حريرياً . وكان داخل السيارة يتحول من وقت لآخر الى لون أبيض كالطبشور ، فيحرك لوسيان عينيه ، إن الزهور التي كانت موجودة على صدرية أمه ، كانت تخرج من الظل فيتنشق لوسيان رائحتها . وبكى قليلاً بعد ذلك لكنه أحس بأنه مبلل ،وكريه نوعاً ما كذاكالعصير . إنه يفضل ان يتخبط في المغطس وتغسله أمه بالاسفنج . وسمح له بأن ينام في غرفةأبيهوأمهكما لو كان صغيراً.فصار يضحك ويحرك حديد السرير فيقول والده « هذا الولد شديد الهيجان » . وشرب قليلاً من ماء الورد ورأى أباه بالقميص .

وفي صبيحة الغد كان لوسيان متأكداً من أنه نسي شيئاً ما . انه يتذكر تماماً الحلم الذي رآه : أبوه وأمه يرتديي كلاهما ثوب الملائكة ، ولوسيان جالس بدون ثياب فوق مبولته ،يضرب على الطبل ،وأبوه وأموه يدوران حوله . كان ذلك كابوساً . ولكن هناك شيئاً ما حدث قبل الحلم ولما حاول التذكر ، رأى نفقاً طويلاً مضاء بمصباح أزرق شبيه بالمصباح الذي يضيئونه مساء في غرفة أبويه . وفي قعر هذا الليل المعتم الأزرق ، قد حصل شيء ما — شيء ما أبيض اللون . وجلس على الأرض عند قدمي أمه وأمسك طبله . فقالت له أمه : « لماذا تنظر بهاتين العينين يا جوهرتي ؟ » فأخفض عينيه وضرب على طبله وهو يصيح : « بوم ، بوم ، ترا را بوم » . لكنها لما اشاحت بوجهها

بدأ ينظر اليها بامعان وكأنه يراها للمرة الأولى . الفستان الأزرق كان يعرفه، والوجه أيضاً . إلا أنه بات مختلفاً . وظن فجأة بأن الأمر قد تم . فلو فكر قليلاً لتوصل الى ما يريد . وأضيء النفق بنور داكن، كان شيء ما يتحرك . وخاف لوسيان وأطلق صيحة : لقد اختفى النفق . وقالت أمه : «ما بك يا عزيزي الصغير ؟ » لقد ركعت على مقربة منه وعليها سيماء القلق . فقال لوسيان : « انني اتسلى » . كانت رائحة والدته لذيذة ، لكنه خشي ان تمد يدها اليه . كانت تبدو مضحكة وكذلك أبوه . وقرر الا ينام بعد اليوم في غرفتها .

في الأيام التالية ، لم تلحظ الوالدة شيئاً فهو دائماً في حضنها يحدثها كالرجل الكبير . وطلب اليها ان تقص عليه قصة الفتاة والذئب ، ووضعته والدته على ساقيها . وأخبرته عن الذئب وعن جدة الفتاة . ولوسيان ينظر اليها ويقول : « وبعدها ؟ » وكان يداعب في بعض الأحيان الأقراط التي في عنقها ، لكنه لم يكن يصغي اليها بل يتساءل اذا كانت هي أمه الحقيقية . وعندما تفرغ من قصتها يقول لها : « أمي ، أخبريني عندما كنت فتاة صغيرة » . وأخبرته أمه : ولعلها تكذب عليه . لعلها كانت في الماضي صبياً صغيراً ألبسوها فساتين – كما فعلوا مع لوسيان في تلك الأمسية – وأنها لا تزال ترتديها للتظاهر بأنها فتاة . وجسّ برفق ذراعيها الجميلتين اللتين كانتا ناعمتين كالزبدة تحت الحرير . ماذا يحدث لو خلعت أمه فستانها وارتدت سروال ابيه ؟ لعل شاربين اسودين ينبتان في وجهها . وشد على ذراع أمه بكل قواه . وتهيأ له انها ستتحول امام عينيه الى وحش رهيب أو ان تصبح أمرأة ذات لحية كأمرأة المعرض . وضحكت فاتحة فمها الواسع ، فأبصر لوسيان بلسانها الوردي وبآخر بلعومها : كان قذراً ، واعترته رغبة في ان يبصق فيه . وتقول امه ، « هـا ها ها ! كم انك تشدني يا رجلي الصغير ! شدني بقوة . بقدر ما تحبني » . وتناول لوسيان إحدى اليدين الجميلتين ذات الخواتم الفضية وأمعن فيها تقبيلاً .ولكن، في صبيحة اليوم التالي، وبينما كانت

تجلس بجواره تمسك بيديه بينما هو قاعـد فوق المبولة ، تقول له : « اضغط يا لوسيان ، اضغط ، يا جوهرتي الصغيرة » . وتوقف فجأة عن الضغط وسألها لاهثاً : « هل أنك امي الحقيقية على الأقل ؟ » وقـالت له « أيها المغفل الصغير » . وسألته اذا كان سيتم الشيء بسرعة . منذ ذلك اليوم بات لوسيان مقتنعاً من انها تقوم بالتمثيل أمام عينيه ، ولن يقول لها انه سيتزوجها عندما يصبح كبيراً . لكنه لم يكن يعرف كثيراً ما هي تلك المهزلة : إذ من الممكن ان يكون اللصوص قد جاؤوا في الليل فسرقوا أمي وأبي ووضعوا هذين في مكانهما . او انهما ابواي الطيبان ، لكنهما يلعبان دوراً في النهار ، بينما همـا يختلفان في الليل . لم يندهش لوسيان كثيراً عشية الميلاد حين استفاق مذعوراً ورآهما يضعان الألعاب في المدخنة . وفي الصباح تحدثا الى البابا نويل، وتظاهر لوسيان بأنه يصدقهما . فظن ان ذلك من ضمن أدوارهما . ولعلهما سرقـا الألعاب .في شهر شباط اصيب بالحمى الحصبية وتسلى كثيراً.

ولما شفي ، اعتاد على تمثيل دور اليتيم . كان يجلس وسط المرج ، تحت شجرة الكستناء، يملأ يديه بالتراب ويفكر : « سأصبح يتيماً وسأدعى لويس. ولن أتناول طعاماً قبل ستة أيام » . ونادته الخادمة جرمين ليتناول طعـام الغداء ، جلس الى المائدة وتابـع اللعبة . ولم يلاحظ أمه وأبوه شيئاً . لقـد التقطه لصوص يريدون ان يجعلوا منه نشالاً . وحين ينتهي من تناول الطعام، سيهرب ليشكوهم . أكل وشرب قليلاً جداً . كان قد قرأ كتاب فندق الملاك الحارس ، ان الوجبة الأولى التي يتناولها الرجل الجائـع تكون خفيفة .كان شيئاً ممتعاً لأن الجميـع يلعبون . فأمه وأبوه يلعبان دور الأب والأم . والأم تلعب دور المعذبة لأن جوهرتها لا تأكل كفايـة ، وأبوه يلعب دور قارىء الجريدة ويهز من وقت لآخر اصبعه في وجه لوسيان قائلا :«بدا بوم ، أيهـا الرجل الطيب » . ولوسيان كان يلعب ايضاً ، ولكنه خلص في النهاية الى عدم تميز الشيء الذي كان يلعب بـه . أهو يلعب دور اليتيم ؟ أو دور لوسيان ؟ ونظر الى القنينة . كان هناك ضـوء احمر خافت يتراقص في قعر

المياه ، ولعله بالإمكان ان نقسم بأن يد أبيه كانت في القنينة ، وهي كبيرة مشعة ، على أصابعها شعيرات سوداء . وتهيأ للوسيان ان القنينة تلعب دور القنينة . واخيراً ، لم يكن يمد يده الى الأطباق وقت الطعام ، وبعد الظهر جاع كثيراً مما اضطره الى سرقة اثنتي عشرة خوخة وكاد أن يصاب بعسر الهضم . وفكر بأنه اكتفى من لعب دور لوسيان .

ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن ذلك وبدا له طيلة الوقت انه يلعب . كان بوده أن يكون مثل السيد بوناردييه الدميم الخلقة والرصين معاً . كان السيد بوناردييه حين يريد ان يأكل ، ينحني على يد الوالدة قائلا لها : «تحياتي، يا سيدتي العزيزة » . ويقف لوسيان وسط قاعة الاستقبال متطلعاً باعجاب». ولكن لم يكن يحصل للوسيان اي امر هام . فحين يقع ويتورم ، يتوقف عن البكاء ويتساءل : « هل صحيح أنني تورمت ؟ » عندها يشعر بأنه أكثر كآبة وتنهمر الدموع من عينيه . ولما قبّل يدي الوالدة وهو يقول لها : « تحياتي يا سيدتي العزيزة » . وبعثرت الوالدة شعره قائلة له :

« ليس هذا مناسباً ، يا فأرتي الصغيرة ، فلا ينبغي ان تهزأ من الاشخاص الكبار» . وأحس بأن همته قد ثبطت . ولم يكن يتوصل لايجاد بعض الأهمية لنفسه الا اول جمعة وثالث جمعة من الشهر . ففي هذين اليومين ، كان كثير من النساء يأتين لزيارة أمه ، من بينهن اثنتان أو ثلاثة في ثياب الحداد . كان لوسيان يحب النساء المتشحة بالسواد خصوصاً إذا كانت أرجلهن كبيرة . كان يستمتع بوجود الأشخاص الكبار بصورة عامة ، لأنهم شديدو الوقار ، ولا يمكن ان يغفلوا أنفسهم فوق الأسرة عابثين كالأولاد ، ولا يمكن ان تتصور ما يوجد تحت ثيابهم لكثرة تلك الثياب وتنوعها . وعندما يكونون معاً ، فهم يأكلون من كل شيء ويتحدثون ، حتى ضحكاتهم فهي رزينة ، وجميلة كوقت القداس . كانوا يعاملون لوسيان وكأنه إحدى الشخصيات . كانت مدام كوفان تأخذ لوسيان في حضنها وتجس مؤخرته قائلة : « انه اجمل

ظريف رأيته » . عندها ، تسأله عن أذواقه ،وتقبله وتستفسر عما يريد ان يفعله في المستقبل . وتارة ما كان يجيب بأنه سيصبح قائداً كبيراً على غرار جان دارك وبأنه سيستعيد الألزاس واللورين من الألمان ، وطوراً يفكر بأن يكون بشراً . كان يصدق نفسه ، طيلة الوقت الذي يتكلم فيه . كانت السيدة بيس أمرأة طويلة قوية ذات شاربين صغيرين . تقلب لوسيـــان وتدغدغه قائلة : « يا لعبتي الصغيرة » . ولوسيان يشعر بلذة ويرتعش تحت يديهـا اللتين تداعبانه . وفكر بأنه لعبة صغيرة ، لعبة صغيرة جذابة للأشخاص الكبار وتمنى لو ان السيدة بيس تنزع ثيـــابه ، وتغسله وتضعه في سرير صغير لينام كجسم من المطاط . وكانت مدام بيس تقول أحياناً : « هل تنطق لعبتي ؟ » وتضغط على معدته فجأة . عندها ، يتظاهر لوسيان بأنه لعبة آلية ويقول : « كويك » بصوت مخنوق ، مما يضحك الأثنين معاً .

كان يسأله الكاهن الذي يأتي لزيارتهم نهار السبت إذا كان يحب والدته . ولوسيان يحب والدته الجميلة حتى العبادة وكذلك أباه القوي الطيب .فيجيب : « نعم »وهو ينظر الى الكاهن في عينيه ، بهيئة تضحك الجميع . كان رأس الكاهن كثمرة التوت . وقال للوسيان ان هذا حسن ، وان على المرء ان يحب امه دائمـــاً . ثم سأله إذا كان يفضل والدته على الله او بالعكس . ولم يستطع لوسيان ان يعثر على الاجابة بسهولة فراح يضرب الأرض صائحاً : « بوم ، ترا را بوم » . وتابع الأشخاص الكبار حديثهم وكأنه ليس موجوداً .وركض الى الحديقة وتسلل الى الخارج من البوابة الخلفية. وحمل عصاه الصغيرة المصنوعة من الخيزران . لم يكن لوسيان بالطبع يريد الخروج من الحديقة ، فهذا ممنوع. ومن عادة لوسيان ان يكون مطيعاً لكنه قرر هذه المرة ان يعمد الى العصيان ونظر الى العوسجة نظرة ملؤها التحدي . من الواضح انه مكان ممنوع . كان الجدار محمراً ، والعوسجات نباتات خبيثة ضارة ، وقد قضى كلب من الكلاب حـــاجته على جذع العوسجة . كانت تفوح رائحة العوسجة ، وبعرة الكلب والنبيذ الساخن . وضرب لوسيان العوسجة بعصاه صائحاً : « أنا أحب أمي ،

أنا أحب أمي » . ورأى أغصان العوسج تتكسر وتنزاح عنها قشورها . وسمع صوتاً صغيراً منفرداً يصيح : « أحب امي . أحب امي » . كانت هناك ذبابة كبيرة تئز : كانت ذبابة من تلك التي تحوم على الأقذار ، فزع لوسيان منها وملأت منخريه رائحة عفنة . وكرر بقوله : « أحب امي » . لكن صوته بدا غريباً ، فاعتراه خوف شديد ففرّ لتوه الى قاعة الاستقبال . منذ ذلك اليوم، فهم لوسيان انه لا يحب أمه . ولم يكن يشعر بالذنب بسبب ذلك، لكنه ضاعف من دماثته لأنه فكر بأن من الواجب ان يتظاهر الانسان طيلة حياته بأنه يحب أهله وإلا فيكون ولداً شريراً . كانت السيدة فلوربيه تجد لوسيان شديد الرقة . واندلعت الحرب في هذا الصيف ، وذهب الأب الى القتال ، ورأت الأم نفسها سعيدة ، وسط أحزانها ، باهتمام لوسيان بها . ففي كل مرة تذهب فيها الى الحديقة ، يعمد لوسيان الى حمل مخدة يضعها تحت رأسها او أنه يحمل غطاء ويضعه فوق ساقيها فتقول له : « لكن هذا سيجعلني أشعر بشدة الحر ، كم انت لطيف يا رجلي الصغير» . وكان بدوره يقبلها بعنف قائلاً لها :

« يا أمي أنا ! ». ويذهب ليجلس في ظل شجرة الكستناء .

ويقول « شجرة الكستناء » وينتظر . لكن أي شيء لم يحصل . كانت الوالدة مستلقية تحت الشرفة ، وسط سكون خافت . وكانت تفوح رائحة العشب الساخن ، والجو ملائم لتقليد المغامرين في الغابة العذراء . لكن لوسيان لم يعد يرغب باللعب . والهواء يرتجف فوق الجدار ، والشمس تصنع بقعاً محرقة على الأرض وعلى يدي لوسيان . « شجرة الكستناء ! » كان أمراً مثيراً ، حين يقول لوسيان لأمه « يا امي الجميلة ، يا امي أنا » . تضحك أمه ، وحين ينادي جرمان بالبندقية القديمة ، تبكي جرمين وتشكوه الى الوالدة . ولكنهم حين يلفظون كلمة شجرة الكستناء ، لم يكن يحصل شيء . وتمتم من بين أسنانه « يا لها من شجرة قذرة » . ولم يكن مطمئناً ، ولكن بما أن

الشجرة لا تتحرك ، لذا يضيف بصوت أكثر ارتفاعاً : « يا للشجرة القذرة ، يا لشجرة الكستناء القذرة ! انتظري وسترين ، انتظري قليلاً ! » وكان يرفسها برجله مرات عديدة . وتظل الشجرة هادئة ، هادئة — كما لو انها من خشب . وفي المساء ساعة العشاء يقول لوسيان لأمه : « هل تدرين يا أمي ، الأشجار هي من الخشب ».يقول ذلك بوجه المدهوش الذي تحبه الأم كثيراً.غير ان السيدة فلوريبه لم تتلق رسالة في بريد الظهر . فقالت بجفاف : « لا تكن سمجاً » . صار لوسيان يكسر كل شيء . كسر جميع لعبه ليرى كيف صنعت ، وقطع ذراع الكنبة بسكين أبيه القديم . وعندما يتنزه كان يقطع النباتات والأزهار بعصاه :كما كان في كل مرة يصاب بخيبة امل،فالأشياء ليست مصنوعة صنعاً حسناً.وغالباً ما تسأله أمه وهي تدله على الأزهار أو الاشجار: « ما اسم هذه ؟ » لكن لوسيان يهز رأسه ويقول : « ليس هذا شيئاً ، واسمها لا شيء » . كل هذا ليس جديراً بأن يسترعي الانتباه ، إذ كان من الأسهل قطع رجل جرادة ، لأنها تهتز بين الأصابع كالدوامة وإذا ضغطنا على بطنها ، خرج منه سائل اصفر . لكن الجرادات لم تكن لتصرخ مع ذلك . كان بود لوسيان أن يؤذي الحيوانات التي تصرخ عند ايذائها ،كالدجاجة مثلاً ، لكنه لم يجرؤ على الاقتراب من تلك الحيوانات وعاد السيد فلوريبه في شهر آذار لأنه كان ربّ عمل،وقال له القائد بأن من الأفضل ان يظل في مصنعه على أن يمضي وقته في الخنادق كأي كان . ووجد لوسيان قد تغير كثيراً ولم يعد يرى فيه رجله الطيب . وقع لوسيان في نوع من الروبصة : كان يجيب برخاوة ، ويحشو اصبعه في انفه أو ينفخ في يديه ثم يشمها ، وكان عليهم أن يرجوه ليقضي حاجته . وهو يذهب الآن تلقائياً الى المكان الصغير ، كان من الضروري فقط أن يظل الباب مفتوحاً نصف فتحة وان تأتي لتشجيعه أمه أو جرمين . كان يبقى ساعات عديدة على العرش كما كان ينام في بعض الأحيان . قال الطبيب انه ينمو بسرعة ووصف له دواء يساعد على بناء الجسم . وأرادت الوالدة أن تعلم لوسيان ألعاباً جديدة ، لكن لوسيان وجد

أن ما يعرفه من ألعاب يكفيه وأن جميع الألعاب سواء . كان يبدي استياءه أكثر الاحيان ، وهذا ايضاً نوع من انواع اللعب ولكنه أكثر تسلية . إن الوالدة تتعذب ، اصبح الجميع حزينين حاقدين ، كما اصبحوا مكمومي الافواه متجهمي الوجوه ، والطقس حار في الداخل كما لو كان المرء في فراشه تحت الغطاء يشم رائحة نفسه ، ولم يعد لوسيان يستطيع تجنب الاستياء ، وعندما يقول له ابوه « انت تقلد معي الخنزير » يرتمي لوسيان على الأرض ويبكي كثيراً . لا يزال يذهب كثيراً الى قاعة الاستقبال حين تستقبل والدته الزائرين ، ولكن اهتمام الناس به قد تضاءل منذ أن قصوا له جدائله . أو إذا ما التفتوا اليه، فلكي يشرحوا له درساً في الأخلاق أو يقصوا عليه قصة لإرشاده . عندما أتى ابن خالته ريري الى فيرول، بسبب القاء القنابل ، برفقة خالته برت الجميلة ، سرّ لوسيان كثيراً وحاول ان يعلمه اللعب . لكن ريري كان يهتم أكثر بكره الألمان ، ثم إنه لا يزال يشعر بأنه طفل رغم انه أسن من لوسيان بستة أشهر . وكانت على وجهه بقع صفراء ، كما انه لا يفهم الامور في جميع الاوقات . لكنّ لوسيان أفضى اليه بالسرّ ، انه مروبص . بعض الاشخاص يفيقون في الليل ، فيتكلمون ويتنقلون وهم نيام : قرأ لوسيان هذا في كتاب المغامر الصغير وفكر بأنه من الواجب أن يوجد شخص حقيقي اسمه لوسيان يمشي ويتحدث ويحب ابويه حباً صادقاً في الليل . لكنه بمجيىء النهار ، كان ينسى كل شيء ويعود الى التظاهر بأنه لوسيان . في البدء لم يكن لوسيان يؤمن كثيراً بهذه القصة ، لكنه ذهب في احد الايام مع ابن خالته إلى العوسجات ، واظهر ريري عضوه للوسيان وقال له : « كم هو كبير ، أنا صبي كبير . وعندما يصبح كبيراً جداً، عندها أصير رجلاً وأذهب لاقاتل الالمان في الخنادق ». وجد لوسيان ريري مضحكاً جداً واخذ يقهقه بقوة . وقال ريري : « أرني الذي لك ». واجريا المقابلة فكان عضو لوسيان أصغر، لكن ريري غشه : اذ شد على عضوه ليزيد في طوله . وقال ريري : أنا الذي أملك عضواً اكبر . فقال لوسيان بهدوء :

– نعم ، ولكنني أنا المروبص . لم يكن ريري يعرف مـا هو المروبص ، وشرح له لوسيان ذلك . وعندما انتهى فكر في نفسه : « إذا فصحيح أني مروبص » . واعترته رغبة شديدة في البكاء . وبما انهما كانا ينامان في فراش واحد ، اتفقا على ان يبقى ريري مستيقظاً طيلة الليل ويراقب لوسيان عندما ينهض ، ويحفظ كل ما يتفوه به لوسيان .

وقال لوسيان :

– ستوقظني بعد هنيهة ، لأرى اذا كنت أتذكر ما فعلته؟ . وفي المساء سمع لوسيان الذي عجز عن النوم الشخير الحاد وأيقظ ريري . وقال ريري : « زنجبار » .

– استيقظ يا ريري فعليك ان تراقبني حين استيقظ .

فقال ريري بصوت رخو :

– دعني أنم .

فهزه لوسيان وقرصه تحت قميصه ، فأخذ ريري يلبط برجليـــه وظل مستيقظاً ، مفتوح العينين ، وعلى شفتيه ابتسامة طريفة . وفكر لوسيان بدراجة كان على أبيه ان يشتريهـــا له ، وسمع صفير القطار ، وفجأة دخلت الخادمة وأزاحت الستار ، كانت الساعة قد بلغت الثامنة صباحـــاً . لم يدر لوسيان قط ما اقدم عليه طيلة الليل . أما الله فكان يعرف ، هو ، لأن الله يرى كل شيء . كان لوسيان يركع في مكان العبادة ويجهد نفسه لكي يكون عاقلاً ، حتى تهنئه والدته عند انتهاء القداس ، لكنه كان يمقت الله : لأن الله يعرف عن لوسيان اكثر مما يعرف لوسيان عن نفسه . يعرف الله ان لوسيان لا يحب أمه ولا أباه ، وأنه يتظاهر بأنه عاقل ، وأنـــه يلامس عضوه عند المساء في السرير . ولحسن الحظ ، ليس بامكان الله ان يتذكر كل شيء ، لأن في العالم كثيراً من الصبيان الصغار . فحين يضرب لوسيان على جبينه قـائلاً :

« بيكوتان » كان الله ينسى لتوّه مـا يراه . وألقى لوسيان على عاتقه مهمة اقنـاع الله بحبه لأمه . « لكم أحب أمي العزيزة » لكن فيه زاوية صغيرة لم تكن مقتنعة ، والله بالطبع يرى هذه الزاوية الصغيرة . وفي هــذه الحال يكون « هو » الرابح . لكن بامكان المرء أحياناً ان يؤخذ تماماً بكل مـا يقوله . إذ يقول : « أوه ! كم احب والدتي » ، بلفظ جميل ، فيحس بأنـه يرق ، ويفكر تفكيراً مبهماً ، بأن الله ينظر اليه ثم لا يعود يفكر ، اذ يصبح مأخوذاً بالحنو . ثم ان هناك كلمات تتراقص في الأذن : « أمي . أمي .أمي» ولا يستمر هذا سوى لحظة بلا ريب ، وكأن لوسيان يريد أن يوقف الكرمي على رجلين اثنين . وفي هذه اللحظة يقول : « باكوتا » فيصنع الله من جديد : فهو لم ير سوى الخير ، وما رآه يعلق في ذاكرته نهائيـاً . بيد ان لوسيان قد سئم هذه اللعبة لأنها تستوجب جهوداً عنيفة ، ولا ندري في النهاية إذا كان الله قد ربح أم خسر . ولم يعد لوسيان يهتم بالله . ولمـا تناول للمرة الاولى ، قال عنه الكاهن إنه أعقل وأتقى صبي في التعليم المسيحي . كان لوسيان يفهم بسرعة كما ان ذاكرته قوية ، لكن رأسه مليء بالضباب .

يوم الأحد انقشع الضباب ، وتمزق عندما كان لوسيان يتنزه برفقة والده على طريق باريس . كان يرتدي بذلته الصغيرة الزرقاء ويصادف عمال أبيـه الذين كانوا يقدمون التحية له ولأبيه . كان الأب يقترب منهم فيقولون : مرحباً أيها السيد فلوريبه . ولوسيان يحب العمال كثيراً فهم أشخاص كبار ، لكنهم ليسوا كسائر النـاس . في البدء كانوا ينادونه يا سيد . ثم انهم كانوا يعتمرون القبعات وأيديهم الضخمة ذات الأظافر القصيرة يبدو عليهـا الألم . انهم مسؤولون ووقورون . لا ينبغي ان يشد شاربي الأب بوليفو : لأن والد لوسيان يزجره . لكن الأب بوليفو عندما يحدث أباه : يخلع خوذته ، بينما يبقي كل من لوسيان وأبيه قبعتيهما على رأسيهما ، وكان ابوه يتحدث بصوت باسم غليظ :

— حسناً أيها الاب بوليفو ، اننا ننتظر ولده، حتى يحين موعد فرصته ؟

– في آخر الشهر ايها السيد فلوريبه ، شكراً يا سيد فلوريبه .

الاب بوليفو كان سعيداً ولم يكن ليسمح لنفسه بـأن يضرب على مؤخرة لوسيان ملقباً إياه بالضفدع ، كما يفعل السيد بوناردييه ، لانه كان دميماً جداً. لكنه حين يرى الاب بوليفو ، يشعر بأنه رقّ وتعتريه رغبة بأن يكون صالحاً . ومرة ، بعد العودة من النزهة ، اخذ الاب لوسيان على ركبتيه وشرح له ما هو الرئيس . أراد لوسيان ان يعرف كيف كان أبوه يتحدث الى العمال عندما يكون في المصنـــع ، وبين له الوالد الطريقة وقد تبدل صوته تماماً . فسأله لوسيان : « هل سأصبح رئيساً بدوري ؟ »

– بكل تأكيد ، يا رجلي الطيب ، فلهذا صنعتك .

– ولمن سأعطي الاوامر ؟

– حسناً ، عندما أموت ، ستصبح رب العمـــل في المصنع وستأمر على عمالي .

– لكنهم سيموتون هم أيضاً .

– حسناً ، ستأمر على ابنائهم ، وينبغي أن تعرف كيف يطيعونـك ويحبونك .

– وما ينبغي ان اعمل ليحبوني يا أبي ؟

وفكر الاب قليلاً ثم قال :

– اولاً ، عليك أن تتعرف عليهم كل باسمه .

لقد تأثر لوسيان كثيراً ، ولما اتى ابن المعلم موريل الى البيت ليعلن ان اباه فقد اصبعين ، تحدث اليه لوسيان بهدوء ورفق ، ناظراً اليه في وجهه وهو يناديه باسمه ، موريل . وقالت الام انها فخورة بأن يكون لهـــا ولد صغير طيب وحساس الى هذا الحد . وبعد ذلك ، جاءت الهدنة ، وصار الاب يقرأ

الجريدة بصوت عال كل مساء . والجميع يتحدثون عن الروس، وعن الحكومة الالمانية والإصلاحات ، وأخذ الاب يدل لوسيان على البلدان الواقعة على الخريطة؛ أمضى لوسيان اكثر سنواته ضجراً ، كان يفضل زمن الحرب . أما الآن فيبدو أن الجميع ليس لهم عمل ، كما انطفأ البريق الذي كان يرى في عيني السيدة كوفان . وفي تشرين اول ١٩١٩ ، وضعته السيدة فلوريه في مدرسة القديس يوسف كتلميذ في القسم الخارجي .

كان الطقس حاراً في مكتب الاب جروميه . ووقف لوسيان قرب مقعد الاب واضعاً يديه خلف ظهره ، متضجراً اكثر ما يكون عليه الضجر . « ألا تريد أمي أن تذهب في الحال ؟ » . لكن السيدة فلوريه لم تكن تفكر بالذهاب . بل انها جلست على طرف الكنبة الخضراء مادّة صدرها الواسع نحو الأب . كانت تتكلم بسرعة فائقة ، بصوت ذي جرس موسيقي ، مثلما كانت عليه عندما غضبت وأرادت الا تظهر غضبها . اما الاب فكان يتكلم على مهل ، وبدت الكلمات في فمه أطول مما كانت عليه عند سائر الاشخاص، حتى وكأنه يمتص الكلمات كالسكر قبل ان يدعها تمر . كان يشرح للوالدة أن لوسيان صبي صغير مهذب نشيط لكنه عديم المبالاة بشكل فظيع ، فتقول السيدة فلوريه إنها اصيبت بخيبة أمل لانها ظنت ان تغيير المحيط سيكون له اثره الحسن . وسألت ما اذا كان يلعب اثناء الفرص على الاقل . فاجاب الأب :

– للأسف يا سيدتي . فحتى الألعاب يبدو أنها لا تهمه . انه طائش في بعض الاحيان الى حد العنف لكنه يتعب بسرعة . أظن ان المثابرة تنقصه .

وفكر لوسيان :

– انهما يتحدثان عني .

هما شخصان كبيران، يصنعان موضوع حديثهما ، تماماً وكأنهما يتحدثان عن

الحرب أوعن الحكومة الألمانية او السيد بونكاريه . كانت تبدو عليها مظاهر الرصانةوهمايفكران بحالته .لكن هذا التفكيرلم يكنليروق له .وقد امتلأت أذناه بكلمات امه ذات الجرس ، وبكلمات الأب اللزجة الذائبة ، واعترته رغبة بالبكاء . ولحسن الحظ ، دق الجرس ، فأعيدت اليه حريته . ولكن في درس الجغرافيا ، ظل منفعلاً وطلب الى الأب جاكين ان يسمح له بالذهاب الى الزاوية لأنه يريد ان يتحرك .

في البدء ، هدأت من روعه برودة الزاوية والرائحة العطرة فضلاً عن العزلة . ورفع رأسه وأخذ يقرأ ما كتب على الباب . لقد كتب بالقلم الأزرق: « باراتو هو بقة » . فابتسم لوسيان : كان هذا صحيحاً ، فباراتو هو بقة ، اذ انه صغير الحجم ، ولعله سيكبر قليلاً ، ولكن لا ، لأن أباه شديد القصر فهو أقرب الى القزم . وتساءل لوسيان إذا كان باراتو قد قرأ هذه الكتابة وظن بأنه لم يقرأها : وإلا لكانوا أزالوها . إذ أن باراتو لا بد وان يضع يده في فمه ويفرك الحروف حتى تختفي . وسر لوسيان بعض الشيء عندما تصور ان باراتو سيذهب في الساعة الرابعة الىالزاوية الصغيرة وسينزل سرواله المخملي الصغير ويقرأ : « باراتو هو بقة » لعله لم يفكر قط بأنه شديد القصر . ووعد لوسيان نفسه بأن يدعوه بالبقة ابتداء من صباح الغد عند الفرصة . ثم نهض وقرأ على جدار اليمين خطاً مكتوباً بالقلم الأزرق ايضاً : « لوسيان فلورييه هو هليونة كبيرة » . فمحا الخط بعناية وعاد الى الصف . وفكر في نفسه وهو ينظر الى رفاقه :

— حقاً انهم جميعاً اقصر مني .

وأحس بأنه غير مرتاح . « هليونة كبيرة » . وجلس الى مكتبه الصغير . كانت جرمين في المطبخ ، ووالدته لم تعد بعد . وكتب « هليونة كبيرة » على ورقة بيضاء لكي يصحح خطأ الاملاء لأن رفاقه أخطأوا في كتابة الكلمة . لكن الكلمات لم تبد جديدة أمامه ولم تحدث فيه أي أثر .

ونادى : جرمين ، يا جرمين !

فسألته جرمين :

– ماذا تريد ايضاً ؟

– جرمين ، أريد ان تكتبي على هذه الورقة « لوسيان فلوريبه هو هليونة كبيرة » .

وأحاط عنقها بذراعيه :

– جرمين ، يا جرمين الصغيرة كوني لطيفة .

– انت مجنون يا سيد لوسيان !

أخذت جرمين تضحك ومسحت يديها بمريولها . وبينا كانت تكتب ، لم يكن لا ينظر اليها ، لكنه أخذ الورقة الى غرفته ونظر اليها طويلاً . كان خط جرمين دقيقاً ، وخيل الى لوسيان انه يسمع صوتاً جافاً يرن في اذنــــه : « ايتها الهليونة الكبيرة » . وفكر في نفسه : « أنا كبير » . لقد سحقـــه الخجل : كبير مثلما أن باراتو صغير – وكان الآخرون يضحكون من خلف ظهره . وبدا وكأنه قد رمي بمصيره رمياً :

إن رؤية رفاقه من فوق تبدو له طبيعية الى هذا الحد . ولكن في الوقت الحاضر ، يبدو انه حكم عليه بالبقاء كبيراً طيلة حياته . وفي المساء سأل اباه اذا كان بالامكان تصغيره اذا شاء . وقال السيد فلوريبه أن لا : ان جميــــع افراد عائلة فلوريبه كانوا طوالاً أقوياء ، وسيكبر لوسيان ايضــــاً . فيئس لوسيان . ولما لامسته امه نهض وذهب ليرى نفسه في المرآة . « أنا طويل » . لكنه مهما تطلع ، فلن يرى شيئاً ، فلم يكن يبدو عليه انه طويل او قصير . وشمر قميصه قليلاً ونظر الى ساقيه . عندها تصور أن كوستيل يقول لهبرار:

– انظر ، انظر ساقي الهليونة الطويلتين ، وكان هذا يضحكه . الطقس

بارد . ارتجف لوسيان وقال احدهم : « إقشعر بدن الهليونة » . وشمر قميصه أيضاً ورأى سرّته ، وكلّ دكانه ثم ركض الى سريره وانزلق فيه . وعندما وضع يده تحت قميصه ، فكر بأن كوستيل يراه ويقول :

– انظروا قليلاً ما تفعله « الهليونة الكبيرة ! » وارتعش ودار في سريره وهو يلهث : « الهليونة الكبيرة ! الهليونة الكبيرة ! » حتى وجد تحت اصابعه مكاناً يتأكله .

في الأيام التالية، رغب في ان يطلب الى الاب ان يسمح له بالجلوس في آخر الصف . كان ذلك بسبب بواسيه وونكلمان وكوستيل الذين كانوا وراءه وبامكانهم ان ينظروا الى رقبته ، كان لوسيان يحس برقبته ، ولكن بدون ان يراها وغالباً ما كان ينساها . لكنه عندما كان يحسن الاجابة على سؤال الأب، ويجيد إلقاء كلام دون دباغ، كان الآخرون وراءه ينظرون الى رقبته وبامكانهم ان يسخروا منه قائلين : « يا لها من نحيلة ، ففي عنقه حبلان » . ويجهد لوسيان نفسه لكي يضخم صوته ويعبّر عن إهانة دون دباغ . كان يستطيع ان يفعل بصوته ما يشاء. لكن رقبته لا تزال في مكانها، هادئة غير معبّرة وكأنها شخص يرتاح ، فيراها باسيه . ولم يجرؤ على تغيير مكانه ، لأن المقعد الأخير كان مخصصاً للكسالى ، لكن رقبته وكتفيه كانتا تتأكلانه طيلة الوقت وكان مرغماً على حكها بلا انقطاع . واخترع لوسيان لعبة جديدة : أن يغتسل عند الصباح بمفرده كالأشخاص الكبار ، كان يتصور أن أحداً يتطلع اليه من ثقب الباب . تارة ما يكون هذا الشخص كوستيل ، وطوراً الأب بوليفو ، وطوراً آخر جرمين . وعندها دار في جميع الجهات حتى يراه الجميع من جميع وجوهه ، وكان يدير قفاه أحياناً نحو الباب ويقف على أربع حتى يقع فيضحك الناس . في أحد الأيام ، وكان في المكان الصغير ، سمع بعض القرقعة ، انه جرمين تريد أن تمسح طاولة الممر . وتوقف قلبه عن الحركة ، وفتح الباب بتؤدة وخرج ، ولا يزال سرواله عند قدميه ، وقميصه مشمرة عند

خاصرتيه . كان مرغماً على القيام بقفزات صغيرة لكي يتقدم بدون ان يضيع توازنه . ونظرت جرمين اليه وتساءلت في نفسها هل هو في حلبة السباق . ورفع بنطلونه بغضب وراح يرتمي فوق سريره . كانت السيدة فلوربيه متأثرة، وغالباً ما كانت تقول لزوجها : « هو الذي كان رائعاً في طفولته ، انظر كيف اصبح الآن ؟ ويا للأسف » . وينظر السيد فلوربيه نظرة ضائعة نحو لوسيان ويقول :

« انه عامل السن ! » لم يكن لوسيان يدري ما يجب ان يفعله بجسمه ، وتهيأ له ان هذا الجسم يفرض وجوده من جميع النواحي بدون ان يستشيره، وتصورلوسيانانه غير منظور، ثم اتخذ لنفسه عادة النظر الى الآخرين من خلال ثقوب الأبواب ليعرف كيف يكون وجود الآخرين حين لا يشعرون به . رأى أمهعندما تستحم .كانت جالسة على مقعد الحمام، يبدو عليها النعاس، ولا شك انها نسيت جسمها، وحتى وجهها لأنها لاتظن بأن أحداً يراها . والأسفنجة تروح وتجيء تلقائياً على هذا اللحم المهجور . وتقوم بحركات خاملة ، الأمر الذي يبعث على الظن بأنها ستتوقف في منتصف الطريق . وفركت الأم شيئاً بالصابون ثم اختفت يدها بين ساقيها . كان وجهها مرتاحاً ، حزيناً بعض الحزن ، لا شك انها تفكر في أمر آخر ، بتربية لوسيان أو بالسيد بوانكاريه. لكنهاليست، في هذا الوقتسوى هذا الجسم الوردي الضخم الجالس على مقعد الحمام . ثم راح لوسيان ينظر من خلال ثقب آخر . فرأى جرمين بقميص أخضر طويل ، تسرح شعرها أمام مرآة صغيرة مستديرة وتبتسم لصورتها برخاوة .واعترت لوسيان ضحكة مجنونة ومالبث ان ابتعد بسرعة. بعد ذلك أخذ يبتسم ويكشر ايضاً في قاعة الاستقبال ، وما هي إلا لحظة حتى اعتراه خوف شديد .

وما لبث لوسيان أن استسلم للنوم؛ ولكن، لم يقع عليه نظر أحد، سوى السيدة كوفان . إن كتلة من الهواء كبيرة كانت تقف في حلقه فلا يستطيع

أن يبتلعها أو ان يبصقها: تلك كانت طريقته في التثاؤب. وعندما يكون وحده تكبر الكتلة كثيراً حتى تصل الى اسفل حلقه . فيفتح فمه على أشـــدّه ، وتتدحرج الدموع من عينيه : انها لحظات عذبة . لم يكن يتسلى قدر تلـك التسلية حينما يكون في غرف الغسيل ، لكنه كان يجب أن يعطس ، وهـذا ما يوقظه ، فيتطلع حوله بنظرة تائهة . وتعرف على النوم بجميـع أنواعـه . في الشتاء كان يجلس أمام الموقد ويمد رأسه نحو النار . حـين تكون النـار شديدة الاحمرار، تحترق بسرعة .وهذا ما كان يسميه « النوم عن طريـــق الرأس » . صباح الأحد كان على العكس ينام عن طريق القدمين : كان يدخل الحمام ، وينحني قليلا فيصعد النعاس على طول ساقيه وخاصرتيه . ومن فوق جسمه النائم كان يظهر رأسه الأشقر زاخراً بالأفـكار . وفي الصف كان النعاس أبيض ،تتخلله البروق : « ماذا تريد أن يفعل تجاه ثلاثة ؟ » الأول: لوسيان فلوريبه .الثاني: وينكلمان .أما بليرو فكان الأول في مـــادة الجبر .لم يكن لديه سوى خصية واحدة أما الثانية فلم تنزل . كان يفرض قرشين اثنين على النظر ،وعشرة قروش على اللمس . ونقده لوسيان القروش العشرة،وتردد، ومدّ يده بدون أن يلامس ، لكنه ندم على عمله هذا الى حدّ انه ظل مستيقظاً بعد موعده بساعة . لم يكن ماهراً في علم الجيولوجيا بقدر ما كان عليـه في التاريخ . إنه الأول ، وونكلمن ثاني فلوريبه . يوم الأحد كان يذهب للنزهة على الدراجة ، برفقة كوستيل وونكلمن . والدراجـــة تجوب الحقول فوق الغبار الناعم في طقس شديد الحرارة . كانت ساقا لوسيان مفعمتين بالحيوية ، مليئتين بالعضلات لكن رائحة الطرقات كانت تصعد الى رأسه فينحني فوق مقوده ، وتحمّر عيناه ،ويغمضها شبه اغماضة . حاز ثلاث مرات على درجـة الشرف . وقدموا له « فابيولا أو كنيسة الدياميس » ، و« عبقرية المسيحية» وحياة « الـكاردينال لافيجري » . وكوستيل علمهم جميعاً بعد العطلة على « الدي بروغوندس موريبونيبوس » . وعلى نشيد المدفـــع في متز . وقرر لوسيان أن يبحث في قاموس أبيه الطبيّ عن الفصل المتعلق « بالرحم » .وبعدها

شرح لهم كيف تكون النساء. حتى انه رسم لهم صورة على اللوح، وصرح كوستيل بأن ذلك مؤسف ، وبعد ذلك لم يعد بإمكانه ان يتحدث عن الاقنية بدون أن ينفجر بالضحك . وفكر لوسيان بأنه ما من طالب في الصف الثاني أو حتى في صف البكالوريا يتقن معرفة أعضاء المرأة كما يتقنها هو .

ولما أقامت عائلة فلورييه في باريس ، كان ذلك بمثابة بريق من المانييزيوم. لم يعد بوسع لوسيان أن ينام بسبب صالات السينما والسيارات والشوارع . وتعلم كيف يميز بين سيارة الفوازين والبكار ، وبين الاسبانو سويزا والرولز . منذ اكثر من سنة بات يرتدي السروال الطويل . وأرسله ابوه الى انكلترا مكافأة له على فوزه بشهادة البكالوريا .ورأى لوسيان مروجاً تزخر بالمياه ، ومنحدرات بيضاء ، وتعلم الملاكمة عند جون لاتيمر ، ولكنه في احدى الليالي استيقظ في نومه ، لقد عاوده الرواباص فعاد مروبصاً الى باريس : كان صف الرياضيات في الليسيه كوندورسيه يعد سبعة وثلاثين طالباً ، بعضهم يحتقر لوسيان ، وظلوا يحتقرونه حتى أول تشرين الثاني، وهو عيد جميع القديسين . وذهب لوسيان للنزهة مع صديقه غاري ، وأبدى له معلوماته في التشريح الأمر الذي بهر الرفيق . ولم ينضم لوسيان لتلك الجماعة من الطلاب لأن أهله منعوه من الخروج صباحاً .

يوم الخميس جاءت العمة برت ، لتتناول طعام الغداء مع ريري . في شارع رنواه . لقد اصبحت ضخمة الجثة حزينة ، أمضت وقتها في التنهد . ولكن بما أن جسمها ظل طرياً ناعماً ، فقد تمنى لوسيان أن يراها عارية . كان يفكر فيها مساء في سريره : سيعثر عليها في يوم من ايام الشتاء ، عارية في غابة بولونيا ، تضع يديها فوق صدرها وقد اقشعر جسدها. وتصور أن احد المارة، وهو قصير النظر ، لامسها بعصاه قائلاً :

« ولكن ما هذا ؟ »

لم يكن لوسيان يتفق كثيراً مع ابن خالته : أصبح ريري شاباً جميلاً شديد

الاناقة ، يدرس صف الفلسفة في لا كانال ولا يفقه شيئاً عن الرياضيات . ولم يكن لوسيان ليستطيع ان يمنع نفسه عن التفكير بريري . قبل سبع سنوات فقط كان يوسخ في سرواله ، فيمشي بعدها منفرج الساقين كالبطة ، وينظر الى امه قائلاً :

– كلا يا أمي ، لم أفعل هذا . وأعدك بذلك . كان يشعر ببعض الاشمئزاز عندما يلامس ريري . لكنه ، رغم ذلك ، كان لطيفاً جداً معه وهو يشرح له دروس الرياضيات . وكان عليه ان يبذل مجهوداً قوياً لأن ريري لم يكن ذكياً . غير أنه لم يثر قط، بل انه حافظ على صوته الهادىء . ووجدت السيدة فلوربيه ان لوسيان كان على جانب كبير من الدماثة ، لكن العمة برت لم تجد له أية حسنة . ولما كان لوسيان يقترح على ريري ان يعطيه الدرس ، تحمر السيدة برت وتهتز فوق كرسيها وتقول :

– كلا ، انت لطيف جداً يا لوسيان الصغير ، لكن ريري كبير جداً . فبإمكانه ان يتعلم لو أراد ، فلا ينبغي ان تعوده الاعتماد على الآخرين . وذات مساء قالت السيدة فلوربيه فجأة للوسيان :

« أو تظن ان ريري شاكر لك صنيعك معه ؟ كلا عد عن خطئك يا ولدي العزيز . »

تكلمت بصوتها ذي الجرس وبسيماء حسنة . وفهم لوسيان أنها تستشيط غيظاً . واحس بانزعاجه ولم يجد شيئاً للإجابة . وفي الغد وبعده ، حدثت له مشاغل كثيرة فخرجت هذه القصة من ذهنه .

ويوم الأحد صباحاً ، ألقى ريشته فجأة وقال : « اصحيح انني لا أميز .

كانت الساعة الحادية عشرة . ولوسيان جالس الى مكتبه ينظر الى صور الأشخاص المعلقة على الجدار . وأحس خده بحرارة نيسان الجافة الغبراء .

– أصحيح انني لا أميز ؟

كانت الاجابة عسيرة . وحاول لوسيان ان يتذكر محادثته الأولى مع ريري وان يحكم على موقفه بلا تحيز . كان قد انحنى فوق ريري وسأله باسماً :

– انت تفعل ذلك ؟ ان كنت لا تفعل يا عزيزي فاعترف بذلك ؟

وبعدها بقليل ارتكب خطأ في الحلّ فردد تعبيراً اخذه عن أبيه .ولكن هل كنت اهذر عندما قلت هذا ؟ ولشدة ما بحث توصل الى معرفة شيء غامض في ذهنه يشبه قطعة الغمام : إنها فكرته في ذلك اليوم ؛ قال : انت تفعل هذا ؟ لقد حصل هذا في رأسه ،لكنه لم يكن بوصف . وبذل لوسيان جهوداً « يائسة » لينظر الى هذه الغمامة،وأحس فجأة بأنه وقع فيها ، ابتداء من الرأس . وقد تحول هو نفسه الى غبار ، ولم يعد بعد الآن سوى حرارة بيضاء رطبة ،تفوح منها رائحة الغسيل . وأراد أن يتجنب هذا الغبار بتراجعه قليلا ، لكن الغبار كان يأتي معه . وفكر في نفسه : « أنا لوسيان فلوريه ، أجلس في غرفتي ، أحل مسألة في الطبيعيات ، واليوم يوم أحد ». لكن افكاره تحولت الى ضباب ، بياض على بياض . وارتعش قليلاً وجعل يحلل شخصيات اللوحات الموجودة على الجدار ، راعيان وراعيتان و« الحب » ثم قال في نفسه فجأة : « أنا ، اني ... »

وحدثت ضجة خفيفة : فاستيقظ من روباصه الطويل .

لم يكن هذا شيقاً اذ قفز الرعيان الى الوراء ، وبدا للوسيان انه ينظر اليه من خلف نظارة . وحل مكان الدهشة التي استبدت به ، نوع من الحيرة اليقظة وتساءل :

« من أنا ؟ »

« من أنا ؟ » أنا أنظر الى المكتب ، الى الدفتر . اسمي لوسيان فلوريه وليس هذا سوى اسم . اني اهذر ، أو لا أهذر . لست أدري . فليس لهذا

أي معنى .

« أنا تلميذ نشيط : ولكن التلميذ النشيط يحب العمل – وأنا لا أحب العمل . كما انني لا اكره العمل ،غير انه لا يهمني .لا شيء يهمني . لن اصبح قط رئيساً » . وفكر بنفسه قلقاً : « ولكن مـــاذا سأصبح يوماً ما » ومرت هنيهة . وحك خده وغمز بعينه اليسرى لأن الشمس بهرتــه : « من أكون « أنا ? » . إنها غمامة غامضة : « الأنا ».ونظر الى البعيد . فرنت الكلمة في رأسه ،وأحس بشيء يشبه الهرم يغرق في الضباب. وارتعش لوسيان وارتجفت يداه وفكر في نفسه :

– ها قد توصلت . اجل توصلت . وأنا متأكد : «أنا لست موجوداً » .

طيلة الأشهر التالية ، حاول لوسيان ان ينام ولكنه لم يستطع الى ذلك سبيلاً . كان ينام تسع ساعات في اليوم امــا الباقي فكان يمضيه في الحيرة التي تزداد يوماً عن يوم ! كان أبواه يقولان بأنه على أحسن حال . وعندما فكر بأنه لن يكون له رداء الرئيس ، أحس بانه رومنطيقي.واعترته رغبة بالمسير ساعات في ضوء القمر . لكن أبويه لا يسمحان له بالخروج مساء . في أغلب الأحيان كان يتمدد فوق سريره ويقيس حرارته : فيسجل الميزان ٣٧,٥ أو ٣٧,٦ ، ويفكر لوسيان بلذة مريرة كيف ان أبويه يجدانــه بصحة جيدة . « أنا لست موجوداً ! » واغمض عينيه وترك الأمور وشأنها .

الوجود ما هو إلا وهم ؛ وبما انني اعرف انني لست موجوداً ، فعليّ إذاً أن اسد اذنيّ ولا افكر بشيء ، اريد ان انعدم . لكن الوهم قاس . لعلــه يعرف على الأقل سراً لا يدركه الآخرون وهو نوع من التفوق : غاري ، مثلا ، ليس موجوداً ومثله مثل لوسيان . ولكن ما أن يرى بين المعجبين حتى يقال بأنه يؤمن إيماناً راسخاً بوجوده . والسيد فلورييه هو ايضــاً غير موجود – وكذلك ريري وأي انسان آخر – والعالم مهزلة بلا ممثلين . ولوسيـــان الذي حاز على علامة ١٥ في موضوع « الاخلاق والعلم » . فكر بأن يكتب

« موضوعاً عن العدم » وتصور أن الناس عند قراءته سيختفون الواحد تلو الآخر، كالأفاعي عند صياح الديك . وقبل أن يبدأ بكتابة موضوعه ، أراد ان يأخذ رأي بابوان استاذ الفلسفة . قال له عند ختام الدرس :

— ارجوك يا استاذ ، هل بامكاننا أن ندافع عن فكرة عدم وجودنا ؟

فأجاب بادوان بالنفي وقال :

« أنت موجود لأنك تشك بوجودك » . ولم يقتنع لوسيان لكنه عدل عن كتابة موضوعه. في تموز، نجح بغيرضجة في امتحان البكالوريا،فرع الرياضيات، وذهب الى فيرول برفقة أبويه . ولم تتبدد الحيرة فيه ، كان ذلك كالرغبة في العطش .

ومات الأب بوليفو ، وتغير أسلوب العمال ، عمال السيد فلوريه . فهم يقبضون الآن مرتبات ضخمة ، وصارت زوجاتهن يشترين جوارب الحرير . وسردت السيدة بوفارديه وقائع رهيبة على مسمع السيدة فلوريه :

«أخبرتني الخادمة بأنها رأت عند بائع الشواء أمس ، أوزيوم الصغيرة ، وهي أبنة أحد عمال زوجك ، تلك التي أوليناها عنايتنا بعد وفاة أمها . لقد تزوجت من عامل فني من بوبرتوي . طلبت فروجاً سعره عشرون فرنكاً، بوجه ملؤه التعجرف ! لم تعدتعتبر أي شيء لذيذ الطعم تحت أسنانها؛ إنهن يردن ان يكون لهن ما لنا » .

في الوقت الحاضر ، عندما يذهب لوسيان برفقة أبيه للتنزه ، لم يعد العمال يكنون لهما نفس الاحترام الذي كان في السابق ، فهم لا يكادون يلامسون قبعاتهم لتحية الرئيس . ذات يوم ، التقى لوسيان بابن بوليفو فتظاهر بأنه لم يره . وتأثر لوسيان من ذلك ؛ كانت فرصة ليثبت انه رئيس . فحدج جول بوليفو بنظرة كاسرة وتقدم منه واضعاً يديه وراء ظهره . لكن بوليفو لم

يشعر بأي خوف : إذ نظر الى لوسيان بعينين فارغتين وراح يصفر . وقال لوسيــان في نفسه : « لم يعرفني » . لكنه شعر في قرارة نفسه بخيبة الأمل ، وبات يفكر اكثر من اي وقت مضى بأن العالم ليس موجوداً .

كان مسدس السيدة فلوريبه الصغير موضوعاً في درج الخزانـــة . وكان زوجها قد قدمه لها في ايلول سنة ١٩١٤ قبل ان يذهب الى الجبهة . فأخذه لوسيان وقلبه بين يديه : انه جوهرة صغيرة ، ذات فوهة مذهبة ، وقبضــة مطعمة . ليس بالامكان الاعتماد على موضوع فلسفي لاقناع الناس بأنهم ليسوا موجودين. فان للاقدام على فعل ما ضروري جداً. فعل يائس، يبدد الظواهر ويبين العدم في العالم. كالانفجار، والجسد الدامي فوق السجادة والكلمات المكتوبة على الورق:

– سأقتل نفسي لانني لست موجوداً :

« وانتم يا اخوتي كذلك ، انــكم عدم ! »

ويطالع الناس جريدة الصباح ويرون : « مراهق تجرأ » ويحس كل واحد منهم بالاضطراب فيسأل نفسه :

« وأنا ؟ هل أنا موجود ؟ »

عرف في التاريخ ، لا سيما عند نشر فرتير ، أوبئة مشابهة من عمليــات الانتحار . وفكر لوسيان بأن كلمة « شهيد » تعني باليونانية « الشاهد »، كان شديد الاحساس كي يصبح رئيساً وليس شاهــداً . وبعدها كان يكرر الدخول الى مخدع أمه ، وينظر الى المسدس ، ويدخل في النزاع الأخير وكان يحدث له أحياناً أن يعض الفوهة المذهبة ويشد أصابعه بقوة على القبضة. ثم يعزيه شعور بالفرح إذ يفكر بأن جميـع القادة الكبار حاولوا الانتحار . كنابليون مثلا . ولم يخف لوسيان على نفسه ما كان يشعر به من يأس. وقرأ باهتمام مذكرات السانت هيليين . كان عليه مع ذلك أن يتخذ قراراً : وحدد لوسيان يوم ٣٠ أيلول كحد اخير لتردده . واصبحت أيامه الأخيرة صعبة

جداً : كانت الأزمة تدفع بلوسيان الى التوتر الشديد ، الى حد انه بات يخشى ان يتحطم ذات يوم كالزجاج . ولم يعد يتجرأ على ملامسة المسدس . بل بات يكتفي بفتح الدرج، ثم إنه يرفع قليلا غلالات أمه ويتمتع بمرأى الوحش الصغير البارد الذي يرقد في ثوب الحرير الوردي . غير انه حين قرر أن يعيش ، أحس بفراغ شديد، وبأنه عاطل عن العمل . ولحسن الحظ أن هموم المدرسة قد عاودته : إذ أرسله أبواه الى الليسه سان - لويس ليتابع الدروس الإعدادية لدخول المدرسة المركزية . وارتدى مئزره الأحمر الجميل الذي يحمل الشارة وراح يغني :

«انه المخروط الذي يدير الآلات

انه المخروط الذي يدير القاطرات ...»

إن مقدرة « المخروط » الجديدة كانت تبعث الفخار في نفس لوسيان . ثم إن صفه لا يشبه صف الآخرين :إذ كانت له تقاليده واحتفالاته الخاصة . كان نوعاً من القوة . فقد أضحى من المألوف ان يقوم الطلاب قبل انتهاء درس اللغة الفرنسية ويصيح أحدهم : « ما هو السيرار ، فيجيب الجميع : « إنه الفرج ! » فيردد الصوت من جديد : « وما هو الآغرو ؟ » فيجيبون بقوة أكثر : « انه الفرج » . عندها يقول المعلم باتون الذي كان كفيف البصر نوعاً ما ويضع نظارتين سوداوين ، يقول باعياء :

— أرجوكم ايها السادة . ومرت لحظات من الصمت المطبق ، كان التلامذة خلالها ينظرون الى بعضهم البعض بنظرات تنم عن الذكاء ، ثم يصيح أحدهم : « ما هو المخروط !» فيزأرون معاً : « انه شخص ضخم ! » في هذه اللحظة يشعر لوسيان بأنه قد احترق . في المساء ، كان يقص على أبويه بدقة ما جرى له في النهار وعندما يقول : « والصف بأكمله أخذ يهذر ... » أو « الصف بأكمله قرر ان يعزل ميرينه ». كانت الكلمات عند مرورها تسخن فمه كجرعة من الكحول . كانت الأشهر الأولى مع ذلك ، قاسية جداً : كان لوسيان

يتخلف عن تقديم مسابقات الرياضيات والفيزياء، ثم ان رفاقه لم يكونوا حسني العشرة : كل على حدة : كانوا في غالبيتهم يقبضون المنح الدراسية كما ان لهم عادات سيئة . ويقول لوسيان لأبيه : « ما من احد منهم يمكن ان يكون لي صديقاً — ويقول السيد فلوريبه ! أصحـــاب المنح الدراسية هم عادة من المثقفين لكنهم لا يصبحون في المستقبل قادة من ذوي الكفـــاءة : أذ انهم أسرعوا في تدرجهم » .

وعندما سمع لوسيان عن « القادة الفاسدين » . أحس بأن شيئاً مـا يؤلمه في قلبه ، وفكر من جديد بالانتحار ، طيلة الأسابيع التي تلت . لكنه لم يعد ينطوي على نفس الحماس الذي كان عليه أثنـاء العطلة . في شهر كانون الثاني فضح احد الطلبة واسمه برلياك الصف بأمره : كان يرتدي سترة خضراء او بنفسجية على آخر طراز ، ذات قبة مستديرة فوق سروال كالسراويل التي في كتب الخياطين، ضيق جداً الى حد يثير التساؤل : إذ كيف استطاع ان يرتدي هذا السروال . وحل برلياك اخيراً في الرياضيات وصرح بقوله :

— لا يهمني الأمر ، فأنا من الفرع الأدبي، وأدرس الرياضيات للتقوية ليس إلا . وما هو إلا شهر حتى سحر الجميع : كان يوزع لفائف مهربة ،يقول لرفاقـه بأن لديه نساء ، ويبدي لهم الرسائل التي بعثن بها اليه . وقرر جميع من في الصف اعتبـاره شاباً أنيقاً ، وبان عليهم ان يريحوا أنفسهم منه . كان لوسيان معجباً باناقته وبأساليبه ، لكن برلياك كان يلقبه « بصبي الأغنياء » وقـال لوسيان في أحد الأيام : «بعد هذا ، وددت لو كنت ابن فقير . » وابتسم برلياك وقال له : « انت كلبيّ ساخر » . وفي اليوم التالي اطلعه على قصيدة : « كان كاريزو يهذر بعينيه النيئتين كل مساء ، انه صبور كالجمل . صنعت امرأة باقة من أعين عائلتها وألقت بها على المسرح . والكل انحنوا أمـام هذا العمل النموذجي . ولكن لا تنسوا أن ساعة المجد دامت سبعاً وثلاثين دقيقة : تماماً منذ الهتاف الأول وحتى انطفاء أضواء الأوبرا (وبعدهـــا كان ينبغي ان تجر

زوجها، وهو الحـــائز على عدة جوائز ، وكان يسد بصليبين اثنين المحجرتين اللذين تقع فيهما عيناه). وانتبه الى هذا، ان جميع الذين يفرطون في أكل اللحم البشري المحفوظ . يموتون من نقص في الفيتامين » .

فقال لوسيان وقد خرج عن طوره :

– حسناً حسناً .

وقال برلياك برخاوة :

– سأحوز عليها ، بطريقة فنية جديدة ، فهذا ما يسمى بالكتابة الآلية.
ولم يمض وقت طويل حتى شعر لوسيان برغبة عنيفة في الانتحار وصمم على استشارة برلياك وسأله بعد أن عرض قضيته :

– ماذا ينبغي أن أفعل ؟

واصغى اليه برلياك باهتمام . وكان قد تعود على ان يمص اصابعه وان يطلي بريقه البثور الموجودة على وجهه ، بحيث ان جلده كان يلمع في هذا المكان أو ذاك، وكأنه طريق تبللت بالمياه في أمكنة مختلفة . وخلص الى القول :

– اصنع ما شئت فليس لهذا أية اهمية .

وفكر قليلاً ثم اضاف وهو يشد على الكلمات :

– ما من شيء له أهمية .

واصيب لوسيان بخيبة أمل ، لكنه فهم أن برلياك قد تأثر كثيراً حين دعاه للعشاء في بيت والدته . كانت السيدة برلياك محببة جداً . وعلى وجهها آثار بقع ، تجاه خدها الأيسر . وقال برلياك للوسيان :

– هل ترى ؟ انما نحن ضحايا الحرب الحقيقيين .

كان هذا رأي لوسيان ايضاً وقرر أي الاثنين على انهما ينتميان معاً للجيل

الضحية . وطلع النهار ، وبرلياك لا يزال ممدداً فوق سريره ، وقد اشتبكت يداه تحت رقبته . كانا يدخنـــان اللفائف الانكليزية . ويصغيان الى الاسطوانات ، وأصغى لوسيان لصوت صوفيا توكر وآل جونسون . واعتراه نوع من الكآبة ، وفكر لوسيان بأن برلياك هو خـــير اصدقائه . وسأله برلياك ما اذا كان يعرف التحليل النفسي . كان صوتـــه مجداً ، وينظر الى لوسيان باتزان . وأسر اليه قائلاً :

– لقد اشتهيت أمي حتى سن الخامسة عشرة . وشعر لوسيان بالانزعاج . وخشي ان يحمر وجهه وتذكر وجه السيدة برلياك المشوه ، وتساءل كيف يمكن له ان يشتهيهـــا . لكنها حين دخلت لتقدم لهما الشراب ، بدا عليه الاضطراب وحاول انيتعرف على صدرها من خلال الثوب الذي كانت ترتديه، وما ان خرجت حتى قال برلياك بصوت ايجابي :

– انت ايضاً بالطبع ، ترغب في ان تضاجع امك .

لم يكن يسأل بل إنه يؤكد .

فهز لوسيان كتفيه وقال :

– بالطبع .

في صبيحة اليوم التالي كان شديد الاضطراب وخشي ان يعمد برلياك الى تكرار الحديث . لكنه اطمأن بسرعة وقال :

– على كل حال ، لقد تناول نفسه اكثر مما تناولني .

كما دهش كثيراً للطابع الشخصي الذي اتخذته محادثتهم ، وفي يوم الخميس التالي ، قرأ كتابـــاً من كتب فرويد في مكتبة سانت جنفياف . كان بمثابة وحي . وكرر لوسيان وهو يجوب الشوارع :

– انه هذا إذاً ، إنه هذا .

ثم اشترى بعد ذلك « مقدمة التحليل النفسي » و«الامراض النفسية في الحياة اليومية » ، واصبح كل شيء واضحاً لديـــه . ذلك الشعور الغريب باللاوجود، وذاك الفراغ الذي عاناه في وعيه، وتلك الروبصة، وهاتيك الحيرة، وتلك الجهود الخائبة في سبيل التعرف على الذات، تلك الاشياء التي لم تصادف سوى ستار من الضباب .

وفكر في نفسه :

لا بد وان لدي عقدة نفسية . وشرح لبرلياك كيف انه، حين كان صغيراً، تصور نفسه مروبصاً، وكيف ان الاشياء لم تبد له وكأنها واقعية ، وخلص الى القول : « لا بد وان اكون مصاباً بعقدة نفسية » . فقال برلياك : « تماماً كما أنا » . واعتادا معاً على تفسير احلامها وأقل حركة من حركاتها . وكانت لدى برلياك قصص كثيرة ، ظن لوسيان لوفرتها بأن صديقه يخترعهـا او انه يحسنها . لكنهما كانا متفقين تمام الاتفاق ، يتنـــاولان اشد المواضيـع تعقيداً بطريقة موضوعية . واعترف كلاهما بأن مسحة السرور التي تكتنفها ان هي إلا قناع لخداع الآخرين . بينما هما في الواقع معذبان . وتخلص لوسيـان من هواجسه . وانكب بشغف على دراسة التحليل النفسي لانه وجده ملائماً له ، وأحس انه اكثر اطمئناناً ، وليس عليه بعد الآن إلا ان يجد جميع الظواهر الملموسة من طبيعته ، في نطاق الوعي . بل ان لوسيان الحقيقي انما هو غارق في اللاوعي . وينبغي ان يحلم به دون ان يراه كمن يحلم بعزيز غائب . وصار لوسيان يفكر طيلة اليوم بعقده النفسية ويتصور بنوع من الفخـــار ، العالم المظلم ، العالم القاسي العنيف الذي يختبىء في انجرة وعيه . وقال لبرلياك :

— هل تدري ! لقد كنت في الظاهر صبياً نائماً غير آبه لشيء ، كنت شخصاً لا أهمية له . وكنت شديد التأثر بهذا الاعتقاد حتى كدت ان اتمسك به . لكنني كنت أعرف بان هناك شيئاً آخر .

فأجاب برلياك :

– هناك دائماً شيء آخر .

وتبادلا الابتسام بكل فخار . ونظم لوسيان قصيدة بعنوان « عندما يتمزق الغمام » فوجدها برلياك رائعة ، لكنه أخذ على لوسيان طريقته في نظمها حسب الأوزان المعروفة . وحفظاها مع ذلك غيباً ، وكانا يقولان بكل طيبة خاطر عندما يريدان الكلام عن نوازعهما الجنسية :

« السرطانات الكبيرة المكدسة تحت معطف الغمام » . أو يختصران بقولهما : « السرطانات » وهما يغمزان بأعينهما . ولم يمض بعض الوقت حتى بات لوسيان يجد هذا رهيباً ، عندما يخلو لنفسه . ولم يعد يتجرأ على النظر الى امه في وجهها ، وكان يخشى ، حين يقبلها قبل النوم ، أن تحول القوة غير المنظورة قبلته نحو فم السيدة فلوربيه ، إن نفسه تنطوي على بركان . وتعهد لوسيان نفسه بعناية فائقة حتى لا يهدّ تلك النفس المتعاظمة المشؤومة التي وجدها فيه . إنه بات يعرف ثمنها حتى المعرفة ويخشى هباتها العنيفة . ويقول في نفسه : « أنا اخاف من نفسي » . لقد انقطع منذ ستة اشهر عن ممارسة العادة السرية لانها كانت تقلقه وكان لديه الكثير من المشاغل ، لكنه عاد اليها : على المرء ان يتابع خطته ، وكتب فرويد مليئة بقصص الكثيرين من الشباب التاعسين ممن اصيبوا بالعصاب لأنهم انقطعوا فجأة عن ممارسة عاداتهم . كان يسأل برلياك :

– أفلن نصبح مجانين ؟ لذا كانا يحسان بغرابتهما . وتسلل الظل الى غرفة برلياك وكان قد أحرق عدة علب من السكائر كما كانت يداه ترتجفان . عندها قام احدهما بصمت ، ومشى بخطى الذئب نحو الباب وأدار الزر . وعمّ النور في الغرفة ، ونظر واحدهما للآخر نظرة ملؤها التحدي .

ولم يتأخر لوسيان في ان يلاحظ بأن صداقته مع برلياك انما هي قائمة على

سوء تفاهم : ما من أحد بلا ريب ، كان اكثر تحمساً منه لعقدة أوديب ، لكنه كان يرى فيها دلالة على قوة العاطفة التي كان يأمل ان يحولها فيما بعد نحو غايات أخرى . اما برلياك ، فكان على العكس سعيداً بحالته ولم يكن يريد الخروج منها . وكان يقول : « نحن اشخاص مارقون ، فاشلون ». فيجيبه لوسيان وكأنه صداه : « لن نفعل أي شيء ابداً ، لن نفعل اي شيء » . لكنه كان غاضباً . بعودتهم من عطلة عيد الفصح أخبره برلياك بانه اقتسم مع أمه غرفة واحدة في احد فنادق ديجون . واستيقظ في الصباح الباكر ، واقترب من السرير حيث كانت أمه لا تزال نائمة ورفع الغطاء برفق . وقال ضاحكاً: « كان قميصها مشمراً » . ولم يسع لوسيان حين سمع تلك الكلمات إلا ان يحتقر برلياك بعض الشيء ويحس بعزلته الشديدة . جميل ان يكون لدى المرء عقد نفسية شريطة ان يحسن تصريفها في الوقت المناسب : إذ كيف يمكن للرجل ان يتحمل مسؤولياته ويتولى زمام الامور ، إذا احتفظ بنوازع الطفولة الجنسية ؟ وبدأ لوسيان يقلق كثيراً : كان بوده ان يستشير أحداً ولكنه لم يكن يعرف الى من يوجه سؤاله . غالباً ما كان برلياك يحدثه عن رجل سريالي يدعى برجير ، غائص في التحليل النفسي وهو يفوقه معرفة . لكنه لم يقترح قط على لوسيان التعرف عليه . كما شعر لوسيان بالخيبة الشديدة لانه اعتمد على برلياك في تدبير النساء له .

وفكر بان وجود صاحبة جميلة من شأنه ان يغير بالطبع مجرى افكاره . لكن برلياك انقطع عن الحديث عن عشيقاته الجميلات . كانا يذهبان في بعض الاحيان ناحية الشوارع العريضة يلاحقان الفتيات بدون ان يتجرآ على محادثتهن. ويقول برلياك :

– ماذا تريد ايها المسكين ، لسنا من الجنس الذي يعجب النساء . فالنساء تحس فينا شيئاً يرعبهن . ولم يجبه لوسيان؛ إذ أن برلياك بات يزعجه . غالباً ما كان يبدي ملاحظات عديمة اللباقة بشأن أبوي لوسيان ، اذ كان يسميها السيد

دي موليه وزوجته . كان لوسيـــان يدرك بان الشخص السريالي يكره البورجوازية على العموم ، لكن برلياك قد تلقى مراراً دعوة السيدة فلوريبه، وقد عاملته على صعيد الصداقة والثقة . فليس من اللياقة إذاً ان يتناولها بهذه اللهجة . ثم ان برلياك كان رهيباً بعادته المستحكمة : ألا وهي استدانـة الدراهم بدون ارجاعها : في الأوتوبيس لم يكن لديه دراهم ، وعلى رفيقه ان يدفع عنه الاجرة . وفي المقاهي لم يكن ليقترح سوى مرة واحدة من خمس دفع حسابه . وقال له لوسيان في احدى المرات ، إنه لا يفهم تصرفـه هذا وان على الاصدقـــاء ان يقتسموا تـكاليف نزهاتهم . فنظر اليه برلياك بعمق وقال : «كنت أشك في ذلك فأنت ذو نزعة شرجية» وشرح له الصلة التي اعطاها فرويد بين التبرز والبخل . وقـــال له : « أود ان اعرف كم من الوقت ظلت أمك تنظف قذارتك ؟ »

وكادا ان يتخاصما .

منذ بداية شهر أيار ، أخذ برلياك يتغيب عن الكلية: وكان لوسيان يذهب للالتحاق به بعد انتهـــاء الدرس في أحد البارات في شارع البتي شان حيث كانا يشربان الفرموث ماركة المصلوب . وفي يوم الثلاثاء بعد الظهر وجد لوسيان صديقه برلياك أمام كأس فارغ . فقال برلياك : « هـا أنك اتيت . اصغ انا ذاهب الى عيادة طبيب الأسنان فموعدي في الساعة الخامسة ، انتظرني نصف ساعة لأن الطبيب يقيم في المكان المجاور» .

وأجابه لوسيان وهو يجلس متهالكاً على الكرسي :

— حسناً . يا فرانسوا اعطني كأساً من الفرموث .

وفي تلك اللحظة دخل البار أحد الرجال وابتسم بدهشة حين وقع نظره عليها . وتساءل لوسيان في نفسه : « من تراه يكون ؟ » أمـــا برلياك فقد وقف حين مد يده للغريب بطريقة تحول دون رؤية لوسيـــان . وكان

يتكلم بصوت خافت سريع ، بينما يجيبه الآخر بصوت واضح : « لا . لا يا صديقي . لن تكون سوى مهرّج »، وراح في نفس الوقت، يقف على رؤوس أصابعه ليرى لوسيان من فوق رأس برلياك ، باطمئنان هادىء . لعله في الخامسة والثلاثين من عمره . له وجه شاحب وشعر أبيض بديع . وفكر لوسيان وقلبه يخفق : « انه برجير بكل تأكيد ، كم هو جميل ! » .

أخذ برلياك الرجل ذا الشعر الأبيض بمرفقه بحركة متسلطة الى حد ما .

وقال له :

– تعال معي أنا ذاهب الى عيادة طبيب الأسنان ، على بعد خطوتين من هنا .

فأجاب بدون أن يزيح نظره عن لوسيان :

– لكنك كنت مع صديقك . وعليك أن تجري التعارف بيننا .

ونهض لوسيان باسماً . وفكر في نفسه : « خدعة ! » وتورّد خدّاه . وغار عنق برلياك بين كتفيه ، وظن لوسيان للحظة بأنه سيرفض . وقال بصوت ملؤه السرور « حسناً، قدمني له » . لكنه ما كاد يتكلم حتى بان الدم في صدغيه . وتمنى لو أنه يسقط الى باطن الأرض . وغيّر برلياك رأيه وتمتم بدون أن ينظر الى احد :

– لوسيان فلوريه ، رفيقي في الكلية ، السيد أشيل برجير .

فقال لوسيان بصوت ضعيف :

– انني معجب بكتاباتك ايها السيد .

وأمسك برجير يده بين أنامله الطويلة وحمله على الجلوس . ومرّت هنيهة من الصمت . كان برجير يغمر لوسيان بنظرة ملؤها الحنو ، وهو لا يزال يمسك بيده ، وسأله بعذوبة :

– هل أنت قلق ؟

فقال لوسيان بصوت أوضح بعد ان رمق برجير بنظرة جادة : « انــني قلق ! » وبدا له وكأنه يسمّع احـــد دروسه. وتردد برجير لحظة ثم عاد على عجل ليأخذ مكانه بعد أن ألقى قبعته على الطاولة . كان لوسيان يحترق لشدة رغبته في أن يحدث برجير عن محاولة الانتحار . انه شخص بالامكان أن تحدثه بلا مقدمات ولا تحضير . ولم يجرؤ على أن يقول شيئاً بسبب برليـاك . كان يكره برلياك . وسأل برجير الخادم :

– هل عندكم عرق ؟

فقال برلياك متضجراً:

– كلا ، ليس عندهم عرق ؛ انها حانة جميلة ولكن ليس فيهـــا سوى الفرموث .

فسأل برجير بسهولة تبلغ درجة الرخاوة :

– ما هذا الشيء الأصفر المعبأ في القنينة ؟

فأجابه الصبي :

– إنها ماركة المصلوب الأبيض .

– حسناً ، اعطني منه .

وتململ برلياك على كرسيه . وحـــار بين رغبته في امتداح اصدقـائه وخشيته من ابراز لوسيان على حسابه . وانتهى الى القول بصوت متجهم فخور :

– أراد ان ينتحر .

فيقول برجير :

– اقسم بأني أفكر بذلك .

وتمر هنيهة صمت .

كان لوسيان قد اخفض عينيه بهيئة متواضعة ولكنه تساءل ما اذا كان برلياك سيذهب . ونظر برجير فجأة الى ساعته . وسأل :

– وطبيب الأسنان ؟

ونهض برلياك بالرغم منه ورجاه :

– رافقني يا برجير ، انه على بعد خطوتين .

– لا أرافقك لأنك ستعود . سأبقى برفقة صديقك .

ومكث برلياك لحظة وراح ينط ، فقال برجير بصوت جليل :

– هيا اذهب ، ستعود للقائنا هنا .

وما ان ذهب برلياك حتى قام برجير وجلس بغير تكلف الى جانب لوسيان وسرد له لوسيان قصة انتحاره بالتفصيل . وشرح له بأنه اشتهى امه ، وبأنه سادي شرجي ، وبأنه لا يحب شيئاً في جوهره ، وبأن كل شيء عنده مهزلة . كان برجير يصغي اليه بدون أن يتكلم ، بينما لوسيان مسرور جداً لأنه وجد من يفهمه . ومـا ان انتهى ، حتى احاطه برجير بذراعه فشم لوسيان رائحة الكولونيا والتبغ الانكليزي .

– أتدري يا لوسيان ماذا اسمي حالتك ؟

فنظر اليه لوسيان بأمل وبغير خيبة .

قال برجير :

– أسميه التشوش .

التشوش : بدأت الكلمة عذبة بيضاء لكن آخرها رنّ كصوت النفير .

وقال لوسيان : « التشوش ... »

وأحس بأنه مجدّ قلق مثلما كان عليه حين قال لريري إنه مروبص . كان

البار معتماً ، لكن بابه فتح على مصراعيه لجهة الشارع ، تحت غمـــام الربيع الساطع . وكان لوسيان يشم ، عبر رائحة برجير العطرة ، رائحة الحانـــة الثقيلة ، وهي رائحـــة النبيذ الأحمر والخشب الرطب . وفكر في نفسه : « التشوش ... إلامَ سيقودني هذا ! » فلم يعرف ما اذا كان قد اكتشف فيه جدارة أم مرضاً جديـــداً . وأبصر قرب عينيه بشفتي برجير الرشيقتين ، اللتين كانتا تبديان بريق سن ذهبية ثم تحجبانه . وقال برجير :

– احب الأشخاص الذين عانوا التشوش ، وأرى أن لك حظاً خارقـاً للعادة . لأن هذا إنما هو هبة . هل ترى كل هـــذه الخنازير ؟ إنهم قوم قاعدون . ينبغي أن نقدمهم طعمة للنمل الأحمر ليعبث بهم قليلاً . أو تدري ما تفعل هذه الحيوانات الواعية ؟

فقال لوسيان :

– انها تأكل البشر .

– نعم ، انها تريح الهياكل العظمية من اللحم الانساني الذي يكسوها .

فقال لوسيان :

– انني ألاحظ ذلك .

وأضاف :

–وأنا ؟ ما ينبغي أن أفعل ؟

فقال برجير بنوع من الذعر الهزلي :

– لا شيء بحق الله . وعليك خاصة ألا تقعد مثلهم ، وعلى وتد . هل قرأت رانبو ؟

فقال لوسيان :

– كـ – لـ – لـ – لا .

– سأعيرك ديوان « الالهام » . إصغ ، ينبغي أن نجتمع في وقت آخر . فاذا كان لديك بعض الفراغ يوم الخميس، مرّ ببيتي في الساعة الثالثة فأنا اقيم في مونبارناس ٩ ، شارع الكامبانيه برمير .

يوم الخميس التالي ، ذهب لوسيان الى بيت برجير ، وصار يتردد عليه طيلة شهر أيار . واتفقا على ان يقولا لبرلياك انهما يلتقيان مرة في الأسبوع ، لأنهما يريدان ان يكونا صريحين معه بدون ان يسببا له أي عناء . وأبدى برلياك امتعاضه . وقال للوسيان ساخراً : « انه الغرام العابر ؟ شرح لك القلق ، وشرحت له الانتحار : يا للعبة الكبرى ، أليس كذلك ! » واحتج لوسيان وقال له بعد ان احمر وجهه :

- سأبرهن لك بأنك انت الذي تكلمت أولاً عن عملية انتحاري .

فقال برلياك :

– أوه ! حدث ذلك ، لأجنبك الخجل من عملية سرده بنفسك . وأبعدا أوقات لقائهما . ذات يوم قال لوسيان لبرجير :

– إن كل ما كان يعجبني فيه، أخذه عنك ، لقد أدركت هذا في الوقت الحاضر .

فقال برجير ضاحكاً :

– برلياك هو قرد ، وهذا ما جعلني أوجه اهتمامي اليه . أتدري بأن جدته لأمه يهودية ؟ وهذا ما يفسر أشياء كثيرة .

فأجاب لوسيان : « في الواقع » وأضاف بعد لحظة : « إنه شخص جذاب على كل حال» . كانت شقة برجير مليئة بالأغراض الغريبة المضحكة : كنبات ترتكز مقاعدها المخملية على سيقان نساء صنعت من الخشب المدهون ، وتماثيل سوداء ، وحزام للعفاف صنع من حديد ذي أشواك ، وأثداء من الجفصين

غرست فيهـا ملاعق صغيرة . وعلى المنضدة ، قملة هائلة من البرونز وجمجمة كاهن مسروقة من مجموعة عظام ميسترا ، تستعملان لتثبيت الأوراق . أمـا الجدران فكانت مرصوفة ببطاقات الدعوة التي تعلن عن موت برجير السريالي. الشقـة رغم كل شيء توحي بنوع من الترف الذكي ، وكان لوسيان يحب ان يستلقي على ديوان غرفة التدخين . وان ما أثار دهشته بصورة خاصة ، تلك الأشياء التي رصفها برجير على الرف : من مسحوق العطس ، الى وسخ الشيطان الى رباط الساق الخاص بالعروس ... كان برجير وهو يتكلم يتناول قليلاً من وسخ الشيطان بين أصابعه وينظر اليه باهتمام قائلاً :

ـ إن لهذه الأشياء قيمة ثورية ، انهـا تثير القلق . ان فيها قوة مدمرة تفوق القوة التي تضمهـا جميع مؤلفات لينين . وكان لوسيان ، وقد دهش وانبهر ، يتطلع تارة الى هذا الوجه المعذب ذي العينين الغائرتين ،وطوراً الى تلك الأصابع الدقيقة التي تحمل برفق تلك القذارة . كان برجير يحدثه اكثر الأحيان عن رامبو وعن الخلـل القياسي في جميع الحواس . « حين يصبح بامكانك وانت تمر في ساحة الكونكورد ، ان ترى بوضوح عندمـا تشاء ، زنجية راكعة تلحس المسلة ،عندها تستطيع ان تقول إنـك خرقت النظام وأنقذت نفسك » .وأعاره ديوان « الإلهام »و«أناشيد المالدورور» ، ومؤلفات الماركيز دي ساد . وكان لوسيان يسعى الى الفهم باخلاص ، لكن كثيراً من الأمور كانت تفوته ،كما تعجب لأن رامبو كان لواطيـاً . وسأل عن ذلك برجير الذي راح يضحك : « ولكن ، لمـاذا يا صغيري ؟ » وبدا لوسيان شديد الانزعاج . واحمر وجهه وكره برجير لمدة دقيقة من كل قلبه ؛ غير انه سيطر على نفسه ورفع رأسه وقال بصراحة بسيطة : « قلت انها قذارة » . فداعب برجير شعره : وبدا انه قد رق كثيراً وقال : « هـاتان العينان المفعمتان بالاضطراب ، عينا الغزالة ... أجل يا لوسيان . قلت انها قذارة . إن لواطة رامبو هي الخلل الأول والنابغ في حساسيته.وانما نحن مدينون لها بقصائده . فالاعتقاد بأن هناك أغراضاً مميزة خاصة بالرغبة الجنسية ، وبأن

هذه الأغراض هي النساء لان لهن ثقباً بين الساقين ، ان هو إلا اعتقاد بغيض خاطىء لدى «القاعدين» . انظر ! » واخرج من مكتبه حوالي اثنتي عشرة صورة مصفرّة ورماها على ركبتي لوسيان . ورأى لوسيان صوراً مذهلة للبغايا العاريات ، ضاحكات بأفواههن الخالية من الاسنان ، وقد باعدن ما بين سيقانهن كما تتباعد الشفاه ، وغرسن بين أفخاذهن شيئاً كاللسان المكسو بالريق. وقال برجير: «اشتريت المجموعة بثلاثة فرنكات في أبو سعدة ، انك إن قبّلت مؤخرة هؤلاء النسوة ، تكن ابن عائلة ، وكل الناس يقولون إنك تعيش حياة رجل . لأنهن نساء ، هل تفهم ؟ وأنا أقول لك بأن أول ما يجب أن تفعله هو أن تقتنع بأن « كل شيء » يمكن أن يشكل غرضاً للرغبة الجنسية ، من آلة الخياطة الى الانبوب الزجاجي ، وكذلك الحصان أو الحذاء». وقال ضاحكاً :

– أنا نكحت الذباب ، واعرف جندياً بحرياً ينكح البط . كان يضع رؤوسها في درج الطاولة ، ويمسكها بقوة من ساقيها ، ويبدأ ! وقرص برجير اذن لوسيان وختم حديثه : « كانت البطة تموت على الأثر ، فيأكلها الجندي » .

كان لوسيان يخرج من تلك المحادثات ملتهب الرأس ، يفكر بأن برجير عبقري ، لكنه في بعض الأحيان كان يستفيق من نومه وقد تبلل جسمه بالعرق ، وتتكدس في رأسه من جديد رؤى رهيبة بذيئة ، ويتساءل ما اذا كان برجير يؤثر عليه تأثيراً حسناً . وتنهد وهو يلوي يديه : « أن اكون وحيداً ! ما من احد ينصحني ، ويقول لي اذا كنت على « الصراط المستقيم ! » فلو ذهب الى آخر الشوط ، ومارس جميع انواع الخلل في حواسه ، افلن تزل قدمه ويغرق ؟ وذات يوم ، بينما كان برجير يحدثه مطولاً عن اندريه بريتون ، تمتم لوسيان وكأنه في حلم : « نعم ، ولكن اذا كنت ، بعد هذا ، لا اودّ الرجوع الى الوراء ؟ » فارتجف برجير وقال : « تعود الى الوراء ؟ من يتحدث عن الرجوع الى الوراء ؟ لو تصبح مجنوناً يكن هذا افضل . وبعدها ، على

حد قول رامبو : سيأتي عمال بغيضون آخرون » . فقال لوسيـــان بأسى : « هذا ما فكرت به » . ولاحظ ان محادثاته الطويلة كانت تصل الى نتيجـة معاكسة لتلك التي يبغيها برجير ! ما ان يباغت لوسيان نفسه وهـــو يعاني حساً دقيقاً نوعاً ما ،او انطباعاً خاصاً ، حتى يبدأ بالارتجاف وفكر في نفسه: « ها ان الأمر قد بدأ . وتمنى لو انه لا يشعر بعد الآن بسوى تلك الأنواع السخيفة والكثيفة من الادراك الحسي . ولم يعد يشعر بالطمأنينة إلا عنـــد المساء ، حين يكون مع ابويه : هناك كان ملاذه . كانا يتحدثان عن بريان ، وعن سوء نية الألمان ، وعن ولادة نسيبتها جان ،وعن غلاء المعيشة . وكان لوسيان يبادلهم تلك الآراء بلذة ، وبنوع غليظ من انواع الحس السليم . ذات يوم وكان عائداً من بيت برجير، اغلق الباب بالمفتاح آلياً وضغط على الزليـــج. ولما ادرك حركته تلك ، اجهد نفسه بالضحك ، لكنه لم يستطع النوم طيلة الليل : وفهم بأنه خائف .

غير انه لن يتخلى بأي ثمن عن صداقة برجير . كان يقول لنفســـه : « انه يسحرني » . ثم انه كان يقدر هذا النوع المميز من انواع الصداقة الذي أحسن برجير اقامته بينهما . فبدون ان تفارقه نبرة الرجولة ، كان بامكان برجير ان يجعل لوسيان يشعر بجنوه : اذ كان مثلاً يعيد ربط ياقته، ويزجره لانه لا يحسن هندامه ، ويسرح له شعره بمشط ذهبي من صنـــع كمبوديا . وكشف للوسيان عن خفايا جسده وشرح له حلاوة الشباب القاسية المفعمـة بالعاطفة . كان يقول له : « انك انت رامبو ، كانت له يداك الكبيرتان حين قدم الى باريس لمقابلة فرلين ، كان له هذا الوجه الوردي ، وجه الفلاح الشاب الرافل بالصحة، وهذا الجسد الطويل الناحل كجسدفتاة شقراء » . كان يرغم لوسيان على فك قبته وفتح قميصه ، ثم يقوده شارداً ، الى المرآة ، يمتعـــه بهذا الانسجام الجذاب بين خديه الأحمرين وعنقه الأبيض ؛ وعندهـا يلامس برفق ردفي لوسيان ويضيف بحزن : « على المرء أن ينتحر في سن العشرين ». في الوقت الحاضر ، اصبح لوسيان كثير التطلع في المرآة ، لقد تعلم كيف

يستمتع بشبابه الغض . وفكر وهو يخلع ثيابه بحركات ملؤها العذوبة بأنه رامبو . وبات يعتقد بأن حياته ستكون قصيرة مؤلمة كحياة زهرة رائعة الجمال. في تلك اللحظات ، يتبادر الى ذهنه بأنه رأى في السابق انطباعات وصوراً كهذه : ويرى نفسه من جديد ، بفستانه الطويل الأزرق وجناحي الملاك ،يوزع الزهور في عملية بيع ،قصد الاحسان . ويتطلع الى ساقيه الطويلتين . ويقول في نفسه بارتياح : « هل صحيح ان جلدي ناعم الى هذا الحدّ ؟ » ومرة راح يمر بشفتيه فوق ذراعه ، من القبضة حتى المرفق ، على طول وريد أزرق جميل .

ذات يوم وهو يدخل بيت برجير ،حصلت له مفاجأة لا يرغب فيها : برلياك كان هناك يقطع بالسكين أقساماً من مادة مائلة للسواد تشبه قطعة من التراب . لم يكن الشابان قد التقيا منذ عشرة أيام : وتصافحا ببرود . وقال برلياك : «هل ترى هذه ، انها قطعة حشيش ، سنضع قليلاً منها في الغليون بين طبقتين من التبغ الاشقر ، وستحدث مفعولاً مدهشاً » . وأضاف : «ولك فيها حصة » وقال لوسيان : « شكراً ، أنا لا أتمسك بهذه الحصة » وراح الآخران يضحكان بينما كان برلياك يلح عليه بعين غاضبة : « انما انت مغفل ، ستأخذ قليلاً منها : فليس بامكانك ان تتصور كم هذا لذيذ » . فقال لوسيان: « قلت لك لا » . ولم يجب برلياك بشيء ، وأخذ يبتسم أبتسامة متفوقة ، ورأى ان لوسيان يبتسم هو الآخر . فضرب برجله وقال : « لا أريد تلك القطعة ، لا أريد ان ارهق نفسي ، فمن البلاهة ان يتعاطى المرء هذه القضايا التي تجعله مخبولاً » . قال هذا بالرغم منه ، ولما أدرك مآل كلامه وتصور ما يمكن لبرجير ان يعتقده فيه ، اعترته رغبة في قتل برلياك ، وتصاعدت الدموع الى عينيه . وقال برلياك وهو يهز كتفيه : « انت بورجوازي ، تتظاهر بأنك تعوم ،لكنك تخاف ان تزل قدمك ». فقال لوسيان بصوت اكثر هدوءاً : « لا أريد أن أدمن على المخدرات ، انها عبودية كسائر أنواع العبودية وأريد ان أظل جاهزاً في كل وقت » . فأجاب برلياك بحدة : « قل

بأنك لا تريد ان تنتمي » . وهم لوسيان بصفعه ضربتين لما سمع صوت برجير الجليل يقول لبرلياك : « دعه يا شارل، فالحق الى جانبه . وخوفه الانتماء نوع من التشوش أيضاً »، ودخّنا وهما مستلقيان على الديوان، وتصاعدت في الحجرة رائحة ورق ارمينيا . أمـــا لوسيان فقد جلس على كنبة من المخمل الأحمر ناظراً اليهما بصمت . وما هي إلا لحظة حتى أرخى برليـاك رأسه الى الوراء وخفق حاجباه بنوع من الابتسامة المبللة. وأخيراً نهض برلياك وغادر الحجرة بخطى مترددة : لقد حافظ حتى النهاية على تلك الابتسامة الناعسة اللذيذة فوق شفتيه . وقال لوسيان بصوت مبحوح : « اعطني غليونـــاً » . فأخذ برجير يضحك وقال : « لا داعي لذلك . ولا تهتم لبرلياك . فأنت لا تعرف ما هو يفعل في هذه اللحظة؟». فقال لوسيان : « هذا لا يهمني ». فقال برجير بهدوء: « حسناً ، إعلم مع ذلك انه يقيء. هذا هو المفعول الوحيد الذي يحدثه الحشيش فيه . اما الباقي فليس سوى مهزلة ، لكنني أعطيه ليدخن في بعض الأحيان فهو يريد ان يلفت نظري اليه . وهذا مـــا يسليني » وفي صبيحة اليوم التالي جاء برلياك الى الكلية وأراد ان يعامل لوسيان من فوق . وقال له : « انت تصعد في الحافلات، لكنك تحسن اختيار الذين يظلون في المحطة». فأجـابه لوسيان : « أنت كثير الادعاء لعلك لا تدري أنني اعرف مـــا كنت تفعله امس في الحمام ؟ كنت تقيء ، ياصاحبي !» فاصفر وجه برلياك : « هل أن برجير هو الذي اخبرك بذلك ؟ »

— من تريد ان يكون ؟

فتمتم برلياك :

— حسناً ، ولكنني لم أكن لأظن أن برجير يهزأ من اصحابه القدامى مع أصحابه الجدد . كان لوسيان مضطرباً نوعاً ما فقد وعد برجير بأنه لن يتكلم عن شيء . وقال:« حسناً إنه لم يسخر منك ، بل أراد ان يبرهن على انقصصك

لا تنطلي عليه». لكن برلياك أدار ظهره وخرج بدون ان يشد على يد لوسيان. ولم يكن لوسيان فخوراً جداً حين صادف برجير في المرّة الثانية . سأله برجير بهيئة لا تنم عن شيء :

– ماذا قلت لبرلياك ؟

وأخفض لوسيان رأسه بدون أن يجيب. كان متضايقاً جداً .وفجأة احس بيد برجير فوق رقبته : « لا بأس عليك يا صغيري . على كل حال يجب ان ينتهي الأمر : فالممثلون لا أرغب بهم دائماً » . واستعاد لوسيان بعض قوته ، ورفع رأسه وابتسم وقال : « لكنني أنا ممثل ايضاً » .

فأجابه برجير وهو يضمه اليه :

– نعم ، ولكن انت ، انت جميل .

وسمح لوسيان بذلك . واحس بأنه عذب كالفتاة وتصاعدت الدموع الى عينيه. وعانقه برجير على خدّه ، وعضّ له شفتيه برفق وهو يناديه تارة « بالأبله الصغير » . وطوراً « بأخي الصغير » . وفكر لوسيان بأن من حسن الحظ ان يكون للمرء اخ كهذا الأخ .

وأراد السيد فلوريبه وزوجته أن يتعرفا على برجير الذي كان لوسيان يتحدث عنه ودعياه ، لتناول طعام العشاء .لقد وجده الجميع جذاباً ، حتى جرمين ، التي لم تر في حياتها رجلاً جميلاً الى هذا الحد . وكان السيد فلوريبه قد تعرف في السابق على عمه الجنرال نيزان وتحدث عنه مطولاً . لذا كانت السيدة فلوريبه سعيدة بأن تولي برجير امر مرافقة ولدها في عطلة عيد العنصرة . وقصدا روان ، بالسيارة . كان لوسيان يريد زيارة الكاتدرائية ودار البلدية ، لكن برجير رفض تمام الرفض . وسأله بوقاحة : « تريد زيارة هـذه القاذورات ؟ » واخيراً ذهبا ليقضيا ساعتين في شارع الكوردلييه ، وكان برجير مضحكاً : إنه ينادي جميع الأشخاص « آنستي » وهـو يرفس

لوسيان برجله من تحت الطاولة ، ثم رضي بالصعود مع احداهن لكنه ما لبث ان عاد بعد خمس دقائق وقال : « فلنذهب من هنـــا ، وإلا سيكون الأمر خطيراً » . ودفعا الثمن على عجل وذهبا. في الشارع اخبره برجير عما حصل له . اغتنم الفرصة عندما ادارت الفتاة ظهرها ليرمي على السرير قبضة من الشعر ، ثم اعلن لها انه عاجز واسرع بالنزول . كان لوسيان قــد احتسى كأسين من الوسكي وقد داخ قليلاً : فغنى نشيد المدفع والدي بروفوندس موربيونيبوس . ورأى أنــه من الأمور الرائعة أن يكون برجير يجمـــع عمق التفكير الى الصبيانية .

وما إن وصلا الى الفندق حتى قال برجير : « لم احجز سوى غرفة واحدة لكن فيها حماماً كبيراً » . ولم يندهش لوسيان إذ كان يتوقع بصورة مبهمة انه سيقتسم مع برجير غرفة واحدة ، ولكن بدون ان يتوقف كثيراً عند هذه الفكرة . أما الآن ولم يعد بوسعه ان يتراجع فقد بدت له الفكرة مزعجة بعض الازعاج ، لا سيما وان قدميه لم تكونا نظيفتين . وتصور ، بينما كان الخدم يصعدون الحقائب ، بأن برجير سيقول له : « كم انت قذر ، ستوسخ الغطاء » . وسيجيبه لوسيان بوقاحة : « لديك أفكار بورجوازية عن النظافة » . لكن برجير دفعه الى غرفة الحمام مع حقيبته قائلاً له :

– تدبر امرك في الداخل ، وأنا سأخلع ثيـــابي في الغرفة . وغسل لوسيان قدميه وبعض جسمه . وكان يشعر بحاجة الذهاب الى المرحاض لكنه لم يجرؤ على ذلك واكتفى بأن يبول في المغسلة ؛ ثم أرتدى قميص النوم ، وانتعل الخف الذي أعارته أمه إياه (فخفه هو ، كان مثقوباً) وضرب على الباب سائلاً :

– هل انت مستعد ؟

– نعم ، نعم أدخل .

كان برجير قد ارتدى روب النوم الأسود فوق بيجاما زرقـــاء فاتحة . وكانت رائحة العطر تفوح في الغرفة . وسأل لوسيان : « ألا يوجد سوى سرير واحد ؟ » ولم يجب برجير : بل كان ينظر الى لوسيان مشدوهاً وانتهت دهشته بضحكة قوية وقال له : « انك بثياب الزينة . مـاذا فعلت بقبعة النوم ؟ آه ! كلا انت مضحك جداً أريدك ان ترى نفسك » .

فقال لوسيان بانزعاج :

— ها قد مرت سنتان وأنا أطلب الى أمي ان تشتري لي بيجاما .

واقترب منه برجير وقال له بلهجة لا تحتمل جواباً :

— هيا ، اخلع هذا ، سأعطيك احدى بيجاماتي . ستكون واسعة بعض الشيء ، لكنها ستوافقك أكثر من هذا الثوب .

وظل لوسيان مسمراً في وسط الغرفة ، عيناه تنظران الى المربعات الحمراء والخضراء المرسومة على السجادة . كان بوده ان يعود الى الحمام لكنه خشي من ان يعتبر مغفلاً ، وبحركة عاجلة شمر قميصه الى ما فوق رأسه . ومرت هنيهة صمت . كان برجير يتطلع الى لوسيان مبتسماً ، وأدرك لوسيان انه عار وسط الغرفـة ينتعل في رجليه خفي أمه . ونظر الى يديه — يدي رامبو الكبيرتين — واراد ان يضعهما فوق بطنه ليخبئهـــا على الأقل ، لكنه تنبه ووضع يديه خلف ظهره . على الجدران ، وبين صفين من المربعات ، كان يبدو من بعيد مربـــع بنفسجي اللون . وقال برجير : « اقسم بأنه لأطهر من فتاة : لوسيان ، انظر الى نفسك في المرآة فقد احمر لونك حتى الصدر . غير أنك افضل على هــذا الشكل ، مما كنت عليه بتلك الثياب » . فقال لوسيان بجهد : « نعم ولكن لا يمكن للإنسان ان يكون ظريفاً حين يكون عارياً . اعطني البيجاما بسرعة » . فرمى له برجير بيجاما من الحرير تفوح منها رائحـــة العطر ، وذهبا الى السرير . ومر وقت من الصمت ثقيل فقال لوسيان : « صحتي سيئة . أريــد أن أقيء » . ولم يجب برجير وتجشأ الوسكي . وقال في نفسه : « سينـــام

معي » ،وراحت مربعات السجادة تدور بينما كانت رائحة العطر الخانقة عالقة في حلقه .

« لم يكن ينبغي ان اقوم بهذه الرحلة » . ليس له حظ . لعشرين مرة خلال هذه الايام الاخيرة ، أصبح على قاب قوسين أو ادنى من معرفة الشيء الذي يريـــده برجير ، ولكن في كل مرة ،كانت تمر حـــادثة فتحوله عن تفكيره . والآن ، انه هنا موجود ، في سرير الرجل ، ينتظر متعته اللذيذة « سآخذ وسادتي وأذهب الى الحمام لأنام فيه » . لكنه لم يتجرأ ، اذ فكر بنظرات برجير الساخرة . وراح يضحك وقــال : « افكر بتلك البغي : لا بد وأنها تفرك نفسهــا الآن » . ولم يجب برجير . فنظر اليه لوسيان بطرف عينيه : كان مستلقياً على ظهره ، عليه سيماء البراءة ، ويداه تحت عنقه . عندها اعترى لوسيان غيظ شديد ، فانتصب على احد مرفقيه وقال له : « حسناً ، ماذا تنظر ? هل اصطحبتني الى هذا المكان لأزدان بالجواهر ? ».

كان الوقت قد فات حتى يندم على عبارته :واتجه برجير اليه ونظر اليه نظرة ملؤها السرور: « يا لك من آلة ذات وجه ملائكي .وأخيراً يا طفلي الصغير ،أنا لم أدفعك لتقول هذا : ستعتمد عليّ لكي يدب الخلل في حواسك الصغيرة »ونظر اليه لحظة أخرى ، وكاد وجهاهما ان يتلامسا ، ثم أخذ لوسيـــان بين ذراعيه وداعب صدره من تحت سترة البيجاما . لم يكن هذا كريهاً ، بل هو عذب إلى حد ما ، إلا ان برجير كان مخيفاً : إذ بدت عليه سيماء البلاهة ،وراح يردد بقوة : « ألا تخجل ايها الخنزير الصغير . ألا تخجل ! » وكأنه اسطوانـــة الفونوغراف تعلن عن مواعيد القطارات . اما يد برجير فـكانت بالعكس حية رشيقة وكأنها إنسان . كانت تلامس برفق طرف ثديي لوسيان ، وكأنهـــا دغدغة الماء الساخن عندما يدخل المرء الى الحمام . وودّ لوسيان لو انه يمسك تلك اليد ، ويزيحها عنه ويلويها ، لكنّ برجير سيسخر منـــه ولا شك . وتزحلقت اليد على طول بطنه وتوقفت قليلاً لتفك عقدة الحزام الذي يشـد

السروال . وترك اليد تتزحلق : كان ثقيلاً مائعاً كالاسفنجة المبللة وهو في ذروة الفزع . وازاح برجير الغطاء ، ووضع رأسه على صدر لوسيان وكأنه يجسه . وتجشأ لوسيان مرتين وخشي ان يقيء على شعر برجير الفضي الجميل. وقال له : « انك تضغط على معدتي » .فارتفع برجير قليلا ووضع احدى يديه تحت كليتي لوسيان، اما اليد الاخرى فلم تعد تدغدغه بل راحت تشدّ عليه . وقال برجير فجأة: « لك فخذان جميلان » وظن لوسيان انه يرى كابوساً : فسأل بغنج : « هل يعجبانك ؟ » لكن برجير تركه فجأة ورفع رأسه على عجل وقال بغضب : « يا لك من مغفل لعين ، ها قد مضت ساعة ، وهو يريد أن يلعب دور رامبو ، ولم استطع حتى الآن ان اهيّجه » وتصاعدت الى عيني لوسيان دموع الغيظ ودفع برجير عنه بكل قواه وقال بصوت دقيق : « انها ليست غلطتي، فقد قدمت لي كثيراً من الشراب وأريدالآنأن أقيء . » فقال برجير : « حسناً اذهب . اذهب . واملأ وقتك » واضاف من بين أسنانه : « يا لها من امسية عذبة ». ورفع لوسيان سرواله ، وارتدى روب النوم الأسود وخرج . ولما أقفل باب المرحاض من جديد أحس بالوحشة والفراغ الذين يعانيها ، الى حد ان الدموع انهمرت من عينيه . لم يكن في جيب روب النوم منديل فمسح عينيه وأنفه بالورق الصحي . وأدخل اصبعيه مراراً في حلقومه ولكن عبثاً ، لم يستطع أن يقيء . عندها أنزل سرواله آلياً وجلس على المقعد وهو يرتجف . وفكر في نفسه : « يا له من قذر ! يا له من قذر ! » احس بأنه مهان الى حد بعيد ، لكنه لا يعرف إذا كان خجلاً من مداعبات برجير أو من عدم اضطرابه . كانت تأتيه من الممر قرقعة ترتعد فرائصه عند سماعها ، لكنه لم يكن بوسعه أن يقرر دخول الغرفة . وفكر في نفسه : « ينبغي على كل حال أن اعود اليها والا فسيسخر مني – مع برلياك ! » وهمّ بالوقوف ، لكنه رأى فجأة برجير بوجههالحيواني وكان يسمعه يقول : « ألا تخجل ايها الخنزير الصغير ألا تخجل » . فعاد الى الجلوس يائساً كل اليأس ! وما هي إلا لحظة حتى اصيب باسهال قوي فارتاح

قليلاً وفكر في نفسه : « ها ان الأمر ينتهي من تحت ، وأنا افضل هذا » . في الواقع ، انه لم يعد يرغب في التقيؤ . وفكر في نفسه فجأة : «سيؤذيني » وظن بانه سيغمى عليه . واخيراً شعر لوسيان بالبرد الشديد واخذت اسنانه تصطك ؛ وفكر بانه سيصاب بالمرض في الحال . ولما عاد ، نظر اليه برجير متضايقاً ؛ كان يدخن سيكارة ، وبيجامته مفتوحة ، يبدو من تحتها صدره الضعيف . وخلع لوسيان بتؤدة ، خفّه وروب النوم ، وانزلق تحت اللحاف بدون أن ينبس بكلمة . فسأله برجير : « كيف انت ؟ » فهز لوسيان كتفيه : « أشعر بالبرد !»

— هل تريد ان أدفئك ؟

فقال لوسيان :

— حاول دائماً .

في هذه اللحظة أحس بأنه ينسحق تحت عبء ثقيل . والتصق بفمه فم ساخن رخو ، وكأنه البفتاك النيء. لم يعد لوسيان يفقه شيئاً ، ولم يعد يدري اين هو وكاد ان يختنق ، لكنه سر لانه شعر بالدفء . وفكر بمدام بيس التي كانت تضع يدهـا على بطنه وهي تناديه « يا لعبتي الصغيرة » . وفكر ايضاً بهبرار الذي كان يسميه « الهليونة الكبيرة » . ويقول في نفسه : « أنا لعبته الصغيرة ! » في تلك اللحظة أرسل برجير صيحة الانتصار وقال : « وأخيراً ها انك تصمم » . وأضاف وهو يلهث : « هيـا ، سنصنع منك شيئاً » . وحرص لوسيان على ان يخلع بيجامته بنفسه .

في اليوم التالي ، استيقظا عند الظهر . وأتى الخادم بطعامهما الى السرير ، ووجد لوسيان انهغريب الهيئة . وفكر في نفسه بارتعاشة تنم عن الاشمئزاز : « انه يعتبرني مغفلاً » ، أما برجير فكان في منتهى الدماثة ؛ ارتدى ثيابه قبل لوسيان وراح يدخن سيكارته في محلة الفيور مارشيه بينما كان لوسيان يستحم

وفكر لوسيان وهو يفرك جسمه بعناية : « كل ما هنالك ، ان العملية مقلقة » . ما ان مضت لحظة الذعر ، وأحس بأنها ليست أليمة بقدر ما توقع ، اجتاحه قلق قاتم . كان يأمل دائماً ان ينتهي ذلك وان يستطيع ان ينام ، لكن برجير لم يتركه وشأنه قبل الرابعة صباحاً وقال في نفسه : « ينبغي ان أنهي مسألة التريفونومتري مهما يكن من أمر ». وحاول ان يحصر تفكيره بعمله . كان النهار طويلاً . سرد له برجير قصة لوترِيامون ، لكن لوسيان لم يصغ اليها بانتباه . اذ ان برجير بات يزعجه قليلاً . وفي المساء ، ناما في كودبيك ، وبالطبع أزعج برجير لوسيان لوقت لا بأس به ، ولكن نحو الساعة الواحدة ، قال له لوسيان بصراحة إنه يشعر بالنعاس ، فتركه برجير وشأنه بدون ان يغضب . وعاد الى باريس في نهاية بعد الظهر . ولم يكن لوسيان راضياً عن نفسه .

واستقبله أبواه استقبالاً حسناً . وسألت امه : « هل شكرت السيد برجير على الأقل » . وتحدث معها قليلاً عن الريف النورماندي وآوى الى فراشه في ساعة مبكرة . ونام كالملاك ، لكنه في صبيحة اليوم التالي ، شعر عندما استيقظ بأنه يرتجف في داخله . فنهض ونظر الى نفسه ملياً في المرآة . وقال في نفسه : « أنا لواطي » . وخارت قواه . وصاحت أمه من خلف الباب : « انهض يا لوسيان عليك ان تذهب الى الكلية هذا الصباح » فأجابها لوسيان بليونة : « نعم يا أمي » . لكنه استلقى على سريره وراح ينظر الى اصابع قدميه . « ليس هذا صواباً ، لم اكن أعي ذلك ؛ أنا ؛ ليست لدي أية تجربة » . تلك الأصابع ، قد مصها احد الرجال الواحدة تلو الاخرى . واشاح لوسيان بوجهه بعنف : « كان هو يعرف ذلك إن الفعل الذي جعلني أقدم عليه يحمل اسماً ، انه يسمى مضاجعة رجل لرجل ، وهو يعرف ذلك » . انه امر مضحك — وابتسم لوسيان بمرارة — بوسع الجميع ان يتساءلوا أياماً طوالاً : هل انا ذكي ، هل أنا ساذج ، وليس بالامكان التوصل الى نتيجة . الى جانب هذا ، هناك أمور تتعلق بك يوماً من الأيام ، وينبغي تحملها طيلة الحياة . كان لوسيان ، على سبيل المثال ، طويلاً اشقر ، يشبه أباه ،

وهو ابن وحيد ، وهو لواطي ابتداء من يوم أمس سيقال عنه : « فلوريه . أنت تعرف حق المعرفة،هذا الطويل الأشقر الذي يحب الرجال! » وسيجيب الناس : « آه ! نعم . الرجل الطويل ؟ حسناً ، أعرف من هو » .

وارتدى ثيابه وخرج ، لكنه لم ينو الذهاب الى الكلية . ونزل الى جادة لامبال حتى وصل الى السين . وسار بمحاذاة الأرصفة . كانت السماء صافية ، والشوارع تفوح برائحة الورق الأخضر والقطران والتبغ الأنكليزي .وقت يحلم المرء به ليرتدي أحلى ثيابه على جسده النظيف وبروح جديدة . كان الجميع يتمتعون بمعنوياتهم ؛ أمـــا لوسيان فظل وحده محتاراً وغريباً في هذا الربيع . وفكر في نفسه : « انه الأنحدار الحتمي : بدأت بعقدة أوديب ، ثم أصبحت سادياً شرجياً، والآن جمعت كل شيء اذ اصبحت لواطياً . فأين ينبغي ان اقف ؟» لا شك ان حالته لم تكن شديدة الخطورة . فـــلم يستمتع كثيراً بمداعبات برجير . ولكنه فكر بقلق : « ولكن اذا اعتدت على ذلك؟ لا يعود بامكاني الاستغنـــاء عنه ، اذ يصبح كالمورفين ! » سيصبح رجلاً ذا عاهة ، ما من أحد يقبل ان يستقبله ، وسيسخر منه عمال أبيه عندما يصدر اليهم أمره . وتصور لوسيان مصيره الرهيب . ورأى نفسه في الخـــامسة والثلاثين رقيقاً متبرجاً ، ورجلاً له شاربان يحمل وسام جوقة الشرف ، يرفع عصاه بهيئة تبعث على الرهبة . « ان وجودك هنا ايهـا السيد إهانة لبناتي » وفجأة تأرجح ذات اليمين وذات اليسار فقد تذكر عبارة من عبارات برجير كان ذلك في كودبيك اثناء الليل . قال له برجير : « حسناً قـل لي . هل أصبحت تستسيغ ذلك ! » ما كان يعنيه ! بالطبع ، لم يكن لوسيان من خشب . وقال في نفسه قلقاً : « هذا لا يدل على شيء » . لكن هنـاك من يعتقد بأن هؤلاء الأشخاص كانوا مدهشين في التعرف على اشباههم، كانت لديهم حاسة سادسة . نظر لوسيان مطولاً الى رقيب المدينة الذي كان ينظم السير أمام جسر الايانا . « هل بامكان هذا الشرطي ان يهيجني ؟ » وثبت نظره على سراول الشرطي الأزرق ، وتصور فخذيـــه الزاخرين بالعضلات، المكسوين

بالشعر : « هل يصنع لي شيئاً ؟ » وذهب بعد ان وجد لنفسه تعزية . وفكر في نفسه : « ليس الأمر خطيراً جداً ، إذ أن بإمكاني ان انقذ نفسي . لقد افرط في استغلال تشوشي لكنني لست لواطياً حقيقياً ، وعاود ، التجربة مع جميع الرجال الذين صادفهم ، وفي كل مرة كانت النتيجة سلبية . وفكر في نفسه : « أف ، انني أشعر بشدة الحر . » ان هذا تحذير ، ذلك كل شيء . ليس عليه ان يعيد الكرة ، لأن العادة السيئة يمكن تلقنها بسرعة ثم ان عليه ان يشفى من عقده بسرعة ، وقرر ان يذهب ليجري لنفسه تحليلاً عند محلل نفسي بدون ان يعلم أبويه بذلك . وبعدها ، يتخذ لنفسه عشيقة ويصبح رجلاً كسائر الرجال .

وبدأ لوسيان يطمئن حين يفكر ببرجير : في نفس اللحظة ، كان برجير في باريس شديد الرضى عن نفسه يعيش مع ذكرياته الجميلة : « انه يعرف كيف تكويني ، ويعرف فمي ، لقد قال لي : « لك رائحة لن أنساها قط ». سيذهب الى اصدقائه ليفتخر أمامهم ويقول : « لقد نلته » . في هذه اللحظة يمكن ان يكون منهمكاً بسرد اخبار لياليه الى ... – وتوقف قلب لوسيان عن الخفقان – الى برلياك ! لو فعل هذا ، لقتلته . ان برلياك يكرهني ، وسيخبر بذلك جميع من في الصف ، فأصبح رفيقاً مارقاً ،ويرفض رفاقي أن يمدوا ايديهم لمصافحتي . وقال لوسيان في نفسه ايضاً : « سأقول إن ذلك غير صحيح ، وسأقيم دعوى ، وأقول انه اغتصبني ! » ، كان لوسيان يكره برجير بكل ما أوتي من قوة : فبدونه ، بدون هذا الضمير الفاضح الذي ليس له دواء ، كان بالامكان تسوية كل شيء ، إذ لا أحد يدري بذلك ثم إن لوسيان نفسه سينسى الأمر . « لو كان بالإمكان أن يموت بسرعة ! يا ربّ ، أتوسل اليك،اجعله يموت هذه الليلة قبل أن يخبر أحداً بذلك .ربّ ، إجعل هذه القصة منسية ، فأنت لا تقبل بأنأكون لواطياً !» وفكر لوسيان بغيظ : « انه يمسكني على كل حال . سينبغي أن أعود الى بيته وافعل كل ما يريده مني وأن أقول له بأنني احب تلك العادة ، وإلا لفقدت نفسي !» ومشى

خطوات اخرى وأضاف كأنه يقدم على تدبير احترازي : « ربّ ، واجعل برليـــاك يموت أيضاً » .

لم يعد بوسع لوسيان ان يعود الى بيت برجير . وفي الأسابيــع التي تلت ، كان يظن بأنه يلاقيه عند كل خطوة ، وعندما يعمل في غرفته ، ترتعـــد فرائصه لدى سماعه الجرس . في الليل رأى كوابيس رهيبة : برجير يأخذه بالقوة في باحة كلية سان لويس ، أمام أنظار جميــع الرفاق الذين ينظرون ساخرين . لكن برجير لم يقم بأية حركة لمقابلته ولم تصدر عنه أية إشارة تدل على أنه حيّ .وفكر لوسيان مزعوجاً : « ما كان يبغي سوى جلدي ». واختفى برلياك برفقته ايضاً. وغيغار ، الذي كان يذهب احياناً الى ميدان السباق يوم الأحد ، أكد بأنه غادر باريس على اثر انهيار عصبي . وهدأت اعصاب لوسيان شيئاً فشيئاً : إن رحلته الى روان أحدثت في نفسه أثر حلم غامض فظ لا يرتبط بشيء . لقد نسي جميــع تفاصيله ، ولم يعـــد يتذكر سوى رائحة اللحم البشري الكئيبة ، ورائحة العطر وكذلك القلق الذي لا يرحم . وسأل السيد فلوربيه مراراً عمّا حدث للصديق برجير : « ينبغي أن ندعوه الى فيرول لنشكره » . فأجاب لوسيان :

– لقد ذهب الى نيويورك .

وذهب لوسيان مرّات عديدة وتمرن على شاطىء المارن على قيادة القوارب برفقة غيغار وشقيقته ، وعلمه غيغار الرقص . وفكر في نفسه : « ها انــني أستيقظ ، وأحيا من جديد » . لكنه لا يزال يحس في بعض الاحيان بعبء يرزح على كاهله : تلك هي عقده النفسية ؛ وتساءل اذا كان يجب أن يذهب لمقابلة فرويد في فينا : « سأذهب بدون نقود ، مشياً على الأقدام اذا اقتضى الأمر ، سأقول له : أنا مفلس لكنني امثل قضية معينـــة » . وفي اصيل يوم حار من أيار حزيران التقى في جادة سان – ميشال إلبدوان ، استاذه السابق في الفلسفة . فسأله البدوان :« ماذا يا فلوربيه ، هل تعد المدرسة المركزية ?»

فقال لوسيان : « نعم يا استاذ » . فقال إلبدوان : « كان بامكانك أن تتجه نحو الدراسات الأدبية . فقد كنت من الطلبة الماهرين في مادة الفلسفة » . فقال لوسيان : « لم اتخلّ عن الفلسفة . وقد طالعت كثيراً هذه السنة . طالعت فرويد مثلاً » . وأضاف وكأن وحياً قد أتاه : « كان بودي أن اسألك يا استاذ : ما رأيك بالتحليل النفسي ؟ » فأجابه إلبدوان ضاحكاً : « انها تقليعة وتمرّ . وإن ما تجده حسناً عند فرويد ، تجده ايضاً عند افلاطون » . وأضاف بلهجة لا تحتمل المناقشة : « على اني لا أحسم في مثل هذه الأمور ، ولكن عليك ان تقرأ سبينوزا » . واحس لوسيان بأنه يرتاح من عبء ثقيل ، وعاد الى بيته وهو يصفر وفكر في نفسه :

« كان كابوساً ، ولم يبق منه شيء ! » كانت الشمس محرقة في ذلك النهار ، لكن بوسع لوسيان أن يواجه هذا النهار ؛ انه تخلص ! وفكر في نفسه ؛ « انه هراء . انه هراء . لقد حاولوا ان يجعلوني مجنوناً لكنهم لم يفلحوا ». في الواقع انه لا زال يقاوم : صحيح ان برجير قد اثر عليه في تحليلاته ، لكن لوسيان يحس مثلاً بان لواطة رامبو هي عيب متأصل فيه ، وتذكر حين أراد هذا البرجير أن يدخن له الحشيش فقاومه . وفكر : « كدت أن أفقد نفسي ، لكن الذي انقذني انما هي صحتي المعنوية » . وفي المساء ، نظر الى أبيه والعائلة جالسة الى مائدة الطعام ، نظرة ملؤها الحنو . كان السيد فلوريه مربع الكتفين ، ثقيل الحركات ، أغبر العينين ، نحاسي النظرات كالرؤساء . وفكر لوسيان : « انني اشبهه » . وتذكر بان أفراد عائلة فلوريه ، أباً عن جد ، كانوا من أرباب الأعمال في الصناعة ، منذ أربعة أجيال. « ومهما قيل ، فإن العائلة موجودة ! » ثم فكر باعتزاز بصحة آل فلوريه المعنوية .

لم يتقدم لوسيان هذه السنة لامتحان المدرسة المركزية ، وذهبت عائلة فلوريه الى فيرول في وقت مبكر جداً . وسر لوسيان برؤية بيته من جديد

وكذلك البستان والمصنع ، والمدينة الهادئة المتزنة . انه عالم آخر : وقرر ان ينهض في الصباح الباكر ليقوم بنزهات كثيرة في المنطقة . وقال لأبيه: « أريد ان املأ رئتي بالهواء النقي استعداداً للعام القادم » . ورافق أمه في زيارتها لعائلتي بوفارديه وبيس ، ووجد الجميع انه اصبح شاباً متزناً . كان هبرار ونكلمن اللذان يدرسان الحقوق في باريس قد عادا الى فيرول لقضاء العطلة وخرج لوسيان مرات عديدة برفقتهم ، وتحدثوا عن الألاعيب التي قاموا بها مع الكاهن جاكار ، وعن أغنيتهم فوق الدراجة وأنشدوا نشيد مدفع متز ، بأصواتهم الثلاثة . كان لوسيان يقدر صراحة أصحابه القدامى وصلابتهم وألحى بالائحة على نفسه لأنه تخلى عنهم . واعترف لهبرار بأنه لا يحب باريس ولم يكن بوسع هبرار ان يفهمه : سلمه أبواه الى أحد الكهنة ؛ وهو لا يزال مبهوراً بمتحف اللوفر وبالأمسية التي قضاها في الأوبرا . ورق لوسيان لهذه البساطة . وشعر بأنه شقيق هبرار ونكلمن الاكبر ، وبات يشعر بأنه لا يأسف على تلك الحياة المعذبة التي قضاها : فقد اكسبته تجربة . وحدثهما عن فرويد وعن التحليل النفسي ، وتسلى قليلاً باغوائهما . لقد انتقدا بعنف نظرية العقد النفسية لكن آراءهما كانت ساذجة كما بين لهما لوسيان ، وأضاف بأنه من الناحية الفلسفية ، بالإمكان دحض نظريات فرويد . وكانا شديدي الأعجاب به ، فيتظاهر لوسيان بأنه لا ينتبه لذلك .

وشرح السيد فلورييه للوسيان كيفية العمل في المصنع . كما اصطحبه لزيارة الأبنية المركزية ، وراقب لوسيان مطولاً شغل العمال . وقال السيد فلورييه : « إذامت ينبغي ان تتمكن بين يوم وآخر من السيطرة على زمام المصنع. وزجره لوسيان قائلاً : « ألا تريد يا أبتاه ، أن تكف عن هذا الحديث ! » لكنه فكر في الأيام التالية بالمسؤولية الكبرى التي ستلقى على عاتقه إن عاجلاً ام آجلاً . وتبادلا الآراء حول واجبات رب العمل ، وشرح له السيد فلورييه بأن الملكية ليست حقاً بل واجباً . واضاف : « يريدون ان يزعجونا بصراع الطبقات ، كما لو ان مصلحة أرباب العمل ومصلحة العمال متناقضة ! خذ مثلاً

عني يا لوسيان . أنا رب عمل صغير ، وهذا ما يسمونه بالأرغولان بلغة باريس العامية . حسناً ، انني ، احيي مئة عامل مع عـائلاتهم . فاذا قمت بأشغال كبيرة ، فهم أول من يستفيد منها . لكنني اذا ارغمت على أقفال المصنع ، فانهم يتشردون في الشارع . وقال مشدداً على كلامه : « وليس لي الحق » ان أقوم بأشغال سيئة . وهذا ما أسميه انا تضامن الطبقات » .

وجرى كل شيء على ما يرام طيلة ثلاثة أسابيع. ولم يعد يفكر أبداً ببرجير . لقد غفر له ، لكنه تأمل على الأقل الا يعود الى رؤيته مدى الحياة . وأحياناً حين يبدل قميصه ، كان يقف أمام المرآة وينظر الى نفسه بدهشة ، ويفكر : « رجل اشتهى جسده » . ويمر بيديه على ساقيه مفكراً : « رجل اضطرب من أثر ساقيه» . ويمد يده الى مكان كليته ويأسف على أنه ليس رجلاً آخر ليداعب جسده كما يداعب قطعة الحرير . وكان يأسف أحيانـاً على عقده : فهي صلبة ، شديدة ، ترزح بعبئها الثقيل على كاهله . والآن ، انتهى كل شيء فلم يعد لوسيان يؤمن بها ، وأحس بشدة خفته . لم يكن ذلك من الأشياء التي لا تحتمل، بل هو نوع من النفوذ المحتمل ، والمؤلم الى حد ما ، يمكن ان يتحول الى قلق . وفكر في نفسه : « أنا لست اي شيء ، وذاك لأنني لم أتلطخ بشيء . أما برلياك فهو ملتزم كل الالتزام . وبامكاني ان أتحمل القليل من عدم اليقين : فهو فدية الطهارة » .

وفكر في احدى رحلاته بعد ان جلس على العشب : « لقـد تمت ست سنوات ، ثم استفقت ذات يوم » . كان مفعماً بالحيوية وهو يتطلع الى المناظر المحيطة . وقال في نفسه : « لقد خلقت من اجل العمل » . لكن أفكاره اصبحت باهتة . وقال بصوت خافت : « فلينتظروا قليـلاً حتى يروا ما أساوي » . وتكلم بقوة لكن الكلمات تدحرجت من فمه كالأصداف الفارغة : « ما بي » . ذلك القلق الغريب الذي لم يرض بالاعتراف به ، سبب له أذى كبيراً . لقد فكر في الماضي : « انه هذا السكون ... هذه البلاد ... »

ما من كائن حي سوى القبابيط تجرّ بطونها وسط الغبار بصعوبة ، كان يكره القبابيط لأنها تبدو أقرب الى الموت . وفي الجهة الثانية رأى الشجرة الباسقة ذاوية على حافة النهر . ما من أحد يرى لوسيان ، ما من احد يسمعه . وقفز في الفضاء وتهيأ له بان حركاته لا تصادف اية مقاومة ، حتى مقاومة الجاذبية ، وهو واقف وراء ستار من الغمام الأغبر . لكأنه موجود في الفراغ . وفكر في نفسه : « هذا السكون ... » كان شيئاً يفوق السكون ، انه العدم . وحول لوسيان بدا السهل ساكناً رخواً عديم الحياة بشكل عجيب : وبدا له أن السهل يتقلص كثيراً قاطعاً تنفسه كيلا يزعجه « متى يعود صاحب المدفع في ميتز الى كتيبته ... » وانطفأ الصوت على شفتيه كلهيب في فراغ : كان لوسيان وحده ، بلا ظل ، ولا صدى ، وسط هذه الطبيعة المتخفية ، التي لا وزن لها. وارتعش قليلا وحاول أن يعيد وصل حبل أفكاره : « لقد خلقت من اجل العمل . قد اضل في البدء : إذ بامكاني ان ارتكب الحماقات ، لكن هذا لن يبلغ مدى بعيداً لانني سأعود الى رشدي». وفكر : « لدي حجة معنوية » . لكنه توقف بعد ان كشر عن اسنانه مشمئزاً ، كم بدت له غريبة فكرة الكلام عن « الصحة المعنوية » ، على تلك الطريق البيضاء التي تسير عليها حشرات في نزاعها الأخير . ولشدة غيظه داس لوسيان على قبوط ؛ وشعر تحت حذائه بكرة صغيرة من المطاط ، ولما رفع رجله كان القبوط لا يزال على قيد الحياة ، فبصق لوسيان عليه . « أنا محتار ، أنا محتار ، كما في العام الماضي » . وراح يفكر بونكلمن الذي كان يلقبه « ببطل الابطال » ، وبالسيد فلوريبه الذي يعامله كرجل ، وبالسيدة بيس التي قالت له : « هذا الصبي الذي كنت أناديه بلعبتي الصغيرة ، لم أعد اجرؤ على مخاطبته بصيغة المفرد ، انه يرهبني » . لكنهم كانوا شديدي البعد ، وبدا له ان لوسيان الحقيقي قد فقد ، وليس سوى يرقة بيضاء محتارة «ما أنا؟» كيلو مترات وكيلو مترات تمتد على مداها الأراضي البور ، بلا عشب ولا رائحة ، الا الهليونة التي ، لشدة غرابتها ، ليس لها اي ظل . « من أكون؟»

لم يتغير السؤال منذ العطلة السابقة ، وكأنه ينتظر لوسيان حيث تركه ليرد عليه؛ او بالأحرى ليس سؤالاً؛ بل هو حالة من الحالات . وهز لوسيان كتفيه وفكر : « انني شديد الاشتباه ، وأحلل نفسي كثيراً » .

في الأيام التالية ، حاول أن يتغاضى عن تحليل نفسه : شاء ان يجعل الأشياء تسحره ، ونظر مطولاً الى الأشجار والواجهات ، وامتدح أمه كثيراً وهو يرجوها ان تريه الطقم الفضي . لكنه بينما كان ينظر الى الطقم الفضي ، فكر بأن وراء نظرته غمامة صغيرة تتراقص . وعبثاً حاول لوسيان أن يركز انتباهه على حديثه مع أبيه ، لكن الغمامة تسللت الى ما وراء الانتباه الذي كان يبديه لكلمات أبيه : تلك الغمامة ، انها هو بذاته . كان لوسيان من وقت لآخر يتغاضى عن الأصغاء، ويستدير الى الوراء، يحاول ان يمسك بالغمامة وينظر اليها مواجهة : ولم يصادف سوى الفراغ ، والغمامة لا تزال وراءه .

وجاءت جرمين باكية أمام السيد فلوربيه ، تقول ان أخاها اصيب بالتهاب رئوي . فقالت السيدة فلوربيه :

– مسكينة يا جرمين ، هذا الذي قلت عنه إنه متين العود !

منحتها عطلة شهر ، واستقدمت ابنة احد عمال المصنع لتحل محلها ، وهي برت موزيل الصغيرة ، وعمرها سبع عشرة سنة . إنها فتاة قصيرة ذات جدائل شقراء تلفها حول رأسها، وهي تعرج بعض الشيء . ولما كانت قادمة من كونكارنو ، رجتها السيدة فلوربيه على ارتداء مئزر موشى بالدنتيل ، « فهذا أكثر لياقة » . ومنذ اليوم الأول ، أخذت عيناها الزرقاوان الواسعتان، تشعان بالمحبة العنيفة عند رؤية لوسيان . انها تعبده . وتحدث اليها بلطف وسألها مرات عديدة : « هل أنت مسرورة في بيتنا ؟ ». في المرات كان يلامسها ليرى أثر الملامسة فيها. لكنها كانت تحنو اليه ، فوجد في تلك المحبة تعزية خالصة . كان يفكر اكثر الاحيان بنوع من التأثر بالصورة التي كونتها برت عنه : « في الواقع انني لا أشبه قط أولئك العمال الذين تعاشرهم

برت » . وادخل ونكلمان الى المكتب، فوجدها جذابة ، وقال له : « انك محظوظ ، لو كنت في مكانك لأقدمت » لكن لوسيان كان يتردد : إذ ان رائحة العرق تفوح منها ، كما ان قميصها الأسود اصبح رثاً تحت ذراعيها . في أصيل يوم ممطر من شهر أيلول ، قصدت السيدة فلوربيه باريس بالسيارة ، وبقي لوسيان وحده في الغرفة . استلقى على سريره وراح يتثاءب . وبدا له أنه غمامة كيفية الطباع ، تبقى على حالها وتتغير في نفس الوقت ، كما تذوب دائماً في الأهواء والشواطىء . «اسأل نفسي لماذا أنا موجود ؟ » انه هنا ، يهضم طعامه ، ويتثاءب ، ويسمع المطر يضرب الزجاج ، والغمامة البيضاء تتهادى في رأسه : وبعدها ؟ ان حياته فضيحة ولا تكاد المسؤوليات التي سيتحملها فيما بعد تكفي لتبريرها . وقال في نفسه : « على اني ، لم أطالب أحداً بخلقي » . واعتراه نوع من الشفقة على نفسه . وتذكر قلقه حين كان طفلاً ، وروبصته الطويلة ؛ فبدت له على صورة جديدة : في الواقع انه ما برح ينزعج من حياته ، من تلك الهدية الضخمة غير المجدية ، التي حملها بين ذراعيه دون ان يعرف اين يضعها . « لقد امضيت وقتي في الأسف على ولادتي » . لكنه كان شديد الاعياء وليس بإمكانه ان يذهب الى أبعد من ذلك . ونهض ، ثم أشعل سيكارة ونزل الى المطبخ ليطلب الى برت ان تحضر له قليلاً من الشاي .

ولم تره برت وهو يدخل . فلمس كتفها فارتعشت بعنف وسألها : « هل اخفتك ؟» ونظرت اليه بوجه ملؤه الرهبة وهي تلقي بكلتا يديها على الطاولة؛ وارتفع صدرها قليلاً . وما هي الا هنيهة حتى ابتسمت ثم قالت : « فوجئت بوجودك ، اذ لم أكن ادري ان هناك احداً » . فبادلها لوسيان الابتسامة بتسامح وقال لها : «أرجو ان تعدّي لي فنجاناً من الشاي » . فاجابت الصغيرة وهي تسرع نحو الموقد : « سأعده في الحال يا سيد لوسيان » . بدا لها ان وجود لوسيان شديد الوطأة عليها . مكث لوسيان في عتبة الباب متردداً وسألها بلهجة أبوية : « هل انت مسرورة في بيتنا ؟ » كانت برت تدير له ظهرها ،

تملأ الطنجرة من الحنفية . فخيم خرير الماء على اجابتها . وانتظر لوسيان لحظة ، وما ان وضعت الطنجرة على النار حتى تابع كلامه : « هل دخنت في السابق ؟ » فأجابت الفتاة بحذر : « مرات كثيرة » . وفتح علبته ماركة كريفن، وناولها اياها . لم يكن شديد السرور اذ بدا له انه في مجال التآمر، فلا ينبغي أن يقدم لها سيكارة . فقالت مدهوشة :

– هل تريد ان ادخن ؟

– ولم لا ؟

– ستعنفني السيدة .

واعترى لوسيان شعور التآمر المقيت . فراح يضحك وقال : « لن نخبرها بذلك » . فاحمر وجه برت ، وتناولت سيكارة بطرف اصابعها ووضعتها في فمها . « هل ينبغي أن اشعلها لها؟ هذا خطأ » . فقال لها : «ألا تشعلينها؟» كانت تزعجه ؛ اذ بقيت في مكانها ، جامدة الذراعين ، محمرة الوجه طائعة، ترم شفتيها حول السيكارة ، وكأنها تضع في فمها ميزان الحرارة . واخيراً تناولت عود ثقاب من علبة حديدية بيضاء ، وحكت العود ، وأخذت عدة أنفاس وهي تغمز بعينيها وقال : « هذا لذيذ » . ثم اخرجت السيكارة من فمها، وضغطت عليها بأصابعها الخمس . وفكر لوسيان « هل وُلدت ضحية ؟» ثم شعرت بالأنس ، حين سألها اذا كانت تحب موطنها بريتونيا ، فشرحت له عن الأصناف الموجودة فيها ،حتى انها انشدت بصوت عذب خاطىء الايقاع، أغنية لروز بوردرن . ومازحها لوسيان بلطف، لكنها لم تفهم المهازحةوراحت تنظر اليه بوجه ملؤه الخوف ،كانت في تلك اللحظات تشبه الأرنب الأليف. وجلس على طاولة واحس بأنه مرتاح جداً وقال لها : « استريحي اذاً » . « أوه كلا يا سيد لوسيان . ليس أمام السيد لوسيان » . فامسكها من تحت ابطيها وشدها نحو ركبتيه وسألها : و«هكذا ؟ » وسمحت له بذلك بوجه ملؤه الانشراح واللوم ، وتمتمت بلهجة غريبة : « على ركبتيك ! » .ففكر

لوسيان بقلق : « انني رحت بعيداً ، لم يكن ينبغي ان ابعد الى هذا الحد ». وسكت : بينا ظلت هي جالسة على ركبتيه ، شديدة الدفء، ملؤها الهدوء، لكن لوسيان احس بقلبه يخفق وفكر : « انها شيء لي ، بامكاني ان أفعل بها ما اريد » . وتركها ، ثم اخذ إبريق الشاي وصعد الى غرفته : ولم تقم برت بأية حركة لامساكه .وقبل ان يحتسي الشاي ، غسل لوسيان يديه بصابون أمه المعطر ، اذ ان رائحة الإبط كانت تفوح منها .

« هل سأضاجعها ؟ » شغلت هذه المسألة الصغيرة بال لوسيان في الأيام التي تلت . كانت برت تقف طيلة الوقت في طريقه وتنظر اليه بعينين كئيبتين . وانتصرت الأخلاق ، أدرك لوسيان بأنه قد يجعلها حاملاً لأنه ليس ذا خبرة كافية . (ومن المستحيل ان يشتري « الكبابيت الواقية » من فيرول ، لأنه معروف فيها) وأنه سيسبب متاعب للسيدة فلوربيه . وفكر في نفسه بان مهابته في المصنع ستقل كثيراً اذا أخذت ابنة احد العمال تفاخر بأنها ضاجعته. « ليس لي الحق ان ألامسها » . لقد تجنب الانفراد ببرت طيلة الأيام الأخيرة من شهر ايلول . وقال له ونكلمن : « واخيراً ماذا تنتظر ؟ » فأجاب لوسيان إجابة جافة : «لن أقدم على هذه الخطوة فأنالا أرغب في غرام الخادمات ولما سمعه وينكلمن يتحدث عن غرام الخادمات ، صفر صفرة خفيفة وسكت .

كان لوسيان شديد الرضى عن نفسه : لقدتصرف كإنسان عصري، وهذا ما يعوض له عن الكثير من الأخطاء . ثم يقول ببعض الأسف : « كانت جديرة بالحيازة » . لكنه يعود ويفكر : « لكأنني نلتها : إذ هي قدمت نفسها ولم أرض » . واعتبر انه ليس بعد طاهراً . تلك المسرات الخفيفة شغلته عدة ايام ثم تحولت بدورها الى غمام . وفي بداية تشرين الأول ، أحس بنفس الضيق الذي كان فيه في العام الدراسي المنصرم .

لم يكن برلياك قد عاد ، ولا أحد يعرف شيئاً عن أخباره . ولاحظ

لوسيان وجود بعض الوجوه التي لا يعرفها : إن جاره الذي كان يجلس الى يمينه واسمه لي موردا درس سنة في فرع الرياضيات في بواتييه . وهو لا يزال اطول من لوسيان،فقد اصبح رجلا كبيربشاربيه الأسودين . لقد قابل لوسيان رفاقه بغير سرور ، لأنهم بدوا بعينه تافهين كثيري الضجيج : إنهم رهبان . وهو لا يزال يشترك بتظاهراتهم الجماعية ولكن بغير تحمس . واجتذبه لي موردان لأنه اكثر نضوجاً من الآخرين ، لكنه لم يبد عليه أنه أفاد قدر إفادةلوسيان من تجاربه الكثيرة الصعبة: إنه بالغ بالولادة. وغالباً ما كانلوسيان يتمتع بمنظر هذا الرأس الضخم المفكر ، الذي لا عنق له ، وإنما غرس بين الكتفين اعتباطاً : وليس بالامكان ادخال اي شيء فيه لا عن طريق الأذنين، ولا عن طريق العينين الصينيتين المحمرتين . وفكر لوسيان باحترام : « انه شخص له آراؤه الراسخة » . كما كان يتساءل ، وليس بغير حسد ، ما يمكن ان يكون ذاك اليقين الذي يجعل لي موردان ، يعي نفسه الى هذا الحد . « وهذا ما ينبغي ان أكونه: صخرة » . ودهش كثيراً اذ كيف للي موردان أن يفقه المنطق الرياضي ؛ وطمأنه الاستاذ هوسون بعد ان رد لهم الفروض الاولى : حل لوسيان سابعاً ، أما لي موردان فنال العلامة خمسة وحل في الدرجة الثامنة والسبعين . كل شيء كان يسير بانتظام . ولم يتعجب ليموردان إذ يبدو أنه توقع نتيجة أسوأ،ولم يكن خداه الاصفران الناعمان،وفمهالصغير، لتعبّر عن المشاعر . إنه كتمثال بوذا . لم يره أحد وهو غاضبسوى مرة واحدة ، في اليوم الذي دفعه لوفي الى غرفة الثياب . أرسل في البداية بعض الهمهات الحادة وهو يرفرف بحاجبيه . ثم قال في النهاية « الى بولونيا ! الى بولونيا ! يا يوبان القذر ،ولا تلطخنا بقذارتك هنا ». وخيم على لوفي بقامته الضخمة وما لبث ان صفعه صفعتين ، فاعتذر لوفي القصير ، ووقف الأمر عند هذا الحد

يوم الخميس خرج لوسيان بصحبة غيغار وقد دعاه الى الرقص عند صديقات شقيقته . لكن غيغار اعترف في النهاية بأن هذه البلاهات تقلقه .

وأمرّ للوسيان : « لي صديقة موظفة عند بليسنه ، في شارع رويال . ولها صديقة ليس عندها صاحب : فعليك ان تأتي معنـــا مساء السبت » .
وتنازع لوسيان مع أهله حتى سمحوا له بالخروج أيام السبت ؛ على ان يتركوا له المفتاح تحت المسحة . ولحق بغيغار في الساعة التاسعة الى احدى الحانات في شارع سانت – هونوري . وقال غيغار : « سترى ، ان فاني جذابة ومن ميزاتهـا أنها تحسن الاعتناء بهندامها » .

– وصديقتي أنا ؟

– أنا لا أعرفها ، لكنني اعرف انهـــا عاملة خياطة قدمت الى باريس مؤخراً من انغوليم .

وأضاف : « لا تخطىء : أنا بيار دورا . وانت بما انك اشقر ، فقد قلت بأن دمك انـكليزي ، فهذا أفضل . واسمك لوسيان بونيار .

فسأل لوسيان مدهوشاً :

– ولكن لماذا ؟

فأجاب غيغار :

– يا صاح – انه مبدأ ، بامكانك ان تفعل أي شيء مع هؤلاء النسوة ، ولكن ليس بامكانك أن تعطيهن اسمك الحقيقي .

فقال لوسيان :

– حسناً ، حسناً . وماذا عن مهنتي في الحياة ؟

– بامكانك ان تقول إنك طالب ، فهذا أفضل ، فعشرة الطلاب تروق لهن ؛ ثم إنك تضطر لدفع ثمن ما هظ . أما بالنسبة للتـكاليف فسنقتسمها بالطبـع . ولكن دعني ادفع هذا المساء لاني آلفت ذلك : وسأعين لك يوم الاثنين المبلغ الذي ينبغي أن تدفعه لي . وفكر لوسيان في الحال بأن غيغار يريد ان يجني

مكسباً من وراء ذلك . وفكر أيضاً في نفسه : « كم اصبحت حذراً ! » في تلك اللحظة بالذات دخلت فاني : كانت فتاة طويلة سمراء اللون نحيلة الجسم ، ذات فخذين مديدين ووجه شديد التبرج . فوجدها لوسيان مهيبة . وقال غيغار : « انه السيد بانيار الذي حدثتك عنه » . فقالت فاني بغير اهتمام : «تشرفنا .وهذه مود ،صديقتي ». وأبصر لوسيان بامرأة قصيرةالقامة، لم تتبرج ، كما بدا لونها أغبر الى جانب فاني الرائعة . اصيب لوسيان بخيبة أمل مريرة ، لكنه وجدها جميلة الثغر – ثم انه لن يشعر معها بانزعاج . واتفق غيغار معهاعلىالأجرة وسط الضجة التي سادت عند دخولهما واصطحب الفتاتين نحو الباب ، قبل ان يفسح لهما المجال كي تتناولا شراباً ما . لم يكن السيد فلوريبه يعطي لوسيان أكثر من مئة وخمسة وعشرين فرنكاً في الاسبوع من ضمنها اجرة المواصلات . كانت الأمسية جميلة ؛ فقد ذهبوا ليرقصوا في الحي اللاتيني ، في قاعة ساخنة وردية ذات زوايا مظلمة ،حيث سعّر كأس الكوكتيل بمئة فلس . كان فيها الكثير من الطلبة مع نسوة من طراز فاني ولكن دونها رونقاً . وكانت فاني رائعة : نظرت الى رجل سمين أرسل لحيته ووضع في فمه غليوناً وصاحت بأعلى صوتها . انني أكره الرجال الذين يضعون الغليون في حلبة الرقص » . فاحمر وجه الرجل ووضع غليونه وهو يشتعل ،في جيبه . كما انها عاملت غيغار ورفيقه باحتقار مرددةعلى مسامعهما: « انتما صبيان قذران » . واحس لوسيان بأنه مرتاح جداً ، وقد مرد لفاني كثيراً من الدعابات المسلية وهو يبتسم عندما يقولها . واخيراً ، لم تعد الابتسامة تفارق وجهه وعرف كيف يتدبر امره بنوع من اللياقة . لكن فاني لا تكلمه كثيراً : بل امسكت ذقن غيغار بيدها وضغطت عليها لتبرز فمه الى الخارج . وما تدفق شفتاه وتنتفخان حتى تروح تلمسهما برفق قائلة : « يا طفلي » . وأحس لوسيان بانزعاج شديد ووجد غيغار مضحكاً : اذ تلطخت شفتاه بأحمر الشفاه وعلى وجهه آثار أصابع . لكن وضع الرفاق الآخر كان اكثر اهمالاً . الجميع يتعانقون ، كما تأتي من وقت لآخر السيدة

الموجة بغرفة الثياب وترمي بكرات متعددة الألوان صائحة : « هيا يا أبنائي، استمتعوا ! » . ويبدأ الجميع بالضحك . واخيراً تذكر لوسيان بأن مود موجودة فقال باسماً : « انظري الى هذين الشابين » . وهو يعني غيغار وفاني وأضاف : « أما نحن فشيخان وقوران ... » ولم ينه عبارته ، بل ضحك بصورة غريبة حتى ضحكت مود بدورها . وانتزعت قبعته ، ورأى لوسيان انها كانت افضل من سائر النساء اللاتي كنّ في الحلبة. عندئذ دعاها للرقص وحدثها عن الألاعيب التي قام بها مع الأساتذة ، عندما كان في صف البكالوريا. انها تحسن الرقص ، كما ان عينيها سوداوين رصينتين ، وعليها سيماء النباهة. حدثها لوسيان عن برت وقال لها انه يشعر بالندم متألماً وأضاف : « لكن هذا كان افضل لها » . ووجدت مود قصة برت شاعرية وحزينة معاً ، وسألت كم تكسب برت من عملها عند اهل لوسيان » . وأضافت : « أليس من المضحك حقاً أن تتخذ الفتاة لنفسها وضعاً معيناً » . لم يعد غيغار وفاني يهتمان بها ، فهو يداعبها وهي تداعبه ، وكان وجه غيغار مبللاً من العرق . وراح لوسيان يردد من وقت لآخر : «انظري الى الشابين، انظري اليهما » . وجهز عبارته : « انهما يدبان بي الرغبة لأعمل مثلهما » . ولكنه لم يضعها في مكانها واكتفى بالابتسام ، ثم تظاهر بأنه رفيق قديم لمود ، قد ملّ من الحب وسمّاها « بالأخ القديم ». وتظاهر بأنه يربت على كتفها . وفجأة نظرت فاني نحوها مدهوشة وقالت : « إذاً ، أيتها الطبقة الصغيرة ، ماذا تفعلان ؟ تعانقا ، فستموتان من شدة الرغبة » . واخذ لوسيان مود بين ذراعيه ، كان مزعوجاً بعض الانزعاج لأن فاني تتطلع اليهما : أراد أن تكون القبلة طويلة ناجحة ، لكنه تساءل ما ينبغي أن يفعله الناس ليستطيعوا التنفس . واخيراً ، وجد ان العناق ليس بمثل الصعوبة التي توقعها ، إذ يكفي ان يقبل المرء اعتباطاً حتى يزيح منخريه . وسمع غيغار وهو يعدّ : «واحد ... اثنان ... ثلاثة ... أربعة ... » وترك مود عند رقم اثنين وخمسين » . وقال غيغار لا بأس بهذا كبداية ؛ لكنني ساحسن الحال » ونظر لوسيان الى قشاط ساعته وراح يعدّ بدوره : « ترك

غيفار ثغر فاني بعد مئة وخمسين ثانية . وفكر في نفسه . وغضب لوسيان أشد الغضب ووجد انها مسابقة لا معنى لها . وفكر في نفسه : « لقد تركت مود بملء ارادتي ، فليس هذا صعباً ، اذ انه ما ان يتعلم المرء كيف يتنفس حتى يصبح بامكانه ان يستمر وقتاً لا نهاية له » . وعاودوا الكرّة ثانية . وما ان انتهى الجميع ، حتى تطلعت مود الى لوسيان وقالت له برصانة : « انت تحسن التقبيل » . فاحمر وجه لوسيان من السرور . وأضاف هو ينحني : « أنا في خدمتك » لكنه مع ذلك يؤثر تقبيل فاني . وافترقوا في الساعة الثانية عشرة والنصف، موعد المترو الأخير . كان لوسيان جذلاً : « لقد كسب القضية » . لكن زوايا فمه باتت تؤلمه لأنه ابتسم كثيراً .

اعتاد على مقابلة موديوم الخميس في السادسة وليلة السبت . كانت تسمح له بتقبيلها بدون ان تستسلم له . فشكا لوسيان الأمر لغيغار فطمأنه قائلا : « لا تقلق بالك ، فاني متأكدة من انها ستضاجع ؛ فهي لا تزال صغيرة ولم تعرف سوى عشيقين حتى الآن ؛ توصيك فاني بأن تكون شديد الرقة معها » . فقال لوسيان : « شديد الرقة » . كان يقبل مود كثيراً ويقول لها انه يحبها ، ولكن مع الوقت اصبح هذا رتيباً، ثم انه لم يكن فخوراً بالخروج معها : كما ان بوده ان يبدي لها بعض الملاحظات بشأن زينتها لكن لديها الكثير من المزاعم الخاطئة فضلاً عن أنها سريعة الغضب . وفي فترة ما بين القبلتين ، كانا يظلان صامتين ، يمسك واحدهما بيد الآخر مثبتاً نظره فيه . « الله يعلم بم هي تفكر ، بتلك النظرات الصارمة » . أما لوسيان ، فكان يفكر بشيء واحد : بتلك الحياة الكئيبة المبهمة ، حياته هو . فيقول في نفسه : « أود ان أصبح مثل لي موردان ، فهذا شخص عرف كيف يجد طريقه ! » في تلك اللحظات ، يرى نفسه وكأنه انسان آخر : يجلس بجوار امرأة تحبه ، يدها في يده ، وشفتاها لا تزالان مبللتين من قبلاته ، ترفض السعادة التي يعرضها عليها : وحده . عندها يضغط بقوة على أصابع مود

الصغيرة وتصعد الدموع الى عينيه : إنه يريد ان يسعدها .

في يوم من ايام كانون الاول اقترب لي موردان من لوسيان، وكان يحمل ورقة وسأله : « هل تريد ان توقع عليها » .

- ما هذه ؟

- إنها عريضة احتجاج ضد عريضة أخرى تحمل مئتي توقيع ، تعارض التجنيد الاجباري . ونحن يلزمنا جمع الف توقيع » . واعترت لوسيان النشوة وسأل : « وهل ستنشره » - في جريدة أكسيون بالطبع . أو في الايكودي باري » وأراد لوسيان ان يوقعها في الحال ، لكنه لم يجد ان توقيعها بسرعة يدل على الرصانة . فأخذ الورقة وقرأها بانتباه كلي . وأضاف لي موردان : « انت لا تهتم بالسياسة ،وهذا شأنك . لكنك فرنسي ، ولك الحق بأن تقول كلمتك » . ولما سمع عبارة « لك الحق بان تقول كلمتك » عمت الفرحة في نفس لوسيان ووقع العريضة. وفي اليوم التالي اشترى جريدة الأكسيون ، لكن العريضة لم تكن موجودة فيها . ولم يتم نشرها إلا يوم الخميس ، لقد عثر عليها لوسيان في الصفحة الثانية بعنوان : « شبيبة فرنسا تسدد ضربة قاصمة الى وجه الحركة اليهودية الدولية». واسمه كان موجوداً ، في مكان غير بعيد عن اسم لي موردان . انه اسم ملائم . وفكر في نفسه : « لوسيان فلورييه ، اسم فلاح ، اسم فرنسي حقاً » . وقرأ بصوت عال قائمة الأسماء التي تبدأ بحرف ف ، ولما جاء دور اسمه ، لفظه متظاهراً بأنه لم ينتبه اليه . ثم وضع الجريدة في جيبه وعاد الى بيته مسروراً على أشد ما يكون السرور .

وذهب من تلقاء نفسه بعد أيام لمقابلة لي موردان : « هل تقرأ جريدة الأكسيون أحياناً ؟ » فقال لوسيان بصراحة « ليس كثيراً ، فهي لا تهمني كثيراً : حتى الآن ، لكنني أحس بانني أتبدل » . كان لي موردان ينظر اليه بغير اهتمام . واخبره لوسيان بالتفصيل عما سماه برجير « بالتشوش » فسأله

لي موردان : « من أين أنت ؟

– من فيرول ، وأبي يملك مصنعاً فيها .

– كم بقيت من الوقت هناك ؟

– حتى الصف الثاني .

فقال لي موردان :

– أرى تماماً بانك غير مركز هل قرأت بارّس ؟

· قرأت كوليت بودوش .

فقال لي موردان بغير صبر :

– ليس هذا .

– سآتي لك بعد الظهر بكتاب « المهاجرين » انهـا قصتك . ستجد فيها « العلة والدواء » . كان الكتاب مجـلداً بغلاف جلدي أخضر . على الصفحة الأولى اسم « اندريه لي موردان . ودهش لوسيان ! لم يخطر قط ببـــاله ان يكون للي موردان اسم شخصي .

وبدأ قراءته ببالغ الحذر : فكثيراً ما شرح الناس له الأمور ، وكثيراً ما أعاروه الكتب قائلين له : « اقرأ هذا ، فهو يشبهك تمام الشبه » . وفكر لوسيان،بضحكة كئيبة، انه ليس الرجل الذي يمكن خداعه ببعض العبارات: عقدة اوديب ، والتشوش : يا لهـا من صبيانيات وكم ان هذا بعيد المنال ! لكنه تأثر منذ الصفحة الأولى : فليس الكتـاب في علم النفس . – والشباب الذين تحدث عنهم بارّس ليسوا من الأشخاص المجردين او الخـــارجين على مجتمعهم مثل رامبو وفرلين ، وليسوا مرضى كنساء فينّـــا اللواتي لا عمل لهن سوى التردد على عيادة فرويد ، وراح بارّس يضع هؤلاء الشباب

في إطار وسطهم وعائلتهم ؛ لقد احسنوا تربيتهم في المنـــاطق الخارجة عن باريس ضمن التقاليد المتينة . ووجد لوسيان ان ستوديل يشابهه . وقـال في نفسه : « هذا صحيح مع ذلك ، فأنا هاجرت من بلدي » . وفكر بصحة آل فلوريبه المعنوية، الصحة التي لا يؤتى بمثلها الا في الريف ، وفكر ايضاً بقوتهم الجسدية (كان جده يلوي قطعة النقود المعدنية بين أصابعـه . وتذكر بتأثر طلوع الفجر في فيرول : كان ينهض ، وينزل مسرعاً كيلا يوقظ أبويه ، يأخذ دراجته ، ويخلب لبه منظر الإيل دي فرانس . وفكر في نفسه بقوة : « لقد كرهت باريس على الدوام » . وقرأ « حديقة بيرنيس » ، وكان من وقت لآخر يقطع قراءته ويفكر ، بعينين شاردتين . ها انهم من جديد يقدمون اليه طبيعة ومصيراً ، وسيلة للتخلص من الثرثرات التي لا تنتهي، طريقة ليحـــدد نفسه بها ويعرف قيمتها . ولـكن يؤثره ذاك اللاوعي المفعم برائحة الحقول ، والذي عرفـــه عند بارّس لكي يؤثر على حيوانات فرويد الشهوانية . وحتى يدرك ذلك ، لم يكن ينبغي على لوسيان إلا ان يتحوّل عن تأمل عقيم وخطر لنفسه : ينبغي له ان يدرس أرض فيرول من الخارج والداخل ، وأن يفسر معنى الهضاب التي تبلغ « سرنيت » ، وان يتجه نحو الجغرافيـــا البشرية والتاريخ . أو ان عليه بالأحرى ان يعود الى فيرول ليعيش فيها : سيجدهـا تحت قدميه، خصبة وديعة، تمتد على طول الريف الذي يحمل اسمها، الريف الذي يمتزج بالأعشاب والغابات والسواقي . ومن هنـــاك ستأتيه القوة اللازمة كي يصبح قائداً . وحرج لوسيان شديد التحمس من خيالاته الطويلة ، انـه بات يفكر من وقت لآخر ، إنه قد وجد سبيله . والآن عندما يقف واجماً الى جانب مود ، كانت الكلمات ترن في أذنه «إعادة وصل التقاليد» . «الأرض والأموات» كلمات عميقة ليس لها قرار . وفكر في نفسه « كم هذا مشوق » . غير انه ، لم يتجرأ على تصديق ذلك : فكثيراً ما خاب ظنه . وأعرب للي موردان عن مخاوفه . فقال لي موردان : وسيكون الأمر جميلاً . فليس بالامكان ان يؤمن الانسان بسهولة بمـــا يراه . بل ان عليه ان يجرب » . وفكر لحظة ثم

اضاف : عليك ان تأتي معنا » . وقبل لوسيان بطيبة خاطر ، لكنه أوضح بأنه يريد حريته وقال : « سأذهب ، غير اني لن التزم . سأرى وافكر » .

ومر لوسيان بصحبة صغار البائعين ، الذين استقبلوه استقبالاً قلبياً وبسيطا معاً ، ولم يمض وقت طويل حتى شعر بالارتياح بينهم . وتعرف بسرعة على «عصبة» لي موردان ، وهم عشرون طالباً يعتمرون قبعات المخمل . كانوا يداومون على الطابق الأول عند بولدر حيث يلعبون البريدج والبليار . وكان لوسيان يذهب للقائهم ، ويدرك بأنهم تبنوه ، لانهم يستقبلونه دائماً هاتفين : « ها هو أجملنا ! » أو « انه فلوربيه ذخر الوطن » . لكن حسن عشرتهم هي التي أثرت في نفس لوسيان : فلا ادعاء ولا استبداد ، وقليل من المحادثات السياسية . كان يضحكون وينشدون الأغاني ويهتفون للشبيبة الطلابية ، حتى لي موردان نفسه الذي لم ينكر عليه احد جديته كان يبتسم في بعض الأحيان . أما لوسيان ، فكان يسكت في أكثر الاحيان منصتاً الى هؤلاء الشباب الرافلين بالصحة ، الزاخرين بالعضلات . وفكر في نفسه : « انهم يشكلون قوة » . لقد تعرف في وسطهم على معنى الشباب الحقيقي : اذ ان معناه ليس موجوداً في الاغراء المريض الذي يقدره برجير . الشبيبة ، انها امل فرنسا . ولم يكن لأصدقاء لي موردان مظاهر المراهقة المغرية : انهم راشدون نبتت لحاهم ، يبعثون في نفس الناظر اليهم نوعاً من الارتياح العائلي : لقد انتهوا من متاهات السن وشكوكه . كانت ممازحاتهم الخفيفة القوية تثير الخجل في نفس لوسيان : لكنه بالامكان اعتبارهم غير واعين لتلك الحال . ولما جاء ريمي ليعلن أن السيدة دوبوس ، زوجة القائد الراديكالي ، قد قطعت الشاحنة ساقيها ؛ انتظر لوسيان ان يعمد الرفاق الى الترحم على زوجة الخصم . لكنهم انفجروا بالضحك وراحوا يضربون على أفخاذ بعضهم البعض قائلين : «الجثة العتيقة» . « سائق الشاحنة ذو التقدير » . وتأثر لوسيان قليلاً ، غير انه ادرك أن ذلك لم يكن سوى الرفض : لقد استشفوا الخطر ، ولم يرضوا بنوع من الشفقة . وراح لوسيان يضحك بدوره ، واحرز بعض النجاح . وعندما كان يقول :

« إذا قضى في سريره هذا الرجل ، فليس هناك من إله » وأحس بأن نوعاً من الغضب الشديد يتولد فيه . عندها ضغط على فكيه ، وأحس للحظة بأنه مقتنع اقتناع ريمي ودي بيرو الضيق. وفكر في نفسه : « إن لي موردان محق . إذ ينبغي اجراء الممارسة ، فكل القضية هنا » . وتعلم أيضاً كيف يرفض المناقشة : فغيغار الذي كان جمهورياً ، أرهقه بالملاحظات . واصغى اليه لوسيان بطيبة خاطر ، ولم تمض لحظة حتى أغلق على نفسه . واستمر غيغار بالكلام ، لكن لوسيان لم يعد ينظر اليه ، بل راح ينفخ الدخان من فمه على شكل دوائر وهو يتفحص وجوه النساء. غير انه كان يسمع ، رغم كل شيء ، ملاحظات غيغار التي تصل الى مسامعه وتتحول من ثم الى كلمات خفيفة لا معنى لها . واخيراً سكت غيغار متأثراً كل التأثر . وحدث لوسيان أبويه عن أصدقائه الجدد وسأله السيد فلوريبيه إذا كان ينوي أن يصبح بائعاً صغيراً . وتردد لوسيان ثم قال برصانة : « إن هذا يجتذبني . حقاً انه يجتذبني — فقالت أمه : « لوسيان ، أرجوك لا تقدم على هذا العمل ، انهم متقلقلون ، وقد تقودك صحبتهم الى السجن ؟ ثم انك لا زلت صغيراً ولم يأت الوقت لتعمل في السياسة » . ولم يجبها لوسيان بسوى ابتسامة جادة ، فتدخل السيد فلوريبيه قائلاً بعذوبة : « دعيه يا عزيزتي ، دعيه يقدم على هذا العالم ، إذ ينبغي أن يمر بهذه المرحلة » . وبدا للوسيان منذ ذلك الحين أن أهله باتوا يعاملونه بنوع من الاعتبار . غير انه لم يصمم على شيء . فقد علمته هذه الأسابيع الأخيرة الكثير من الأمور . وتمثل فضول أبيه ، ومخاوف أمه ، واحترام غيغار ، والحاح لي موردان ، ولجاجة ريمي وقال هو يهز رأسه : « ليس ذلك عملاً بسيطاً » . وتحدث مطولاً مع لي موردان ، وتفهم لي موردان جميع الأسباب التي قدّمها ، ونصحه بألا يستعجل . كان لوسيان لا يزال يشعر بالضيق : وبدا له انه ليس سوى شيء شفاف يرتجف على سطح فنجان القهوة ، ورأى أن تحركات البائعين الصغار لا مبرر لها . غير انه أحس في لحظات أخرى بأنه قاس وثقيل كالحجر ، فسرّ لذلك بعض السرور .

وأخذت أحواله تتحسن مع أولئك الأصحاب . فأنشد لهم أنشودة عرس ربيكا التي علمه إياهـا هبرار في العطلة الماضية . وصرح الجميع بأن الأنشودة مسلية جداً. فتحمّس لوسيان وأبدل بعض الملاحظات ضد اليهود وتحدث عن برلياك البخيل : « كنت أقول في نفسي لمـاذا هو مقتر الى هذا الحد ، ليس بالامكان ان يكون المرء مقتراً الى هذا الحد . ثم فهمت ذات يوم انـه ينتمي للقبيلة » . وراح الجميع يضحكون فتحمس لوسيان حماساً كبيراً : أحس بأنه شديد النقمة على اليهود كما ان ذكرى برلياك كانت كريهة جداً بالنسبة اليه . ونظر اليه لي موردان ملياً وقال له : « أنت عفيف » . وبعدهـا سئل لوسيان مراراً «فلورييه :اخبرنا قصة عن اليهود » . ويبدأ لوسيان بسرد القصص التي حفظها عن والده ، مستهلاً كلامه بتقليد لهجة اليهود . ليضحك رفاقه . ذات يوم قال ريمي وباتنوتر إنهما اشتبكا مع يهودي جزائري على ضفاف السين وجعلاه يخاف خوفاً شديداً وهما يتقدمان اليه وكأنهما يريدان إلقاءه في الماء وختم ريمي حديثه بقوله : « يا للأسف ، آه لو كان فلورييه معنا » . فقاطعه ديبرو « إن غيابه افضل ، لأنه لو كان موجوداً لألقى به فعلا في الماء . ليس لدى لوسيان من شبيه له حتى يتعرف على اليهودي بمجرد رؤيته . وعندما يخرج مع غيغار ، كان يدفعه برفق : « لا تستدر الى الوراء في الحال : هذا القصير الضخم الذي وراءنا هو واحد منهم » . فيقول غيغار : « لديك حاسة قوية في مثل هـذه الأمور » . وفاني بدورهـا لاتستطيع ان تشم رائحة اليهود . صعد الأربعة معاً يوم الخميس الى غرفة مود ، وغنى لوسيان أنشودة عرس ربيكا . ولم تعد فاني تتمالك نفسها فقالت له « توقف ، توقف ، سأبول في سروالي » . ومـا ان ينتهي حتى ترمقه بنظرة ملؤها السرور والعذوبة . في معمل بولدر ، دبروا للوسيان مقلباً . فهناك دائماً من يقول : « فلورييه الذي يحب اليهود كثيراً » أو « ليون بلوم صديق فلورييه الكبير » ... بينما ينتظر الآخرون فاغرين أفواههم ردّ الفعل لديه ويحمر وجه لوسيان ، ويضرب على الطاولة صائحاً : « يا للاسم اللعين ... ! » فيضحك الجميع ويقولون :

« ها قد مشى ؟ ها قد مشى !

كلا لم يمش : بل ركض ! »

كان يصحبهم اكثر الأحيان الى الاجتماعات السياسية ويستمع الى الاستاذ كلود والى ماكسيم ريل دل سارت . ولا شك بان هذه الأمور كانت تعيق لوسيان عن دروسه ، ولم يعد يتأمل بالنجاح في تلك السنة في مباراة المدرسة المركزية ، لذا كان السيد فلوريه يقول لزوجته : « لا بأس ، عليه ان يتعلم كيف يكون رجلاً » وعندما يخرجون من الاجتماعات يعمد لوسيان ورفاقه الى ارتكاب الأعمال الصبيانية لشدة تحمسهم . ذات يوم وكانوا خمسة عشر شخصاً يسيرون في شارع سان أندريه دي آر أبصروا بشخص يقرأ جريدة الأومانيتيه. فحصروه عند الحائط وأمره ريمي بقوله : « إرم هـذه الجريدة » . وأراد الرجل ان يقـاوم ، فجاء ديبرو من ورائه وكتّف له يديه ، بينما انتزع منه لي موردان الجريدة . انه لأمر ممتع :راح الرجل القصير يلبط في الهواء صائحاً: « اتركوني ! اتركوني ! » بلهجة مضحكة ، بينما كان لي موردان يمزق الجريدة على مهل . ولكن حين أراد ديبرو أن يفلت الرجل ، تأزمت الأمور : كاد الرجل يمسك لي موردان ، لو لم يضربـه ريمي على أذنه ضربة قوية .فارتطم الرجل بالجدار ونظر اليهم صائحاً : « يا لكم من فرنسيين قذرين ! » فقـال له مارشسو : « كرّر ما قلته » . وفهم لوسيان ان القضية سيزداد تدهورهـا : اذ ان مارشسو لم يكن يستطيع الممازحة حين تتعلق القضية بفرنسا وقـال الرجل الغريب . « يا لكم من فرنسيين قذرين » . فتلقى ضربة قوية وارتمى الى الأمام مطأطىء الرأس صائحاً : « يا للفرنسيين القذرين ، يا للبورجوازيين القذرين ، انني اكرهكم ، أريد أن تموتوا جميعاً ، جميعاً ! » وأضاف الكثير من الشتائم الأخرى التي لم يكن لوسيان ليتصورها . عندها ضاقوا بـه ذرعاً واشتركوا جميعاً في عملية إصلاحه . ومـا هي الا لحظة حتى تركوه فتهالك الرجل ،وأسند ظهره للجدار ،وتجمعوا حوله بعد ان تعبوا من الضرب ينتظرون

وقوعه على الأرض . ولوى الرجل فمه وبصق : « يا للفرنسيين القذرين ! »
وسأله ديبرو وهو يلهث : « هل تريد ان تعاود الكرة . ولم يبد على الرجل
انه سمع : بل كان ينظر اليهم بعينه اليسرى ، التي لم تصب وراح يكرر :
« يا للفرنسيين القذرين ! يا للفرنسيين القذرين ! »

ومرت فترة تردد ، وفهم لوسيان بأن رفاقه لن يتابعوا الجولة . فانقضّ
بدوره على الرجل بكل قواه . وسمع شيئاً يقرقع ، فنظر اليه الرجل مبغوتاً
« يا للقذرين ... » وبدأت عينه اليمنى المغمضة تنفتح بعض الشيء . ووقع
على ركبتيه ولم يضف أي شيء . فقال ريمي : « فلنذهب » . وراحوا
يركضون ولم يتوقفوا إلا عند جادة سان — ميشال : ما من أحد لحق بهم .
وحسنوا وضع ياقاتهم وسرّحوا شعرهم على عجل .

ومضت السهرة بدون ان يأتي الشباب على ذكر مغامرتهم ، وتآنسوا
فيما بينهم : ها انهم يتركون ذلك العمل الوحشي الذي يخفي مشاعرهم
وراءه . وراحوا يتحدثون بكل تأدب ، وفكر لوسيان بأنهم بدوا للمرة
الأولى كما ينبغي أن يكونوا عليه في منازل أهلهم. لكنه كان منزعجاً ؛ إذ أنه
لم يألف القتال في الشارع مع أبناء الأزقة ، وفكر بمود وفاني بجنو .

لم يذق طعم النوم . وفكر في نفسه: «ليس بامكاني ان ألتحق بهم كهاو،
عليّ أن اعلن انتمائي الآن ! » وشعر بأنه رصين جداً حين زفّ النبأ للي
موردان . فقال له : « ها أنك تصمم ، وأنا معك » . وربت لي موردان على
كتفه ، واحتفلت الجماعة بالحدث وشربوا عدّة زجاجات . وعادوا الى
لهجتهم العنيفة ولم يتنالوا حادث البارحة . ولما هموا بالافتراق قال مارشسو
للوسيان : « ضرباتك قوية ! » فأجاب لوسيان : « لقد كان يهودياً ! »

وفي اليوم الذي تلا الغد ، أتى لوسيان لمقابلة مود وهو يحمل قضيباً
غليظاً من الخيزران اشتراه من جادة السان ميشال . وأدركت مود المغزى في
الحال ،ونظرت الى القضيب قائلة : « إذاً فقد تمّ الأمر » . وأجابها باسماً :

« لقد تمّ » . ورأت مود أن هذا يرفع من شأنها شخصياً ؛ وإن كانت أقرب الى اليسار ، فانها واسعة الأفق .وقالت له : « انني أجد جوانب حسنة في جميع الأحزاب » . وفي المساء ؛ حكت له اذنه عدة مرات وهي تخاطبه بالبائع الصغير . بعد ذلك بوقت قصير ، يوم السبت ، شعرت مود بالتعب وقالت له : « أرى أنه ينبغي أن اعود الى البيت ، ولكن بامكانك أن تصعد معي ، لو كنت عاقلاً : ستمسكني بيدي وستكون لطيفاً جداً مع مود الصغيرة التي تشعر بالألم ، وستقصّ عليها الحكايات » . ولم يتحمس لوسيان كثيراً للفكرة : اذ أنّ غرفة مود كانت تضايقه بقلة أثاثها ، فهي كغرفة الخادمات . لكنه من الجريمة أن يجعل الفرصة تفوته . وما ان دخلت مود ، حتى ارتمت على السرير قائلة : « أوف ، كم أشعر بالارتياح » . ثم سكتت ونظرت الى لوسيان بامعان بعد أن زمّت شفتيها . وأتى ليستلقي الى جانبها ، ووضعت يديها على وجهها وباعدت بين اصابعها قائلة بصوت كصوت الطفل : « كوكو ، ها أنا أراك ، أنا أراك يا لوسيان » وأحس بأنه ثقيل رخو ، ووضعت أصابعها في فمه فراح يمصها ، وقال لها برقة : « إن صغيرتي مود مريضة ، كم هي بائسة صغيرتي مود » . وداعب كل جسدها ، وكانت قد أغمضت عينيها وهي تبتسم ابتسامة غريبة . وما هي إلا لحظة حتى رفع فستان مود ورأى أنه يضاجعها . وفكر لوسيان : « أنا قدير » . وقالت مود بعد ان انتهيا : « آه ، لو كنت انتظر مسبقاً ! » ونظرت الى لوسيان بنوع من العتاب العذب : « يا لك من خبيث ظننت انك ستظل عاقلاً ! » وقال لوسيان بأنه فوجىء أيضاً بذلك وقال : « حدث الأمر تلقائياً » . ففكرت قليلا وقالت له برصانة : « أنا لا آسف على شيء ؛ في السابق كان الامر أكثر طهارة ، ولكن أقلّ كالاً » .

وفكر لوسيان في المترو : « إن لي عشيقة » . كان فارغ الذهن ، تعباً ، يشم رائحة الافستين والسمك الطازج . وجلس في مكانه جامداً ليتجنب ملامسة قميصه المبلل بالعرق . وتهيأ له أن جسمه قد صنع من اللبن . وكرر

لنفسه بقوة : « ان لي عشيقة ». لكنه شعر بالحرمان؛ فان الذي جعله يرغب في مود حتى عشية أمس ، كان وجهها الضيق ، وشكلها الرقيق ، وشهرتهـــا كفتاة رصينة ، واحتقارها لجنس الرجال ، وكل ما يجعل منها شخصاً غريباً ، انساناً « آخر » . بأفـكارها الخاصة وحشمتها ، وجوربيها الحريريين ، وذاب الطلاء حين ضمها اليه ، ولم يبق سوى اللحم ، لقد اقتربت شفتاه من وجـه ليس له عينان ، وجه عار كالبطن ، لقد حاز على زهرة ضخمـــة من اللحم المبلل . وتذكر الحيوان الأعمى الذي كان يتحرك في السرير وفكر : « انـه كلانا معاً » . لم يكونا سوى شخص واحد ، لم يعد بوسعه أن يميز لحمه عـن لحم مود . ما من أحد جعله يشعر بتلك الصحبة الخالصة سوى ريري : حين كان ريري يبدي عضوه وراء السياج أو حين كان ينسى نفسه نائماً على بطنه ، يحرك رجليه ويديه ، بقفاه العارية ، بينما هو يجففون سرواله . وشعر لوسيان ببعض العزاء حين فكر بغيغار : سيقول له غداً بأنه ضاجع مود ، «انها امرأة مثيرة يا صاح : والاثارة موجودة في فمها » . لكنه كان متضايقاً : يحس بأنه عار وسط المترو ، عار تحت ستار رقيق من الملابس ، جامد وعار بجـوار الكاهن ، مواجهاً امرأتين ناضجتين ، وكأنه هليونة قذرة .

وهنأه غيغار بحرارة . وكأنه قد سئم معاشرة فاني : « ان عشرتها سيئة للغاية . وأمس قلبت وجهها طيلة السهرة » . واتفق كلاهما على انه ينبغي وجود نساء كهذه النساء ، اذ ليس بالامكان ان يبقى المرء طاهراً حتى الزواج ، ثم إن هذه النسوة لسن مغرضات ولا مريضات ، سوى انه من الخطأ التمسك بهن . وتحدث غيغار عن الفتيات الحقيقيات بكثير من الرقة ، وسأله لوسيان عن أخته . فقال غيغار : « صحتها جيدة يا صاح . وتقول بأنك سريع الهجران » وأضاف بنوع من الشرود : « هـــل تدري ! انني مسرور لأن لي شقيقة ، اذ أن هناك أشياء لا نستطيع ان نعيها بدون الشقيقات . وأعطاه لوسيان كل الحـــق . وبعدهـــا ، أخذا يتحدثان كثيراً عن الفتيات وأحسا بأنهما مفعمان الشعر ، وكان يحلو لغيغار ان يردد قول أحد أعمامه ، وهو شديد النجاح مع

النساء : « لعلي لم افعل أية حسنة في حياتي الملعونة ، لكن هناك شيئاً واحداً سيسجله الله لي ، فمن الأفضل ان أتسبب بقطع يدي على ان أمدهـا نحو فتاة من الفتيات » . كانا يذهبان أحياناً لزيارة صديقات بييرات غيغار . وكان لوسيان يحب بييرات كثيراً ، يحدثها بلهجة الأخ الأكبر وليس بغير مضايقة ، كما انه شكر لهـا حسن صنيعها لأنها لم تقدم على قص شعرها . وملأت عليه نشاطاته السياسية كل شيء ، اذ راح يبيع « الأكسيون فرانسيز » أمام كنيسة نوبي . ويظل طيلة ساعتين يروح ويجيء ، منكش الاسارير . فترفع الفتيـات وهن خارجات من الكنيسة انظارهن الجميلة اليه . عندها ينشرح لوسيان قليلاً ويبتسم لهن. وقد أوضح لجماعته بأنه يحترم النساء وهو سعيد لأنه وجد انهن يتمتعن بنفس الإدراك الذي كان يأمله . وجميع أصحابه لهم شقيقات .

وفي ١٧ نيسان أقام آل غيغار حفلة بمنـاسبة بلوغ بييرات الثامنة عشرة من عمرها ، ودعي لوسيان الى الحفلة بالطبع . كان على صلة وثيقة ببييرات ، إذ انها تسميه راقصهـــا الخاص ، وهو يظن بعض الظن بأنها تحبه . ورقص لوسيان عدة مرات مع بييرات ثم راح ليلتحق بغيغار في قاعة التدخين. فقال غيغار : « تحية لك ، أظن بأنكم تعرفون بعضكم البعض ، سيمون ، فينوس ، لودو » . وبينما غيغـــار يقدم أصدقاءه ، أبصر لوسيان بشاب أشقر ، كث الحاجبين ، يقترب منهم بتردد ، فاجتاحه الغضب . وتساءل في نفسه : « ماذا يفعل هنـــا هذا الشخص ؟ » وغيغار يعرف حق المعرفة انني لا استطيع ان أشم رائحة اليهود! » وأشاح بوجهه وابتعد ليتجنب التعارف . وسأل بييرات بعد لحظة :

« ما هذا اليهودي ! »

— انه وايل ، طالب في معهد العلوم التجارية العليا ؛ تعرف عليه أخي في قاعة الاسلحة . فقال لوسيان : « انني اكره اليهود » . فضحكت بييرات ضحكة خفيفة وقالت : « انه شاب طيب، تعال رافقني الى البوفيه » وتناول

لوسيان كوباً من الشمبانيا ومـا كاد يلقيه من يده : حتى رأى نفسه بمواجهة غيغار ووايل . ونظر الى غيغار نظرة ملؤهـا الغضب وأدار ظهره بسرعة . لكن بييرات أمسكته بذراعه .وباغته غيغار بصراحة قائلاً ببساطة: « صديقي فلورييه ، صديقي وايل . هـا قد أجرينا التعارف » . ومد وايل يده ، وأحس لوسيان بضيق شديد . ولحسن الحظ ، تذكر كلام ديبرو : « لو كان فلورييه موجوداً لألقى به فعلا في الماء » . ووضع يديه في جيبيه وأدار ظهره لغيغار وفكر في نفسه وهو يطلب ثيابه : « لم يعد بامكاني ان آتي الى هـذا البيت مرة أخرى » . وأحس بنوع من التكبر المرير . « هذه هي عـاقبة التزمت ، يفقد المرء مقدرتـه على العيش في المجتمع » . وفي الشارع تلاشى ذاك التكبر واعتراه قلق شديد . لا بد وان يكون غيغار قد غضب !» وهز رأسه وحاول ان يقول لنفسه باقتنـــاع راسخ : « لم يكن ينبغي ان يدعو يهوديـاً ، في نفس الوقت الذي يدعوني فيه » . لكن غضبه تبدّد . وتذكر بنوع من الضيق وجهَ وايل المستهجن ، ويده الممدودة ، وشعر بميل للمصالحة : « لا بـــد وان تفكر بييرات بأني فظ غليظ . كان ينبغي ان أصافح تلك اليد . فذلك لا يلزمني بشيء . ان كل ما كان يتوجب علي هو ان أقوم بتحية ملؤها التحفظ وأبتعد بعدها على الاثر : هذا كل مـا هنالك » . وتساءل في نفسه إذا كان يستطيـع العودة الى بيت غيغار . سيقترب من وايل ويقول له : « اعذرني ، فقد اعتراني بعض الضيق . » وسيشد على يـده ويحدثه نوعاً من الحديث اللطيف » . ولكن لا . لقد فات الوقت . وتصرفه لا يمكن تلافيه . وفكر في نفسه غاضباً : « مــا كان يحوجني لابداء آرائي أمام أناس لا يفهمونها ! » وهز كتفيه بعصبية : انهـا كارثة . في نفس اللحظة كان غيغار وبييرات يعلقان على تصرفه ، وقال غيغار : « انه مجنون تمام الجنون !» وضغط لوسيان على قبضة يده . وفكر بنوع من اليأس : « أوه ، كم انني اكرههم ! كم أكره اليهود ! » وأراد ان يجني بعض القوة من ذلـــك الكره الكبير . لكن الكراهية تلاشت أمـام عينيه ، فمها فكر بان ليون بلوم يتلقى المساعدة من

ألمانيا ويكره الفرنسيين ، لم يعد يشعر بسوى نوع من اللامبالاة . ومن حظ لوسيان انه وجد مود في بيتها . وقال لها انه يحبها وضمها عدة مرات الى صدره بنوع من الثورة . وقال في نفسه : « انتهى كل شيء ، ولن أصبح رجلا مهماً». فقالت له مود : « لا . لا . كف عن هذا يا عزيزي الكبير ، هذا ممنوع » . لكنهـا رضخت في النهاية : أراد لوسيان أن يقبلها في كل مكان . وشعر بأنه صبياني النزعة منحرف الطباع . واعترته رغبة في البكاء .

وفي صبيحة اليوم التالي انعصر قلب لوسيان حين وقع نظره على غيغار . وتظاهر غيغار بأنه لم يره . ولم يتمكن لوسيان لشدة غيظه من كتابة شروح الاستاذ وفكر في نفسه : « يا للقذر ! يا للقذر » . وفي ختام الدرس اقترب منه غيغار وكان ممتقع اللون وفكر لوسيان : « لو اعترض ، سأضربه » . ومكثا لحظة جنباً الى جنب ، كلاهما ينظر الى رأس حذائه . واخيراً قـال غيغار بصوت متهدج : « اعذرني يا صاح ، فلم يكن ينبغي أن اقدم على هذا العمل » . وارتعد لوسيان ونظر اليه بحذر . لكن غيغار تابـع بصعوبة : « صادفته في القاعة ، هل تعلم . عندها أردت ... وكنا نتمرن معاً ، ودعاني الى بيته ، لكنني أدري ، كما تعلم ، لم يكن علي ان ، لست أدري كيف جرى سوى انني كتبت البطاقات لم أفكر بالأمر لحظة واحدة ... » ولم يكـن لوسيان يقول شيئاً لأن الكلمات لا تخرج من فيه ، لكنه شعر بميله للغفران . واضاف غيغار مطأطىء الرأس : « وبالنسبة لهذه الخطيئة ... » فقال لوسيان وهو يربت على كتفه : « يا لك من مصران خنزير ، انا اعرف حق المعرفة بأنك لم تتعمد ذلك » . وأضاف : « وأنا اخطأت بدوري .وتصرفت تصرف الفظ الغليظ . ولكن ماذا تريد ، لم استطع ان اتمالك نفسي ، فليس بامكاني ان ألامسهم ، وهـذا شيء طبيعي ، أحس بأن في ايديهم القشر . ما قالت بيرات ! » فقال غيغار برفق : « لقد ضحكت كالمجنونة » .

– والرجل ؟

– لقد فهم . وقلت كل ما بامكاني أن اقوله ، لكنه غادر الحفلة بعـد

ذلك بربع ساعة . واضاف بنفس الرفق : « قال أهلي بأنك محق ، وبأنه ليس بامكانك ان تتصرف بخلاف ذلك تجاه اعتقادك الراسخ . وتذوق لوسيان كلمة « اعتقاد » . واراد أن يضم غيغار بين ذراعيه وقال له : « لا بأس . لا بأس . طالما أننا لا نزال اصدقاء » . ونزل الى جادة سان ميشال بنوع من الانشراح العجيب : وبدا له أنه ليس الشخص نفسه.

وقال في نفسه : «غريب هذا الأمر ، فلست أنا أنا ، ولا أعرف نفسي!» كان الطقس دافئاً ولذيذاً ؛ والناس يجوبون الشوارع وعلى وجوههم ابتسامة الربيع الأولى . وانضم لوسيان الى هذا الجمهور المائع وكأنه زاوية من الفولاذ وفكر في نفسه : « ما عدت أنا نفسي ، أنا » كنت لا أزال حتى مساء أمس كالحشرة الضخمة ، التي تشبه قبابيط فيرول . والآن يشعر لوسيان بأنه دقيق دقة الكرونومتر . ودخل مقهى لاسورس وطلب كأساً . لم يكن صحبه يقصدون لاسورس لأنها تعج بالغرباء. لكن الغرباء واليهود لم يكونوا ليضايقوا لوسيان في هذه الايام . وأحس بأنه غريب على تلك المجموعة من الاجساد البشرية التي تضج كحقل « الشوفان » إذ تلعب به الريح . وتعرف على يهودي قصير ،كانت العصبة قد ضربته في الفصل المنصرم ، في ممرات كلية الآداب ». لم يظهر أثر الضرب على هذا الكائن العجيب السمين . لقد ألتوت اجزاؤه لكنه ما لبث ان عاد الى حالته السابقة . لكنه يعيش نوعاً من الاستسلام الفاضح .

انه سعيد في هذه اللحظة . لقد تثاءب بلذة . كما دغدغ شعاع الشمس منخريه ، فحك أنفه وابتسم . هل كانت تلك بسمة ؟ أو نوعاً من الارتجاج الذي نشأ في الخارج ،هناك في مكان ما من زاوية القاعة ،وجاء ليذوي فوق ثغره ؟ كان جميع هؤلاء الغرباء عائمين في مياه قاتمة ثقيلة ، تهز بتموجاتها أجسامهم الرخوة ، كما ترفع ايديهم ، وتحرك أصابعهم ،يا للأشخاص المساكين! ان لوسيان يشفق عليهم بعض الشفقة . لم أتوا الى فرنسا ؟ أية تيارات بحرية

جرفتهم وألقت بهم هنا ؟ ومهما احتشموا في لباسهم عند خياطي جادة سان ميشال ، فانهم ليسوا سوى حيوانات بحرية . وفكر لوسيان بأنه ليس حيواناً بحرياً ، وبانه لا ينتمي لاية مجموعة من الحيوانات المحتقرة . وقال في نفسه : « انني أغطس ! » وفجأة نسي لاسورس والغرباء ، ولم يعد يرى سوى ظهر ، ظهر عريض تكسوه العضلات ، يبتعد بسرعة بقوة متزنة ، ويضيع في الغمام. ورأى ايضاً غيغار : كان غيغار شاحب الوجه ، يلاحق هذا الظهر بعينيه ، ويقول لبيرات التي لم تظهر : « حسناً ، بالنسبة للغلطة !... » واعترى لوسيان نوع من السرور الذي لا مبرر له : ان هذا الظهر القوي المنعزل انما هو « ظهره » ! والحادثة جرت أمس وبمجهوده العنيف استطاع أن يتطلع الى ظهره بعيني غيغار ، وشعر بوضاعته وأحس بان الذعر قد دب فيه .وفكر في نفسه : « سيكون ذلك بمثابة درس لهم ».وتبدلت المناظر :انها غرفة بيرات الصغيرة ، والحادثة تجري في المستقبل . بيرات وغيغار يشيران الى اسم في لائحة المدعوين . لم يكن لوسيان موجوداً ، لكن سطوته خيمت عليها. وقال غيغار : « آه ! كلا . ليس هذا الشخص ! حسناً ! فمع لوسيان تصبح الامور جميلة ؛ لوسيان الذي لا يستطيع الرفق باليهود » . لقد تلفظ مراراً بتلك العبارة ، لكن هذه المرة تختلف عن المرات السابقة . كلا . في الظاهر ليس إلا ، كما لو أننا نقول : لوسيان لا يحب السمك » أو ان « لوسيان يحب الرقص » . ولكن ينبغي أن نتجنب الخطأ .فمحبة الرقص ، لعل بالامكان العثور عليها لدى اليهودي القصير ، وهي لا تكون آنئذ سوى ارتعاشة حيوان بحري . لم يكن ينبغي سوى التطلع الى هذا اليهودي اللعين حتى ندرك بان اذواقه لاصقة به كرائحته ، كانعكاسات جلده ؛ وبانها ستختفي معه كاهتزازات جفنيه الثقيلين ، وكبسماته المفعمة بالشهوة . لكن اللاسامية لدى لوسيان تتخذ طابعاً آخر : انها طاهرة عديمة الشفقة ، قد غرست بمنأى عنه كسكين الفولاذ ، مهددة صدوراً أخر . وفكر في نفسه : « هذا ، هذا ... لعين !» وتذكر بان أمه كانت تقول له احياناً في صغره : « والدك يعمل في مكتبه »

وبدت له هذه العبارة بمثابة سر من الاسرار المقدسة أفضت اليه فجأة بجمهرة من الموجبات الدينية ، كأن لا يلعب ببندقية الهواء المضغوط وان لا يصيح « ترارا بوم » في الممرات وهو يمشي على رؤوس اصابعه، كما لو انه داخل كنيسة . وفكر في نفسه راضياً كل الرضى : « الآن جاء دوري » . كانوا يقولون بصوت خافت « لوسيان لا يحب اليهود » ويحس الناس بان قوائم تتلاشى أمام جمهرة الاسهم التي تخترقها . ويقول في نفسه بحنو : « ان غيغار وبيرات طفلان » ارتكبا جرما كبيراً ، ولكن ما ان كشر لوسيان عن أسنانه حتى شعرا بتوبيخ الضمير وراحا يتكلمان بصوت خافت ويسيران على رؤوس أصابعهما .

وأحس لوسيان للمرة الثانية بأنه مفعم باحترام نفسه . لكنه هذه المرة ليس بحاجة لعيني غيغار : فهو يبدو محترماً بعينيه هو ، بعينيه اللتين تخترقان غلافه المصنوع من اللحم ، من الذوق ، والاشمئزاز ، والعادات ، والأمزجة . وفكر في نفسه : « لم أجد نفسي حيث فتشت عن نفسي » . وقام باحصاء جميع ما هو عليه . « لكنني إذا لم اكن إلا ما انا ، فانني لا أساوي اكثر من هذا اليهودي القصير » . ولو بحثنا في سر هذا الغشاء ماذا بامكاننا ان نجد ، إن لم يكن كآبة اللحم ، وأكذوبة المساواة ، والفوضى ؟ وقال لوسيان في نفسه : « الحكمة الأولى ، عدم البحث عن شيء في الذات . فليس من خطأ يفوق بخطورته هذا الخطر . وهو يعرف الآن ان لوسيان الحقيقي ينبغي ان يعثر عليه في أعين الآخرين، في طاعة بيرات وغيغار ، وفي الانتظار المفعم بالأمل لدى أولئك الناس الذين يكبرون وينضجون من أجله ، وفي هؤلاء العمال الذين سيصبحون عماله هو ، وفي سكان الفيرول كباراً وصغاراً ، كان فسيصبح يوماً ما رئيساً لبلديتهم . واعترى لوسيان بعض الرهبة . وشعر بانه كبير على نفسه . فكثيرون من الناس ينتظرونه لحمل السلاح : وهو كان وسيظل دائماً يجسّد انتظار الآخرين . وفكر في نفسه « هذا هو القائد » . ورأى من جديد ظهراً مكسواً بالعضلات ، ثم رأى بعد ذلك كنيسة كان في داخلها يسير بخطى الذئاب تحت الأضواء المكيفة « لكنني ، انا الكنيسة » . وأمعن

النظر الى جاره ، وهو رجل كوبي اسمر عذب كالسيكار . كان ينبغي ايجـاد كلمات بأي شكل للتعبير عن هـــذا الاكتشاف العجيب . ورفع يده بتؤدة وبعناية فائقة الى جبينه ، وخلا لنفسه قليلاً وجاءته الكلمات من تلقاء ذاتهـا وتمم : « لي حقوق ، حقوق !» شيء على صورة المثلثات والدوائر : إنه كامل الى حد انه ليس موجوداً ، فمهما رسمنا خطوطاً مستديرة بواسطة البركار فلن نتمكن من رسم الدائرة . أجيال من العمال ستطيـع أوامر لوسيان كل الطاعة، ولن تستنفد حقه بإعطاء الأوامر . فالحقوق من وراء الوجود كالأشيـــاء الرياضية والعقائد الدينية . وهذا ما كان عليه لوسيان بالضبط : باقة ضخمة من المسؤوليات والحقوق لقد آمن لوقت طويل بأنه وجد بالصدفة : ومردّ ذلك لأنه فكـّر ما فيه الكفاية. فقبل ولادته كان اسمه مسجلاً في الشمس .في فيرول ، كانوا « بانتظاره » حتى قبل زواج أبيه . واذا ما أتى الى العالم الآن فلـكي يحتل هذا المكان . وفكر في نفسه، « أنا موجود لأن لي الحق بالوجود ولاول مرة ، على ما يبدو ، شهد رؤيا ساطعة مجيدة في مصيره . سيتم قبوله في المدرسة المركزية ان عاجلاً ام آجلاً (وليس لهذا أية اهمية على كل حال.) عندها يتخلى عن مود (انها تريد طيلة الوقت ان تضاجعه .وهذا مرهق فان رائحة الشواء تنبعث من امتزاج جسديهما في مستهل هذا الربيـع الحار « ثم إن مود لجميـع الناس : اليوم هي لي وغداً لغيري وليس لهذا اي معنى » .) سيقيم في فيرول . في مكان ما من فرنسا فتاة من نوع بيبرات ، فتاة ريفية ذات عينين ورديتين ، لا تزال تحافظ على عفتها من أجله : كانت تحاول ان تتخيل سيدها في المستقبل ، هذا الرجل الرهيب العذب . لكنها لم تتوصل الى ذلك ،انهـا عذراء . وتعترف بحق لوسيان بامتلاك جسدها وحده . سيقترن بها وستصبح « زوجته » وهي اكثر حقوقه عذوبة . وحين تخلع ثيابها في المساء ، بحركات لا أهمية لها ، ستكون بمثابة قربان . سيأخذها بين ذراعيه بموافقة الجميـع ، ويقول لها : « انك لي ! » وان ما تبديه أمامه ، من واجبهـا ألا تبديه أمام غيره ، والعملية الجنسية ستكون بمثابة الاحصاء الشهواني لثرواته ، أي اكثر

حقوقه عذوبة ، وأعز حق عليه : حق الاحترام حتى في اللحم البشري ، والطاعة حتى في السرير . وفكر في نفسه : « سأتزوج في وقت مبكر » . كما فكر بعمل أبيه . انه يستعجل إتمامه وتساءل في نفسه إذا كان السيد فلوربيه سيموت بعد وقت قصير .

ودقّت ساعة الجدار الثانية عشرة: قبلها بساعة كان قد دخل المعهد شاب جذاب متردد ، فخرج منها رجلاً . هو قائد من الفرنسيين .وخطا لوسيان بضع خطوات في ضوء صباح فرنسي مُجيد . وفي زاوية شارع المدارس وجادة سان جرمان ، اقترب من مكان حانوت الورق وتراءى أمام المرآة : كان بوده أن يرى في وجهه ،وجه لي موردان غير الشفاف. لكن المرآة لم تعكس له سوى وجه عنيد ، ليس مخيفاً جداً حتى الآن: وصمم في نفسه : « سأرسل شاربيّ » .

مطابع سميا - بيروت

هذا الكتاب

* إنَّ سارتر مُفكِّرٌ جبّار ، يُلاحِقُ ظُلماتِ النَّفسِ ، فاضِحًا معميات ألغازها بِعَقلٍ ثاقبٍ وَحِسٍّ مُرهفٍ . يُطارِدُ أسرارَ الفؤاد ، وكثيرًا ما يغلبها بنورِه المستطيل ، فتُلقي مقاليدها أمام قلمه . وهو إنسانٌ على حِدَة ، كالذي يَشرُدُ عن مراتبِ المألوفِ . مرَّةً في كلِّ جيلٍ ، ليضعَ الإنسانيَّة - من جديد - على الدروبِ الصّاعِدَة نحوَ البلاغ الأسنى .

* إنَّ دارسَ هذا المفكرِ الجبار ، يراهُ مُخلصًا في بحثِهِ عَنِ الحقيقة ، لأنه يطلبها بإلحاحٍ لا يتراخى . يطلبها في كلِّ شيءٍ ، بلْ وراءَ كلِّ شيءٍ ، دونَ أنْ يخاف من انتهائه إلى لا شيءٍ .

* لا شكَّ عندي ، في أنَّ سارتر يُريدُ أنْ يفتحَ أمامَ الإنسانِ ممرَّاتٍ واسعةً في القوَّةِ والثقةِ بالنفسِ . ممرّات تحرُّرٍ من الذُّلِّ والمسكنةِ ، وجُمودِ العاداتِ والتقاليد .

* يُريدُ سارتر أنْ ينفضَ عنْ كواهِلِنا غُبارَ ما تَوارثْناهُ مِنْ عقائدَ مُوهِنةٍ لِلعزيمةِ . يُريدُ خميرةً لا نخالةَ فيها لهذا نراهُ يقولُ بأنَّ الوجوديَّةَ فلسفةُ تفاؤلٍ وعملٍ ، لا يمكنُ مُطلقًا اتهامها باليأسِ ، إلاّ عَنْ نيَّةٍ سيِّئةٍ .

الثمن : ٤٠٠ ق.ل. او ما يعادلها

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت